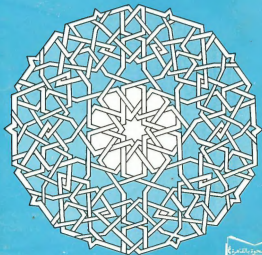


وحيد الدين خان

واقعنا ومستقبلنا
في ضوء الإسلام

ترجمة: د. سفيان عبد الصمد ابن الهيثم



وهيد الدين خان

واقمنا ومستقبلنا
في ضوء الإسلام

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

الطبعة الأولى



المحرمين

٩	مقدمة المؤلف
١٢	حقيقة الدين
٣٠	سهلة الحق
٣٩	الأركان الأربعة
٦٦	العوامل المستقيم
٨١	العوامل المستقيم في السلوك الفردي
٨٦	العوامل المستقيم الإجتماعي
٩٥	أسس النصر وقواعده
١٠٦	منهج الدعوة إلى الإسلام
١٠٩	الدين الكامل كيف يتحقق
١١٣	الإسلام في كشمير
١١٧	السيرة النبوية النموذج الأعلى للحركة الإسلامية
١٤٤	الإخراج من القبيلة
١٥٨	إنتصار الإسلام
١٦٨	الحركات الإسلامية في العصر الحديث
١٨٩	بناء الأمة
٢٠٥	الدعوة إلى الله
٢٤٠	الإمكانات الجديدة
٢٦٤	خاتمة

في قصة لروائي جنوب افريقيا المعروف (لونغير شرايفز) (١٨٥٥ - ١٩٢٠ م) . بعنوان (حكاية مزرعة افريقية) ترد حكاية صيد يوروبيها مسافر اجنبي لمبنى فلاح ، وقد تمثل ذلك « الصيد » في البحث عن « طائر الصدق » الأبيض الجميل الذي كان قد رآه للحنطة خائفة على شاطئ بحيرة . فإراد ان يوقعه داخل شرك الاعتقاد الطيب - في قنص تصوراته . الا أنه عرف ان الصدق يمكن نيله بالصدق فقط . فترك وادى الأوهام . وبدأ المصود فوق جبل الصدق وظل يصعد ويصعد حتى وقف أمام سخرة عالية تعترض طريقه . فبدأ يحفر في السخرة ... يصنع سلالم وأندراجا . ويظل يصنع تلك السلالم والأندراج سنة بعد سنة حتى أصابته الشظيطة وهذه الهرم ... وهينئذ وصل الى قمته . الا أنه أدرك بعد ذلك ان أمامه سخرة أخرى تفوق الأولى في علوها وارتفاعها بينما عمره الآن قد وصل الى نهايته . فتلوى الحياة عند هذا الحد .

وفي سكرات موته سقطت عليه ريشة بيضاء من جناح الطائر . فتأكد حينئذ أن الطائر الذي يقصده يقف هناك عند السخرة التالية . ومع أنه لم يستطع الوصول الى طائر (الصدق) بنفسه الا أنه أسلم الروح مطمئنا لأن الجيل الذي يليه لن يضطر الى بناء السلالم والأندراج السابقة . وسوف يتمكن هذا الجيل من أن يصك جناح الطائر بيده . ومات الشيخ وهو يقول :

« ... حيث أترقد ، وقد هدنى القصف وحلمتني الشظيطة . سيقت رجال آخرون ، شباب قوي ، تملؤهم النخرة والحيوية . سوف يصعدون الدرجات التي صنعت ، لن يعرفوا اسم الرجل الذي

صنع هذه الدرجات ، ولكنهم سوف يصعدون ، وعلى سلمى سيصعدون
... وسوف يخذون الصدق ، ومن خالتي سيخذونه »
(أوليفر ثرايلر : قصة مزرعة الفريفة)

لم أجد ما هو أفضل من السطور السابقة لأعبر بها عن قيمة
هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء الكرام .

لقد ولدت - على وجه التقريب - في الأول من يناير ١٩٢٥ م .
وقد انتقل والدي فريد الدين خان رحمه الله إلى الرليق الأعلى في
٣٠ ديسمبر ١٩٢٩ م حين كنت في الخامسة من عمري فقط . بعدها
تلقيت تعليمًا وتربويًا خاصة في بيئة متينة (أعظم كره) تميزت
بما فيها من تقاليد دينية ، واضطرتني ظروفي إلى أن أنظر إلى كل
شيء نظرة خاصة ودقيقة ، وحين وصلت إلى مرحلة الإدراك ، عرفت
أن الدين الذي حكم والأفكار الإنسانية وسيطر عليها لأتة سنة في
« العصر القديم » . قد أصبح مستضعفاً من كل ناحية في « العصر
الجديد » فظهرت بداخلي عاطفة تدفعني لأبحث في هذه القضية .
فبدأت القراءة والمطالعة بالنظام .

ويظن معظم الناس أنني من خريجي الجامعة ، إلا أن الحقيقة
هي أنني قضيت جميع مراحل تعليمي داخل المدرسة العربية فقط .
وبعد أن انتهيت من الدراسة بالمدرسة العربية ، تعلمت بنفسى اللغة
الانجليزية . ونتيجة لقراءتي لهذه اللغة وكتبتها قراءة مستمرة ، ساد
الأسلوب الجديد طريقتي في الكتابة فبدأ الناس يعتقدون أنني لم
أدرس بالمدرسة العربية وأنتى تلقيت تعليمي على النهج الغربي :
والحقيقة أنني بالمعنى الاصطلاحي للتعليم في الهند (مولوى)
(أي شيخ فقيه) .

وقد شكل تعليمي أو بمعنى أدق شكلت الطغفية الفكرية التي واجهتني طوال سني تعليمي مدرسة تعليمية تقليدية - على الأقل - إلا أنه من الواضح أن هذا الأمر لم يكن كافيا لفهم الإسلام جيداً يتعلق بالعصر الجديد . ومن هنا وفي سنة ١٩٤٨ م اكتشفت قراراً جديداً . فحاولت من ناحية أن اتعرف على الأفكار الجديدة من مصادرها المباشرة . ومن ناحية أخرى بدأت قراءة القرآن والحديث والعلوم المتعلقة بها لفهم الإسلام من التبدلية . وإذا كانت السنوات الخمس والعشرون الأولى من حياتي قد انقضت في الدراسة والتعليم فإن الخمس والعشرون سنة التالية قد انقضت في البحث والمناقشة . وحين تنقضي الخمسون سنة الآن - فليبرني أن أقدم هذا الكتاب الذي يعد نتاج بحث طويل !!

وإذا كنت بهذا قد صنعت أدراج أو سلالم الصخور النظرية فإن أسمى جيلاً آخر - وقد وجب الآن أن تتحرك مهمة الإسلام بصورة عقلية في ضوء الحقائق المكتشفة .

لكنني أتمنى أن طاعتني قد غشيت : فقد سجل بشيخوختي جهاد الماضي الشديد قبل الأوان : إذ قضيت عمري كله في صنع « السلام النظرية » فكيف لي أن أصنع « السلالم العملية » ويكتفيني أن أتمنى بالاضطرار : لأنني قد اكتشفت (المصدق) على الأقل بطريقة فكرية .

فلعلني أموت وأنا أقول إن من بعدى جيلاً لن يضطر إلى صنع السلام السابقة + + + » !!

وهيد الدين

(١٣٩٥ هـ) (١٩٧٥ م)

حقيقة الدين

العبادة :

ما يريد الله من عباده يتمثل أملاً في العبادة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » *

(الذاريات - ٥٦)

هذه الآية وأيات أخرى متشابهة توجد بثقوة في القرآن الكريم . وهي الآيات التي جاء فيها أن الرسل إنما بعثوا ليصلحوا الإنسان على مسئوليته هذه (النص ٣٨) (١) . وهذا الأمر على درجة من الأهمية حتى أن الإنسان إذا لم يجد الفرصة لعبادة الله في وطنه . وجب عليه أن يترك هذا الوطن وينتقل إلى وطن آخر (النص ٩٧) (٢) والمفهوم اللغوي للعبادة هو أن تخضع وأن تعدل (أصل العبودية الخضوع والتذلل - إنسان العرب) والمفهوم اللغوي للعبادة هو نفسه المثلول الشرعي لها أيضا . وقد كتب أبو حيان الاندلسي يقول :

« العبادة التذلل . قاله الجمهور » *

(البحر المحیط - المجلد الأول من ٢٣)

ولهذا استعمل لفظ « الاستكبر » للسلوك المتقبل للعبادة -

قال تعالى :

(١) يفسد المؤلف قوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » *

« تراجم » *

(٢) يفسد المؤلف قوله تعالى : « أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر سلكوا

سبيلهم فلولا تلك المستغفرين في الأرض فلولا أن تلك الأرض الله واسمها صابغوا بها » *

« تراجم » *

« إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين »

(المؤمنون - ٦٠)

ومع أن أصل مفهوم العبادة هو الخضوع والتذلل إلا أن هذا اللفظ حين يقدر أنه فهو يشمل أيضا مفهوم المحبة + يكتب ابن كثير :

« العبادة في اللغة من الذلة . يقال طريق معبد وبمعير معبد أي مذك . وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . »
(تفسير القرآن - المجلد الأول من ٢٥)

وهذه ألفاظ الأئمة ابن تيمية :

« لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب » .

(رسالة العبودية من ٢٨)

وحسب الاحتياط ابن القيم .

« العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغية الذل والخضوع » .

(تفسير ابن القيم من ٦٥)

فالعبادة الأساسية من العبادة هو الخضوع لله والتذلل له . وذلك ما عبر عنه القرآن الكريم بالكلمات التالية : « خشية » . تضرع . إخبات . التابة . خضوع . خضوع . قنوت « وغيرها من الكلمات . لعبادة الله تعنى أن تسلم نفسك وتخضع لله إلى أقصى درجة . ثم أن هذا العمل الذي يمثل العبادة لا يتم أمام نظام وجبار بل أمام ربه رحمن رحيم . له علينا حسنات وفضائل لا نهاية لها . ومن هنا وجب اظهار عظيمة الحب داخل هذا الخضوع والتذلل بصورة ضرورية » فالعلامة بين العبد والرب هي علاقة خضوع وتضرع بحسب شديد يفوق كل حب . وفي الوقت نفسه حين يرتعد العبد من شدة الخوف . تانسكب

الدموع من عينيه حين يتصور الله أمامه . وفي الوقت نفسه يكون في حالة تجعله يهب لربه أحسن وأطيب عواطفه . فهو يتطلع إلى أنه بنشئناك يفوق كل انشئناك . ويضع نفسه دألك كفية سلمية عليه من الحب الملىء بالألم . فالتفرع والتذلل له هو بلا شك أنه يكون من الخوف منه خوفاً لا يدانيه خوف . إلا أنه ليس خوفاً من النوع الذى يشعر به الإنسان حين يرى شيئاً مهيئاً بل هو فى الأصل عمله لا يمكن التعبير عنها — بطريقة صحيحة تماماً — بأى لفظ آخر . فهدء حاله تنتج من استزاج محبة الله بخصيه الله وفيها لا يمكن للإنسان أن يرجع إحداهما على الأخرى . فهذا مقام للمحبة والظروف يلجا فيه الإنسان إلى من يخشى ويخاف . فهو يشعر بحضر هناك فى عصاة الماء إلا أنه يقع الله فى الحصول على الماء فى هذه المسافة . لهذا نوع من الاضطراب كله لظلمتان . ونوع من الاطمئنان كله اضطراب .

ومن المعروف أن العبادة من حيث حقيقتها الإلهية هى أمر حسى وليست مظهراً خارجياً . والإنسان فى النهاية هو وجود حسى . ومن هنا تصبح العبادة للإنسان فى شكلها الأخير أمراً حسيماً وليست مظهراً خارجياً . وقد مرر الحديث الشريف أن (التقوى) هى اسم لحالة فى القلب (التقوى ها هنا — البخارى)

ويقرر القرآن الكريم أن التقوى إنما تنتج من العبادة :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

(البقرة — ٢١)

والعبادة من ناحية مظهرها الخارجى هى اسم الخضوع لرب . ومن ناحية حقيقتها الداخلية هى اسم لهذا الإدراك العميق . حين يفوب العبد فى ربه حتى تطرأ عليه حالة يشعر فيها أنه أمام الله .

« تعبد الله كأنك تراه » (البطارى من المشكاة كتاب الإيمان)
 وطبقا لحديث الرسول ﷺ ، فإن اسمى العبادات هي أن يذوب
 العبد في ذكر الله وفي تصوُّره له حتى يشعر أنه قريب منه . ومن هنا
 تطرأ على العبد حالة من الاستحضار وكأنه يرى الله . وحالة القرب
 هذه هي اسمى مقامات العبادة قاطبة . فجميع الأعمال التي يطلق عليها
 اسم مناسك العبادة أو مراسم العبادة هي كلها طرق للوصول إلى
 هذه العبادة ومقاصد ضرورية لها . فربها رب العباد ، فلذا قام شخص
 « وأدعى أنه يعبد الله بدون هذه المظاهر أو يعبد الله خارج حدودها
 فهو كاذب في دعواه . لأنه بدونها لا يمكن — حقيقة — أن تثبت شجرة
 لعبادة داخل الإنسان . فلذا كان الإنسان في الواقع إسما لهذه الروح
 الحية التي لا يمكن أن نشاهدها . فإن هذه الحقيقة قائمة أيضا وهي
 أنه لا يمكن أن تتصور أوجود الإنسان في هذه الدنيا بدون الجسم
 الإنساني . »

ومع أن كلمة العبادة تضم من هذه الناحية الشريعة بأكملها . لأن
 ما يقوم به العبد لإرضاء محبوبه وأداء أوامره وأحكامه ترجع دوافعها
 إلى مثله المعبودة . إلا أن العبادة هي أساسا وأصلا اسم لهذا
 العمل الخاص الذي يتم بين العبد والرب . والعمل الذي يتم بين العبد
 والمعبود هو من مستلزمات العبادة . بينما العمل الذي يتم بين الرب
 والعبد هو بذاته عبادة . فالمعبد حين يقيم الصلاة يكون مشغولا بعبادة
 الله مباشرة . فهو حين يسجد لله لا يوجد هناك وجود ثالث يحول بينه
 وبين الله . وعلى العكس من هذا فحين يقوم العبد بتنفيذ الأحكام
 الإلهية غير المتعلق بالأخلاق والمعاملات فهو يطبق مستلزمات أمور
 العبادة على الآخرين . ومن ناحية التطبيق فالأمر يستلزم أيضا وضع
 الفرق بين النوعيات في الأدهان كما هو في أعمال العبادات وإلا فلا يمكن

أن ينشأ في ذهن الإنسان التصور الصحيح للدين . لأن المستلزمات تكون مطلوبة دائماً لشيء آخر بينما الحقيقة أمر مطلوب مطلقاً .

وعلى سبيل المثال إذا ما قيل إن من مستلزمات المسم أن يقسم أموال الميراث طبقاً لقانون الله . فهذا لا يعنى أن يقوم كل رجل بالضرورة بمسؤولية القيام بهذا . وأن تكون لديه بعض الممتلكات ليتمكن بالتساوى بين أصحاب الحق فيها . وذلك حتى يتمكن من تنفيذ حكم الميراث . والا فلن يكتمل دينه . بل أن الهدف هنا فقط إنما يعنى أنه إذا مال مسلم ممتلكات في تركة ما أو في مال ما حيث لا يفرس عليه إيمانه وإسلامه أن يتصرف فيها طبقاً لأحكام الميراث الإسلامية . لهذه الخريفة التي تتعلق بتقسيم ما يحصل عليه المسلم من ميراث ليست مثل عبادة الله التي تجب على كل شخص على الأخلاق .

ويفهم من هذا الشرح الخاطئ بالعبادة أن ما يتعلق بمصحة الله والخوف منه ليس مجرد « محرك » للحياة العنيفة بل هو أمر مطلوب في حد ذاته وهو الهدف الأملى الذى من أجله خلقنا في هذه الدنيا . لجميع الأعمال والأفعال هي وسيلة للحصول على الإثراء النفسى الذى يعبر عنه بالتعلق بالله والتوصل إلى الله . وبالفاظ الطرى إن « بيننا وبين الله ليس فقط علاقة فرض ذهنى من نوع طاهرى (أى نقوم بعمل ما أكثر من مرة لفرس ما الله في السماء) بل أكثر من هذا أن تقوم بيننا وبينه علاقة مباشرة وسنوك العبودية في شكله الظاهرى هو تطبيق للحكم ولكن من ناحية الحقيقة هو في الأصل يفتد لعبد إلى مقام يستطيع فيه أن يلتقى مع ربه . يشجى ربه ويشعر بالأساس يشعر من خلاله أنه يقف دائماً على باب ربه الذى وسعت رحمته كل شيء . »

وهكذا يحسن المسلم بوجود الله في الحياة الدنيا هذه هي الحقيقة
الغاية للدين .

وهدف الأحكام والآداب كلها هي الوصول بالإنسان إلى هذا
الهدم . وهكذا من أدرك وجود ربه في الدنيا فسوف يجده أيضا في
الآخرة . ومن حرم من أدراكه في الدنيا فلا يجوز له أن يأكل في إن
يذل نعمة لقاء الرب في الآخرة أيضا .

ما هي كيفية الوصول إلى (ثروة) الدين هذه ؟ أن معرفه هذه
الثروة والوصول إليها يتحقق إذا ما بدأ الناس في الوصول إلى « رزق
الله » (طه - ١٣٩) (١) ومن الواضح أن ما تقوم به من عمل في
سبيل تنفيذ أحكام الله داخل في محض اختيارك . فإن شئت فعلته وإن
شئت لم تفعله . ولكن ما يطرأ عليك من الأحوال ومشاعر داخلية أثناء
التطبيق لا يدخل في نطق اختيارك فانت نفسك لا يمكن أن تتشعق هذه
المشاعر ...

إذن من أين تأتي هذه الأحوال والمشاعر . أنها أساساً تأتي من
الله . وهي رزق المؤمن الذي بدونه لا يمكن أن تنفذ شخصيته الإيمانية
حياة باقية . هذا هو « رزق » العلم والعمل الذي وجد داخل ذات مريم
عليها السلام أساسها تبي ذلك الزمان : « أتى لك هذا ؟ » فأجابت :
« هو من عند الله » (آل عمران ٣٧) . أن محاولتك في عملك . وهذه
المشاعر والأحوال هي الثمرة التي تتألبا من الله جزاء حسن العمل .
منه لا يعطى نعمته قرضاً بل يعطيها نقداً : والعبد المؤمن يجد هذه

(١) التفسير قوله تعالى : « ذلك رزقكم وليس » (التراجع) .

التمتع في الوقت الذي يستحقها فيه . فحين يقبل الله منا عملا ما تنورا علينا واردات ملكوتية بطريقة محيرة . ومع أن الجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين الصالحين جاءت في شكل روائع الجنان يجدهم أهل الإيمان في الدنيا . ومع أن الكيفيات التي تنورا على المؤمن تأتي في شكل سون شديد وتخلق إلا أنها أئذ من كل المآلات . ولا يمكن أن نقس عليها أية لذة دنيوية معروفة . وهذه حقيقة ثابتة بالحق^١ الوجداني .

في من هذه المناظر والحوار وانوارات هي صورة لأعظم التمتع الإلهي التي يعبر عنها بالجنة كما علمنا القرآن الكريم أن المؤمنين سيدخلون الجنة في الآخرة . وهي بالنسبة لهم رزق معلوم (الصالحات - ٤١) (١) . وهي بالنسبة لهم ليست شيئا غريبا عنهم بل هي شيء حي معروف لديهم تعرفوا عليه في الدنيا :

« ويدخلهم الجنة عرفوا لهم » (محمد - ٦)

يروى عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال :

« والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزلة في الجنة أهدى منه بمنزلة الذي كان في الدنيا » . (أخرجه البخاري في صحيحه)

وحيث يوفق الإنسان في التمسك على روح قوله تعالى :

« الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة » (المؤمنون - ٥١)

وحيث يوفق الإنسان في الحصول على نصيب من هذه الثلاوة التي سمى قوله تعالى : « قري أعينهم تنفس من الدمع » (المائدة - ٨٦) . وحين يقسم ليله في اشتياق إلى ربه : تلك الليالي التي جاء ذكرها في القرآن بقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (السجدة - ١٦) ، وحين تمر عليه لحظات من الحرقة المؤلمة التي يدرك فيها حقيقته

(١) المقصود قوله تعالى : « لا يلهي الله المؤمنين أولئك هم رزقي يسر » .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » (البقرة - ١٦٥) وحين
نورد عليه أرى احساسات الإيمان ، وحين لا يكون بينه وبين الحقائق
أى ستر ، وحين يتألمى ربه بقلب لا قرار له . وشيء مرتعدة تنطق
بأنفاس ملهمة لم يفكر فيها من قبل ، هذا هو فى الأصل « رزق الله »
الذى يمنحه للمؤمن . فهو يتذوق حلاوة الثمار التى حفظها الله له فى
الدنيا واسمها (المشاعر والأحوال والولادات الإيمانية) ، وحفظها
له فى الآخرة فى شكل تميم الجنة .

وفى ذلك الوقت سينسر أهل الإيمان أن هذا التميم هو الذى
ذاقوا حلاوته فى الحياة الدنيا : « كُلُوا رِزْقًا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَلِيلًا
هَذَا الَّذِى رِزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا » .

(البقرة - ٢٥)

وما يناله أهل الجنة فى الآخرة هو عطاء متشابه ، وهو شئ
معروف ومعلوم للمؤمن .+ غاى جهل هذا الذى يصيب شخصاً يعتمد
أنه سيتذوق فى الآخرة شيئاً ظلاً يجهله فى الحياة الدنيا ، فإذا لم ترد
عليك فى الدنيا مثل هذه اللحظات واللحظات التى تشعر فيها أنك بتفكيرك
أقرب إلى الله من أى شئ آخر ، فكيف تنال هذا القرب فى الآخرة ،
ويلا شك فإن المصلين سينعمون فى الآخرة نتيجة لثواب الصلاة
والجهرها إلا أن هذه النعمة هى جزء مما تعرف عليه المصلون فى الدنيا
وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ : (جعلت قرعة عيني فى الصلاة)
(النساءى)

مستلزمات العبادة :

إن ما يطلبه الله تبارك وتعالى من الإنسان أولاً وأخيراً هو أن
يطمئنح له هذا الإنسان ويطيعه ويسلم له نفسه ، وهذا ما يطلق عليه

العبادة . إلا أن الإنسان لم يخلق في فراغ بل خلق في دنيا مليئة بالأحداث . ولهذا فمن الضروري أن يملأ عن عبوديته من خلال جميع هذه الجوانب التي يتعامل معها في هذه الحياة الدنيا ...

١ - الجانب الأول : هو الجانب الذي يتعلق بذاته . فإذا

ما عاشه بعض مشكلات الحياة في إطار مشاكل الحياة المعقدة كان يوسعه أن يسلك طريقين اثنين : الطريق الأول طريق الله . والطريق الثاني طريق النفس وعبادة البهيم . ولكن المسلم سوف يجبره عاطفة عبودية على أن يترك الطريق الثاني وأن يفتخر لنفسه الطريق الذي أرشده إليه الله . فكما يسجد لله سجوداً خاشعاً عليه أن يسجد له أيضاً في وجوده وعسلته العلى . هذا هو مظهر العبادة الذي يتجلى بالنسبة لذاته هو . والاسم التسمي الذي يطلق على هذا السواك هو « الطاعة » وأماكن هذه الطاعة في البيت . وفي السوق . ومجلس الشورى . وجميع الأماكن . حيث يواجه المؤمن الصورة الشبكية . ومواجهته مسائل الاختيار بين الطريق الربى والطريق غير الربى .

٢ - الجانب الثاني : هو الجانب الذي يتعلق بالعالم الخارجى

أو بالعالم الأخرى يتعلق بنزير المسلم . فعلى وجه هذه البسيطة يوجد أناس يعيشون عليها لا تربطهم بهم أية علاقة حتى الآن وعليه بهم يتجهون ناحية نهاية أخروية خشيعة . وهذا الموقف الصعب يفرس على العبد المؤمن أن يحوّل جذبيهم إلى طريق العبادة الذى اختاره لنفسه . وهذا هو أحد مظاهر العبادة الذى يتلخس لتلخس عامة . والاسم التسمي الذى يطلق على هذا العمل هو : الشهادة أو التبليغ . كما هو مطلوب من أهل الإيمان أنفسهم هو الطاعة (تنفيذ الأحكام) والمسؤولية التي تقع على عاتقهم تجاه غير المسلمين هي : التبليغ .

ونأخذ الآن المظهر الأول من العبادة وهو : الطاعة . وينقسم هذا المظهر إلى قسمين أساسيين : انفرادي واجتماعي . والمقصود بتساعة الانفرادية . طاعة الله في تلك الامور التي تتعلق بحياة أهل الإيمان الذاتية . وتندرج هنا جميع الأحكام التي قدمت فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، وعلى سبيل المثال : قول الصدق ، الوفاء بالوعد ، أداء الأمانة ، العدل ، والإنصاف ، التواضع ، الوزن بالقيسط ، أداء الحق لأصحابه ، معاملة الجميع بالنصح ، وخلاصة القول أن الإنسان لا يمكن أن يتخذ قراراً ذاتياً في كل ما يتعرض له من معاملات واقعية . وتنفيذ الارشادات الالهية فيما يتعلق بهذه الامور ، يمكن عليه طاعة الانفرادية . ولا يجوز لأي مسلم اذا ما عرف حكم الله في امر ما ان يتصرف عن تطبيق هذا الحكم .

« وما كان يؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً »
(الأحزاب - ٣٦)

هذه الطاعة (الفردية) هي حق واجب لله على كل مؤمن . ولا يعني أن يعد الإنسان عبداً لله ما لم يطبق تلك الأحكام . في حياته العملية . حتى فرض الله عليه في احواله واعماله . ومع أن العبادة هي من ناحية مضمون الدخلى اسم العادة الداخلية . فمنه مطلوب من الشخصية الخارجية أن يجعل الإنسان ظاهرة كله في ضاعة الله بصورة كاملة دائمة يجعل سلوكه الخارجى تبعاً كلية للخريطة التي رسمها الله : وواجب كل مؤمن ومؤمنة أن يتعامل مع جميع الامور التي تسبقته في حياته الدنيا بأسلوب تابع تماماً من طاعته لله . وأن يترك اتباع جميع الرغبات والاهواء الأخرى :

« يا أيها الذين آمنوا انحلوا في عمام خافتة ولا تلبسوا حلويا الشيطان إنه لكم عدو مبين »

(البقرة - ٢٠٨)

والأحكام التي اخترنا أن نضع لها عنوان « الطاعة » يمكن أن تنطبق على القسم الثاني منها الأحكام الاجتماعية . وهي تلك الأحكام التي لا ينحصر تطبيقها في مزاج الزمن . ولكنها تنطبق حين يكون المجتمع بأكمله مستعدا لتطبيقها . وهذا هو السبب في أن هذه الأحكام نزلت دائما في الوقت الذي كان المؤمنون يقيمون تنظيمهم السياسي . وهذا النوع من الأحكام هو أنقوانين الاجتماعية يمكن أن تنفذ بقوة .

والمخاطب هنا فيما يتعلق بأحكام الشريعة الاجتماعية هو المجتمع المسلم المستقل وليس أفراد المؤمنين المتفرقين .

ونحن نشاهد في تاريخ بني إسرائيل أنهم حين كانوا تحت السيطرة القبلية في مصر ، لم تقدم لهم الأحكام القانونية للتوراة . ولكن حين خرجوا من مصر ووصلوا إلى صحراء سيناء ثم أصبحوا جماعة حرة مستقلة ، حيثئذ وصلتهم التوراة من عند الله (الخروج ١٥ : ٢٥) ونفس هذه الصورة وقعت عند العرب : فلى العهد المكي حين كان المؤمنون أقلية غير مستقلة نزل عليهم الجانب الأصولي من الشريعة الذي لم يكن تنفيذ يحتاج إلى سلطة اجتماعية فكل مسلم له حرية اتباع هذا الجانب في حياته بمحض قراره الخاص ، هذا بالإضافة إلى نزول بقية الشرائع تدريجيا ، وقد نزلت الإرشادات التفصيلية المتعلقة بالحياة الاجتماعية في المدينة حين أصبحت للمسلمين أرض يعيشون عليها .

إن ترتيب نزول هذه الأحكام يدل على أن ما يدرس على المؤمنين ويشرح لهم من الدين في الأحوال العامة هو ذلك القسم فقط الذي

مرعى غير زمن الاستقلال . بلاشعاعه إلى هذا "بن دهبى بنى" .
الأحكام يكون واجبا ومسروفا حين يمتثلون زمام السمة والخصم .
وحينئذ يكون من الضروري تطبيق الأحكام لواجبه في تلك هذه
الظروف . ونزول الأحكام الشرعية واتساع دائرتها تدريجيا يستند
على أن هذه الأحكام ليست واجبة على العلاقات بين هي واجبه
بما يقتضيه مع الظروف (١) وتحددتها يكون دائما خاضعا للظروف
الواقعية للفرد أو الجماعة التي تخاطبها الشريعة ، والحقيقة أن المخاطب
بالأحكام الحضارية والاجتماعية هم مجموعة المؤمنين المطالبين بتطبيق
هذه الأحكام بصورة عملية .

دم يصدر حكم للمسلمين الذين لا يتمتعون بالحرية الذاتية بأمرهم
بتطبيق الأحكام الدينية على نطاق اجتماعي وعلى مستوى الدولة .
لتسبب الأحكام هو مطالبة عملية . ومثل هذه المطالبة تصدر فقط إلى
لوائك الناس الذين سبق لهم إقرار ذلك ويمكن أن يتم فعلا طبق
لاستقامتهم . فالأصول الواضحة للشريعة هي أنه « لا يكلف الله نفسا
إلا وسعها » (البقرة ٢٨٦) أي لا يكلف أحد بمسئولية عمل إلا إذا
كان ذلك في « وسعه » فإنه لا يكلف أحدا فوق « طاقته » . ولهذا
فلا يمكن أن يكلف الله المؤمنين بالالتزام بأحكام لا يمكن تنفيذها .
ولو وضع شخص ما أحكام الشريعة كلها أمامه وأدى أن المؤمنين
مكتلون بهذه الأحكام في جميع الظروف . أي أن عليهم واجب تطبيق
لحرس الأحكام الشرعية كلها على الأرض فهو كالشخص الذي يستند
على قولين الزكاة جميعها ، ويقول بأن على كل مسلم مسئولية تنفيذ

(١) لا معنى هذا ما يروجه بعض المزمعين بشأن تطبيق الأحكام الشرعية . بل معنى
هذا أن تطبيق الشريعة يجب تطبيقه في إطار المنهج وليس الاستمبال . . . فالمسلمون في العالم
(بلد المولد) عاجزون - عاجلا - عن تطبيق الشريعة على الفرد . . . أنهم لا يمكنون ،
وسيفعلون . . . وهذا بخلاف المزمع من القول الإسلامية التي تدور على أنها مستقلة ،
وأنها إسلامية ولا تطبق الشريعة (المراجع) .

الأحكام الخاصة بجميع اقسام رأس المال فيما يتعلق بأعمال الزكاة .
وعليه فيجب على كل مسلم أن يمتلك جميع ما جاء في القسم الخاص
بالأموال حتى يمكنه أداء جميع الفرائض التي جاءت تحت عنوان
الزكاة في حياته الدنيا .

لتحكيم الدين هي - من ناحية الشئ - متساوية جميعها . نحن
هذه الأحكام الخاصة بنا ليست متناسبة ، فابقران يأمر ، بإتمام
الصلاة ، ويأمر « بأداء الزكاة » وأحكام متساويان معا في التقدير .
وهو في صيغة الأمر . إلا أن الأحكام الخاصة بنا ليست متساوية في
كل منهما ، فتحكم الصلاة هو حكم مطلق واجب التنفيذ على كل مسلم
ومسلمة . بينما حكم الزكاة مشروط بشرط النصاب . فلكل شخص الذي
يملك نصاب الأموال التي تجوز عليها الزكاة . ينطبق عليه حكم الزكاة .
وهو له حكم قطعي واجب التنفيذ كحكم الصلاة تماما ، ولكن الشخص
الذي لا يمتلك نصاب أموال الزكاة فلا يطلب منه أداء الزكاة .
ولا يطالبه هذا الحكم أيضا بأن يحول امتلاك الأموال التي يصر به
إلى حد نصاب الزكاة حتى يتمكن من تنفيذ حكم الزكاة .

إن الفريضة تجب عليه في الوقت الذي يمكنه فيه أن يقوم بأدائها
ويلهم من هذا أن المستلزمات التنفيذية للدين ليست مشروعة شرعية
مطلقة بل هي مشروعة بما يتناسب مع الظروف ذاتها . وبالدرجة التي
تنتشر بها دائرة المؤمن ، تزداد مستلزماته ، فحين يوجد شخص مؤمن
واحد ، يفرض عليه هذا التسيب من الدين الذي يتعلق بذاته فقط .
فيكون التركيز على ذاته حيث يطبق الهدايات الإلهية . وحين يصبح
المسلمون أسرة أو عدة أسر ، تكون هذه الأسرة مغاطية في حدود دائرتها .
وحين يصبح أهل الإيمان جماعة تكون مجتمعا مستقلا حينئذ يفرض
عليها الأحكام الخاصة بالمجتمع ككل ، وهي الأحكام التي فرضها الله

- بعددك الاجتماعية . وعلى جميع أفراد المجتمع الالتزام بها جميعا .
ولأن تدبيرك على نطاق المجتمع لا يمكن أن يتم بدون سلمه . وهذا
لأن مصدر هذا التحكم لأي مجتمع مؤمن حين هذا يعني بالضرورة
معيان أن يوزع أفراد المجتمع بينهم أمرا سياسيا ويضعوا لأمره
ويسدون مصبا هذه الاجتماعية يحققوا من خلالها جميع القوانين
شرعية .

والاهتمام الاسلاميه لها على ساج جميعه سببيه فردا ما وفر
لايمان في القلب . فحين تاتيراته تبدأ في التفاعل داخل النفسيه
الانسانيه . ومن الضروري يمكن أن نفهم أن المظهر الخارجى لهذه
سمات يكون بالفرق الذى يفرح بالآخرين انطارجيه . هذا هو شأن
مبيعه لعلاقته التى تحتمل أهم الإيمان . ومع أن تقسيمها إلى مراحل
مر غير ممكن إلا أنه يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة مراحل اساسيه هى
يمكن بنا أن نسميها :

المرحلة الأولى : مرحله التلقين . وأصلها أن يتلقى كل مسلم
لأخيه المسلم الخير من قل قلبه . وأن يكون مختلف لأخيه خلاص
بما من تلبه (التمسح لكل مسلم) (متفق عليه) وقد جاء في الأنبياء
أيضا (أن يكون ناصحا لأخيه) (الظهور - ٤ : ٩) .

وقد أتى جرير رضى الله عنه النبى ﷺ فقال :

« يدك يا جرير ، فقال : على ما . قل : أن تسلم وجهك
والتمسحة لكل مسلم » .

(كنز العمال ج ١ ص ٨٦)

أي اسلكوا معا في علاقاتكم مع بعضكم بعضا سلوكا يكون مفيدا
لاخوتكم في الدنيا والآخرة . واحذروا كل سلوك يبعث على ايجاد
الفرقة والخلاف بين الأخوة المسلمين .

هذا هو العمل الذي ورد ذكره في سورة العصر (الكنية)
بالألفاظ التالية : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (العصر - ٣) .

وهكذا ذكر الله تعالى أن عاطفة العبودية التي تنشأ داخل المؤمن
هي اتواصي بالحق والتواصي بالصبر . وبهذا أوضح تعالى الجتهين
الهامين للضرورة الإيمانية . وهذا أحد الجوانب العملية، لما يريد الله
من عبده . هو ترغيبهم للتعاهد معاً على الإيمان والإسلام من ناحية . ثم
تعاون المؤمنين معاً بقوتهم المشتركة للقضاء على المرائق التي تعترض
طريق تشكيل المجتمع الإسلامي الذي يرضى عنه الله في هذه الدنيا . وإلى
بعضواً مما على أكتاف على ما يرضاه الله لمواجهة المشكلات التي يواجههم
والشباب عليها من ناحية أخرى !! (وهذه هي المرحلة الأولى) .

والمرحلة الثانية : هي مرحلة التنظيم لكيلا يصبح المسلمون مجزأين
متفرقين بل عليهم — بلحرجة المعكنة — أن ينظروا ما بينهم وأن يتقربوا
مما بينهم الاجتماعية على أصول أشورى . ومن نماذج تطبيق هذه
الأصول ما قام به نبي الله موسى عليه السلام في صحراء سيناء حين قسم
بنى إسرائيل إلى اثنتي عشرة قبيلة . وتصب عليهم اثني عشر نقيباً —
ول بداية العهد المكي نشأ حول النبي ﷺ تنظيم اجتماعي . وكان مركز
هذا التنظيم هو دار ابن الأرقم . واتبع أنصار المدينة هذه الطريقة قبل
الهجرة . وعندبيعة المعطبة الثانية (٦٢٣ م) حين قدم إلى النبي ﷺ
٧٥ شخصاً (٧٣ رجلاً وامرأتين) ، وأعلنوا إسلامهم ، حينئذ أمرهم
رسول الله ﷺ أن ينصبوا عليهم اثني عشر نقيباً (لقد قال رسول
الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما
نهيهم) (البداية والنهاية — ج ٣ من ١٦٠) وهكذا انتخبوا من بينهم

اثنى عشر رجلاً أمراء ، من بينهم ثلاثة من قبيلة الأوس وتسعة من قبيلة الخزرج ، وبعد ذلك قال أهم الرسول ﷺ :

« أنتم كُتُلاء على قومتم » (الزرقاني المجلد الاول ص ٣٨٢) .

وتلخ هذا النوع من الإمارة هو ما تم بالنسبة لجعفر . حين عين أمير على مهاجري الحبشة (سيرة ابن هشام) !! وهكذا فإن المسلمين الذين خرجوا من دار الإسلام وانتشروا في ربوع الأرض قد حاولوا في كل مكان أن يكونوا تنظيمهم الاجتماعي . وما قاموا به من أجل أن يعيشوا حياة إسلامية . ومن أجل الدعوة إلى الإسلام في إطار كونهم جماعة منظمة وحتى يتمكنوا من القيام بأداء فرائضهم الشرعية كان لابد من أن يكونوا تحت زعامة أمير منهم .. وهذه هي المرحلة الاجتماعية .

والمرحلة الأخيرة للمجتمع الإسلامي هي : مرحلة تشكيل النظام السياسي الذي يطلق عليه اصطلاحاً « نصب الإمام » ونصب الإمام أي تنصيب إمام سياسي واجتماعي للمسلمين هو أمر واجب بالاتفاق :

« نصب الإمام عندنا واجب » (شرح المواقف) .

« لابد للإمة من إمام » (شرح المقاصد) .

« المسلمون لابد لهم من إمام » (عقائد النجاشي) .

وهذه القضية على قدر كبير من الأهمية لدرجة أن كتب الفقه والعقائد لا تخلو من ذكرها ، ولا يوجد عليها أي اختلاف إلا عند فرقة من فرق الخوارج المعهدة « النجدات » ، يقول ابن حزم :

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الامامة حاشا للنجدات من الخوارج » (الملل والنحل ص ٧٢) .

وهذا الذي هدف إليه هنا يعني بهذا الأمر فهو أن هذا المسند والجماعة يعتقدون أنه أمر « شعبي » أي أنه علم شعبي واجب يسرع ومرفى ببعض الفرق كالزيدية والمزنية أنه أمر ضروري غائي . ولكن كما سبق أن أوضحنا فإن لفظة تنصيب الإمام السياسي أمر يتعلق بالمجلس المسلم الذي يتكون له وضع يختلف عن إقامة تنظيم سياسي مستقل لأنه يتمتع بمؤسسة اجتماعية مستقلة . ولا توجد هناك نصية تتعلق بتنصيب إمام سياسي بالعبارة المذكورة أعلاه . وباعتبار آخرى ليس هذا حكماً مطلقاً بل معناه أنه لا توجد أية جماعة مسماة لها صفة « الاجتماعية المستقلة » فإذا ما وجدت هذه الجماعة أصبح من الضروري أن نضم مجتمعها على رأس اثنين . وإن دخلنا فرعاً سياسياً . ذي بعثي حياتها المنظمة تحت امرته .

والإمامة السياسية ليست مظهراً على السلطات الاجتماعية لجماعة . « . ونحن نوجد السلطات الاجتماعية يمكن توقع ظهور الإمامة . فبدون وجود مظهر السلطات الاجتماعية (أي «السلطة الاجتماعية») عيب يمكن أن يظهر الإمامة وعلى أي أساس يمكن إعطاء مثل هذا النوع من « المكتب » مدعى ببقية الأحكام الشرعية »

إن ما ذكرناه قبلاً يتعلق بمشروعية الأحكام الخاصة بالإمامية . وهذا نذكر بالأخص إلى هذا الأمر أهم حقيقة للدين . وهي النزع إلى الأحكام . ومن هذه الناحية فمثلاً لا تقع المسؤولية على الأقلية المسلمة في بلاد « مهمة تنفيذ الأحكام الاجتماعية للإسلام بين الاكثرية غير المسلمة » .

فكذلك إذا شعر بعض الناس بالمشاعر الإسلامية داخل مجتمع مسلم مثلاً فإن أول مراحل المسؤولية للمسلم على عاتقهم لا تكون إحتالية بنحكيهم الشريعة فهذا النوع من العمل يعني تصلياً الأفراد عن الطريق الترويجي للإسلام .

والطريقة الصحيحة هي البدء في نشر التعليمات الأساسية والأحكام
الاولية للدين . والعمل على اصلاح المجتمع الاسلامى حتى تثبت بداخل
هذا المجتمع ويدخل افراده بظرة قبول احكام الاسلام المعاملة وقوانينه
الاقتصادية . ويعد هذا سبيل الى الوقت الذى تبدأ فيه مهمة تنفيذ الأحكام
الاسلامية .

وهذا رواية مشهورة لعائشة رضى الله عنها توضح أهمية التدرج
في الاحكام (١) . فإن التدرج - عند الله - على درجة كبيرة من الأهمية
مدرجة انه جل وعلا لم ينزل الأحكام الضرورية للمسلمين دفعة واحدة .
بل نزلت معظم الأحكام سلسلة على أقساط . هذه هي المرافعة التى
أوجدهت مسائله الناسخ والمنسوخ في كتاب الله . فلو نزل كل حكم بصورة
التى نزل بها لولا وبشكله الكامل لما ظهرت مسائله النسخ . ويروى عن
خطبة الله لا يجوز لشخص يجهل مسائل النسخ والمنسوخ أن يعظ
الناس أو يفسر القرآن .

(١) انما نزل أول ما نزل . سورة من جعل عليه نزل الآية وانما . . .
منسوخ من النسخة نزل النسخة والنسخة نزل أول ما نزل . . .
منسوخ من النسخة نزل النسخة . . .

شهادة الحق

شهادة الحق أو الدعوة إلى الإسلام هي مسئوليتنا حيال غير المسلمين . ومعنى هذه الشهادة ايصال رسالته «إني عبد الله بصريته جعلته مضمة حتى لا يكون هناك قرعة في الأهرار لأن يكون هؤلاء . ثم نحن نعرف الحقيقة .

قد خلق الإنسان في الدنيا حتى يظهر^١ ، يقول تعالى في صفة التزيين ، « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (٢) وهذا أمر جليل لأنه يعني أن نهاية هذا الإنسان في الآخرة متوقفة على المسلك الذي يتبعه في حياته . فلما الجنة الدائمة وإما الجحيم الدائم . ونظرا لما عليه هذا الأمر من أهمية كبيرة فقد أتم الله تعالى للإنسان نظامين معينين لاختياره وتحذيره : الأول أن يسمع في غمرة كل إنسان الأوهام بالصحيح والخطأ . قال تعالى :

« .. فآلهما فجورها وفتنهما » (الشمس - ٨) .

والتصور بهذه الحقيقة يغرس في الإنسان من أول يوم ولادته :

« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (الأعراف - ١٧٣) .

وهذا الوضع الفطري وضع التفتيح الثاني . وهو استمرار لسلسلة الرسالة بالتنظيم حتى يصل علم الحقيقة إلى كل إنسان عن طريق العمل الإنساني مباشرة :

« رسلا مبشرين ومنظرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
المرسل » (النساء - ١٦٥) .

وسلسلة النبوة هذه تسمى منذ بدء الحياة ، ولم يكن آدم عليه
السلام أول إنسان فقط بل كان أول نبي أيضا . وقد شاعت الرأفة أنه
إن نهي سلسلة النبوة في القرن السابع الميلادي . وكان محمد ﷺ
(٥٧١ - ٦٣٢ م) آخر الأنبياء المرسلين من عند الله . ولكن فيما يتعلق
بعمليه تبليغ الرسالة فهي مطلوبة الآن أيضا معلما كانت مطلوبه من
قبل . ولهذا اختار الله الأمة المصمديه (هو اجتبتكم .. انصح) والمرسل
اليها آخر الرسل محمد ﷺ الذي قدم للشهادة الكاملة للدين ، وأصبحت
خلاصة مسئوليتنا أن نشهد شهادة حق على أهم الدنيا تابعين في ذلك
للنبي وحتى يوم القيامة :

« ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .
(الحج)

وهذه المهمة ليست مهمه سمييه بل هي هدف وجود الأمة الاسلاميه.
وطبقا لما جاء في القرآن الكريم فإن تحقيق رسالة الرسول ارتكزت على
ابلاغ الرسالة إلى المخاطبين بطريقة تامة وكاملة وإلا ظلت فريضة
الرسالة ناقصة لم تكتمل :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما
لغت رسالتك » (المائدة - ٦٧)

وهذه المسئولية الملقاة على عاتق الرسول هي نفسها المسئولية
الملقاة على عاتق تابعيه : « أنا ومن اتبعني » (يوسف ١٠٨) وكان
من الضروري لتحقيق رسالة النبي أن يقوم ﷺ بإبلاغ رساله اهدايه
إلى الناس . ومن هنا فإن بقاء الأمة المصمديه كلمة مصمديه يرتكز على

مبدأه ببلاغ هذه الرسالة إلى الأجيال التالية بعد رسول الله ﷺ .
والتسليم إلى الأمة المحمدية إنما هو استيعاب قديم على أن نعلم
إلى الناس ما حمته أمينا الرسول . وذلك حتى يوم القيمة والرفع
أن الموت على دين آخر غير الإسلام إنما هو بمثابة لقاء النفس في
الهلكة (كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار) والإنسان
لا يجوز أن يدفع نطق إلى المضي على طريق الحق بل يجب أن نتجنب
بدائنه الضمنية حتى يهول أن ينفذ أبناء جنسه الآخرين من هذا الخطر :

بلغ ابن عبد البر (١) عن معلومة بين حيدرة القشيري أن النبي
ﷺ رآه انهزم وفي النبوة قال : « مالي أمسك بحيزكم من النار »
لا من ربي داعي وأنه سألني . هل بلغت عيسى فقول رب سعد
بعث الأتيلين شأهكم غلبكم » (الاستيعاب)

هذه هي أهم المسؤوليات التي يجب على الأمة المسلمة أن تؤدب
بعد أن تقضى على ما بيننا من ضلالت واختلالات . ينقل أمير من
في مذكرات فيقول :

خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : إن الله يعثني راحة
نفس كامة . فادعوا على راحكم الله ولا تختلفوا كما اختلف الجواريون
على عيسى عليه السلام » .

وكذلك بعث النبي ﷺ . فإن هذه الأمة المحمدية مبعونه على
لدوام لتحقيق هذا الهدف . وفي زمان الطليقة الثاني حين اتبع
ريعي بن عمر إلى بلاد فارس . دار حوار موزع بعضه :

(١) مصنف كتاب الاستيعاب في معرفة الأصناف . والاستيعاب شأهكم غلبكم راحة .
وعلى الأتيلين . وهو من طائفة الأتيلين وفيلاد الملكية الفارسية مولى سنة ١١٢٠ هـ .
وأما أبو بكر بن محمد بن عبد البر بن محمد . الأندلسي .

بعد « قالوا له ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لمخرج من شاء من عباده العباد إلى عبادة الله - ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لنُدعُوهم إليه » (البداية والنهاية)

وهذه المسئولية مسئولية عالمية لا تحددها أي حدود جغرافية . وقد نقل صاحب البداية « خطبة مفصلة لتعمان بن مقرن في بلاء كسرى ، وكان قد أجاب على سؤال لكسرى بقوله :

« وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فنُدعُوهم إلى الإنصاف . منهن ندعُوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام حسن الحسن وقبح القبيح كله » . (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ٤١)

وكانت هذه المسئولية واضحة تماماً أمام الصحابة الكرام ، وفي زمن حدائق أغلوريق رضى الله عنه عرض عمرو بن العاص على المسئولين لديننا بمصر مسئولية الدعوة الإسلامية فقال لهم : « إن الله بعث نبينا إلى الإنسانية برسالة - فأدى النبي رسالته كاملة - وترك لنا منها ما أفضنا من بعده نفعنا عليه ، ونبلغ هذه الرسالة الربانية إلى البشرية . وقد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة » .

(ابن جرير ١ ص ٢٢٧)

إن الهدف الأول لبعثة الرسل هو إبلاغ الناس برسالة الحق في السر والعلن (نوح - ٩) ، فهذا العمل الذي طرضه الله - أي إبلاغ الرسالة إنما طرض حتى يعرف الناس الظلم الذي خلق الله عليه الكائنات . ونهاية هذا الظلم ، وحتى يتعرف الناس على ما في الغيب قبل حلول الوقت حين ينقلب بمسألة الدنيا الحاضرة ويتحول الغيب إلى مشهود وبمستبحر عالم الغيب عالم الشهادة .

٢ - وأما مسئوليتنا

ومسئوليتنا فيما يتعلق بهذا الأمر هي أن نطلع الناس على الحقيقة الأخروية . وتعلمهم أنهم عباد الله . وجدوا في هذه الدنيا ليحاسبوا على أعمالهم .

وستوجب حكمة الله المتلطفة أن يقدم الإسلام دائما لغير المسلمين على أنه « أعظم نظم دنيوى » وهذا الأمر واجب . إلا أن الإنسان إذا ما عرض أمام الناس على أنه أعظم نظم دنيوى فقط فإن صورته في أذهان الناس ستقتصر على كونه وسيلة حل القضايا المالية . وبتعبير آخر سيتمصرون الإسلام سفينة النجاة من المخاطر الاقتصادية والسياسية . بينما الحقيقة أن الأنبياء بعثوا أساسا ليرشدوا الناس إلى طريق النجاة من أعذاب السموى .. وكما يقول القرآن .. فإنه سبحانه : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » . (غافر - ١٥)

وتتمثل الصورة النهائية لهذه التبليغ هذه أن يتقبل المخاطب الدعوة وأن يعيش حياته طبقا لها . إلا أن الصورة النهائية لهذه الداعي هي أن يقوم بإبلاغ كلامه إلى الناس إلى آخر حد ، وأن يوضح الحقيقة للناس حتى لا يكون أمامهم مجال للاعتذار أو التأويل ، وهكذا كان المعيار الخاص باتمام حجة الأنبياء هو وصول كلامهم إلى الناس بطريقة كاملة متكاملة ، وألا يتعرض المخاطبون لأمر متعددة تسببها أو متعبة .

لجميع الأمم التي ورد ذكرها في القرآن . والتي لم نستمع إلى رسالة الأنبياء فاستحققت العذاب لما ارتكبتها من ميعين . كانت هذه الأمم التي بلغ الأنبياء إليها الرسالة عن طريق الوعظ والارشاد . بكل الوسائل الممكنة ، وقد ورد التعبير عن هذا الأمر في القرآن بالفاظ

مختلفة تعنى هذا « للتعريف والإبلاغ » مثلاً : آية الصدع بالامر (١) (الحجر - ٩٤) ، وتبيين الذكر (٢) (النمل - ٤٤) ، والامثال بابوحى (٣) (الانبياء - ١٠٩) وإبلاغ الرسالة (٤) (الاعراف - ٧٩) ونسب الآيات (٥) (الاعراف - ٣٥) وقراءة الآيات (٦) (الاسراء - ١٠١) وتلاوة الكتاب (٧) (العنكبوت - ٥١) والإنذار والتبشير (٨) (سبأ - ٢٨) والقضاء للإيمان (٩) (آل عمران - ١٩٣) وللدعوة إلى الإسلام (١٠) (الممت - ٧) وتبليغ ما أنزل الله (١١) (المائدة ٦٧) والتذكير بأحكام الله (١٢) (ابراهيم - ٥) وغيرها .

ويروى البيهقي عن المغيرة بن شعبه أن أنسب عليه السلام عرس دعوته ذات يوم على أبي جهل ، فقال أبو جهل :

« يا محمد !! هل أنت منتقم من سب آلها . هل تخشى ألا تشهد أنك قد بلغت ، فمن تشهد أن قد بلغت » .

وأشهد النبي عليه السلام لصلحائه عدة مرات على أنه قد بلغ الرسالة الإلهية بطريقة كاملة لأبي جهل ويروى الإمام أحمد عن ثعلبة بن عباد البصري أنه وقف يخاطب فقال بعد أن حمد الله :

يقصد المؤلف بقوله تعالى :

- ١ - « صدع بها البحر » .
- ٢ - « وأزلنا اليك ليلين للذكر » .
- ٣ - « قل إنما بوحى إلى عبدك الله واحد » .
- ٤ - « لقد أنزلناكم رسالة ربى » .
- ٥ - « يا بني آدم إنا أنزلناكم رسالة حكم بشعور عليكم آياتى » .
- ٦ - « ولقد أنزلنا برسى سبع آياته بيننا » .
- ٧ - « أولم يكلمك إنا أنزلنا عليك الكتاب على علم » .
- ٨ - « وما أرسلناك إلا كلمة قللى بشراً ولقياً » .
- ٩ - « ربنا أنزلنا سمعنا بكها بكها بكها لآياتك أن أنزلنا برسى ميراثنا » .
- ١٠ - « ومن أنزلنا برسى على الله أنزلنا برسى على الإسلام » .
- ١١ - « يا أيها الرسول بلغ ما أنزلنا إليك » .
- ١٢ - « ولتقرن بكم الله في الفرج » .

« يا أيها الناس انشدكم الله ان كنتم تعلمون اني قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي عز وجل لما أخبرتموني ذلك قل : لعظام رجس فقلوا : نشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ولمصحت لأمك وقفست الذي عليك » .

فالداعية يبدأ عمله بهذه التعاطفه وينبغي أن يسمع الناس كلامه إلى آخر مدى مع مراعاة جميع مستلزمات الحكمة والطبر .

وما تقع من أحداث بعد ذلك خلال هذه المهمة لا تتعلق أصلاً بعملية التبليغ : بل تتعلق بأولئك الناس الذين تقع عليهم الشهادة والتبليغ ويظل هكذا حتى ينفرد الحياة . ومن الممكن أن تسلم إحدى شخص خاص لعملية التبليغ ذاتها . فمن الممكن أن يقوم الداعي بالتداءم والتبليغ ويظل هكذا حتى ينفرد الحياة ، ومن الممكن أن تسلم إحدى أهم شخصيات العصر فينتشر حين الله بسبب إسلامهم ومن الممكن أن ينقلزع مع المخاطبين . وقد يتحد هؤلاء مع السلطة ويتأهرون — مع — القضاء على حركة الدعوة : فانه تبارك وتعالى يبدل ويعير في الظروف بحيث تنتشر القفلة الأولى من الدعوة أو من يلوئهم : ويمكنون في الأرض ، ثم هناك صور مختلفة للتمكين في الأرض ، فمن الممكن أن يكون الأمر مجرد غلبة سياسية . ومن الممكن أن تنال حركة الدعوة تعاون المخاطبين على نطاق واسع حتى يوجد هؤلاء وأولئك مجتمعاً منظماً على أساس الإسلام ... جميع هذه الأمور يمكن حدوثها ولكل منها أمثلة في سير الأنبياء أثناء كفاحهم وجهادهم من أجل دعوة الحق . إلا أنها كلها لم تتضمن شرط الانتصار للعامل والتمكين في الأرض . فإداء الشهادة أو القيام بالدعوة هو ببساطة دعوة الناس إلى رسالة

« فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لعبد من عبد رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن : إنك ستأتي قوما أهل كتب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن أطاعوا لك بذلك فادعهم إلى أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة فإن أطاعوا لك بذلك فادعهم إلى أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أعيانهم فتتوزع على فرائضهم ، فإن أطاعوا بذلك فأياك وكرائم أموالهم » (البخاري) .

إن هذا هو السبب في الحكمة الإلهية التي قضت بأن يقدم التسليم الأساسية للأنبياء في مرحلة الدعوة الأولى ، وأن يستمر الأنبياء في تبليغها لفترة طويلة إلى الناس . وبعدها وطبقا لظهور حالات معينة نزلت الإرشادات التكميلية بما يتوافق مع هذه الحالات والظروف . ولم يحدث أبداً أن جاء نبي إلى أمة ما فقام بوضع أسس نظام اجتماعي وحضاري كامل في المرحلة الأولى ، وقدمه للناس وطالبهم بأن يقيموا دولة إسلامية وأن ينفذوا ويطبقوا فيها جميع القوانين التي صدرت فيما يتعلق بجميع فروع الحياة .

إن الأحكام المذكورة في الحديث السابق كانت قد نزلت كلها في ذلك الوقت إلا أن الرسول ﷺ أخبر لداعية ألا يقدمها للناس دفعة واحدة بل عليه أن يقدمها للمدعوين تدريجياً طبقاً لظروفهم ، ويفهم من هذا أن الأحكام كما نزلت أولاً بطريقة تدريجية فإن التدرج فيها مطلوب بعد نزولها أيضاً ؛ وترتيب ضرورتها هو دائماً قائم على ترتيب نزولها ، وليس الأمر كما ينهم بعضهم — أنها نزلت تدريجياً في البداية (أولاً) ثم أنها بعد نزولها قد نسخ العمل بها تدريجياً — عند اقتضاء ذلك — وأصبحت مطاوعة في كل حال بصورة كلية لا بصورة تدريجية . حتى ولو كانت الظروف النفسية والاجتماعية توجب التدرج والعمل المتناسي !!

الأركان الأربعة

بعد الإيمان . توجد أربعة أشياء في التنظيم الإسلامى تمثل « أركانه » : الصوم . الصلاة . الزكاة . والحج . وهذه الأشياء الأربعة من ناحية حقيقتها المعنوية هي الأجزاء الأربعة التى تتجمع معا فتكون بوجودها الكلى المجموعة التى يطلق عليها الإسلام . فالصوم اسم للسو عن العالم المادى حتى يتمكن الإنسان من ربط نفسه مع الله . وروح الصلاة هي ذكر الله ، وحقيقة الزكاة الإيثار . وهذا الجزء من الإسلام كئله الخلاصة التى يعبر عنها باسم الأخلاق والمعاملات أو حقوق العباد . وأصل الحج هو للتفصية في سبيل الدعوة الإلهية (Mission) . وهو عهد على تجديد حياة الدعوة التى قام بها أعظم دعاة الحق إبراهيم عليه السلام . وهذه الأركان الأربعة هي من الناحية الاعتبارية علامات للأجزاء الأربعة الأساسية ، ومن ناحية أخرى فهي تجهز الإنسان وتعدده للإسلام حتى يستطيع أن يتبع الإسلام في حياته بطريقة كاملة شاملة .

ومع أن كل عبادة من عبادات الإسلام تعمل روحا خاصة إلا أن تركيب العبادات قد وضع بشكل يجعلها وسيلة الحصول على المقاصد الدورية الأخرى مع استكمال الهدف الأسمى — وفي هذا الأمر فإن مثل الإسلام كمثل جسم الإنسان فكل عضو وظيفة انفرادية منفصلة إلا أنه — أى العضو — مع هذا يرتبط مع الجسم بطريقة لا يمكن معها فصله عن بقية الأعضاء .

١ — وهناك جانب آخر يتمثل في أنه مع الفرق في الصلاحيات فإن لكل منها نصيباً محدداً في الفائدة والعمل . فمثلا صلاحية الصوم

والصلاة إن لم تصل بكل منهما إلى مقام « الاقتراب » (١) (العق) فيجب العمل على الأكل إلى مقام التقوى ، هذا بينما الصلاة جعلت تنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت — ٤٥) ، والصوم مبقاً لا ج. في الحديث يعمل على تربية الفرد وضعه من قول الزور والفسق هذا لأن الصوم يبدأ في تكوين جبهة قوية في مواجهة الحملات الشيطانية .

٢ — وقد وضع نظام كل عبادة لتؤدي هدفها الانفرادي الخاص. مع اتصالها وارتباطها ببقية العبادات ارتباطاً شديداً قوياً ، وعلى سبيل المثال فهدف الحج الأسلي أعداد الإنسان لحياة الدعوة ومع هذا فقد وضع بشكل يمكن الإنسان من أن ينال نصيباً من المحبة الإلهية ، وتذكر الآخرة أثناء زيارته للأماكن المقدسة . وأداء مناسك الحج ، فيعد أدله فريضة الحج يعرّد الإنسان مظهرًا مطهرًا ، ويكون مهيبًا بطريقة أفضل لبدء حياة دينية على مستوى أطيب .

٣ — وقد وضعت كل عبادة — أساساً — لتربط العبد بربه بطريقة ما ، ومع هذا وضعت وشكلت بحيث تشكل المستلزمات الأخرى للحياة ، أو على الأقل تكون محركاً طيباً ودافعاً قوياً ، وعلى سبيل المثال فمن طريق صلاة الجماعة أو الاجتماع العالمي للحج يقوى اتحاد المسلمين ويزدهر ، كما أن في الصوم فوائد لصحة الجسم ، وعن طريق الزكاة ينسج النظام الاقتصادي وهكذا .

الصوم :

والصوم أو الصيام هو من ناحية حقيقته يتلخص فيما عبر عنه القرآن الكريم بمجازة « تبتل إلى الله » (٢) (الزمل — ٨) أي الزهد

(١) يصعد الأول قوله تعالى : « والسجد والترب » .

(٢) يصعد الأول قوله تعالى : « واتقوا الله واسم ربك وعلم الله به » .

والاعتداف - والصوم فرض لىاسى . وهو كىقنىة اككز الاعمال شرع فى العهد المذنى فى السنة الكالنىة للهجرة ، وكان للصوم موجدوا قىلا بشكك من الكشكال ، كالت عائكة رضى الله عنها : إن قرىشا كالت نكصوم يوم عائوراء فى الكاعلىة . وكان رسول الله ﷺ يصوم هذا اليوم أىضا « صىىح مسلم » وكفى أنه قىل بعكته عىله السلام كان يصومه انماء قىبمه فى غار حراء ، فالكصوم عبادة مكررة قىلا وقد دخلت الكىاة الاسلامىة أىضا .

ومن المروف أنه عندما كالت كدرة الله أن ىحمل موسى عىله السلام كتاب الله ، أمره كىلت كدرته أن ىذهب إلى الطور وأن ىعكزل الناس وىبقى هناك ؛ لىقضى كىاته فى الصوم والكعبادة ، وهناك كفى موسى عىله السلام أرىعمن يوما متواصله على هذه الكال ، وبعك ذلك كاء الوقت الذى كالم الله فىه موسى ... كك القرآن .

« ولما كاء موسى لىقائنا وكلمه ربه » (الأعراف - ١٤٣) .

« والمسىح عىله السلام كك صام أرىعمن يوما كىل ىده نبوته » .

(دائرة المعارف الكىهودىة)

ونزل عىله الإلهام بعك ذلك فى شكل المواعظ الكىبابة التى وردت فى الإنكىل ؛ وهكذا وقبل بعكة نبى آخر للزمان ﷺ ، كان ىذهب إلى غار حراء بالقرب من مكة ؛ كىث ىقوم هناك ىعكزل الناس ، وىقضى وقته فى الكعبادة والفكر والفكر ، وهكذا وىبعك كىاة طويلة من « الكعكث » كاء الوقت الذى نزل عىله فىه كىبرىل وىبلغه كلام الله .

وىستكدم لفظ « الصوم » فى الشرىعة من صلم يصوم ومعناه الامتناع من الكركة والمشى والككلام والطعام والشرب ، والكفىل الصائم ىطلق على الكفىل التى أوقفت بعك كىب مصدر الماء عنها ، ولهذا

يطلق على شهر رمضان « شهر الصبر » . وقد أخبر حنث بن مالك رسول الله ﷺ بجبر صومه فقال : « عرفت عن الدنيا والحملات نهري » والصوم من ناحية ملامحه الظاهرة هو اسم للامتناع عن الطعام وشرب من الصباح حتى المساء . إلا أنه من ناحية حقيقته انجوهية يعنى انقطاع الإنسان بنفسه عن ثلاث الدنيا . وأن يقتصد في كل ما يفعله في حياته من الناحية المادية . وأن يقلل من كلامه ومن لقاءاته ومن نومه ومن كل المسكومات البشرية . أي يقلل معاملاته في كل شيء حتى أنه في الأيام الأخيرة من شهر رمضان يعتكف ويقطع علاقته بكل هذه الأشياء . والاعتكاف يعنى الانقطاع الإنسان عن الاستعمال بالخلق حتى تتيسر له فرص الاشتغال بالحق . وهذا امر مطلوب من المسلم طوال حياته . وقد تم التعبير عنه في الحديث بكلمة « الزهد » (أي الزهد في الحياة) ، وفرض هذا الأمر في شكل الصوم في شهر رمضان . والايام الأخيرة من هذا الشهر تمثل شكلاً كلياً للانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وهو امر مطلوب لدرجة كبيرة . مهدت له ايام الشهر الأولى بمزينة حزينة .

فما هي الفائدة المرجوة من هذا الصوم ؟! والاجابة تتلخص في أن الجسد المادي للإنسان جانب ضعيف وعليه فيجب زياده الجانب الروحي . حتى يتمكن من الاتصال بالعالم القلبي . فهدف الصوم ايصال الغذاء المعنوي للروح في مواجهة الغذاء المادي للجسد . فالإنسان ، في آن واحد ، مجموعة للحالتين معاً : المادية والروحية وهي ما يعبر عنها علماء النفس في الوقت الحاضر بكلمة «الذهن (العقل) Mind» . فالجزء المادي في الوجود الانساني ضرورة حتمية فيكونه لا يمكن للإنسان أن يؤدي واجباته في الحياة الدنيا . إلا أن الروح لازمة مع الجسد . وهو ما يطلق عليه بالمصطلح النفسي الجديد «الذهن

(المثل) - ولن يبقى هذا الجانب على مكانته المجردة بأكثر ما يمكن ، وأن يطور بقدر الامكان وجوده اللامادي حتى يتمكن من الوصول إلى شغافية الحقائق غير المادية .

نحن نخرج الإنسان نفسه من الحياة المادية ويربط نفسه بالعنيم الروحاني يشعر بطريقه محيرة أن باباً جديداً من أبواب الحقيقة قد انفتح أمامه فبيداً في رؤية جميع الحقائق التي لا يمكنه أن يراها نتيجة لاختلافها داخل الخلاف المادي ، ويصل إلى مرحلة سامية هي نفسها المراح الأخر للإنسان :

« ما زهد عبد في الدنيا إلا لتبت الله الحكمة في خلقه ، ولتطلق بها لسانه ويصره عيب الدنيا وداءها ودواءها وأدخله سالماً إلى دار السلام » (المشكاة) .

وهناك دليل لمنهج السلوك ، حين يمر الإنسان من هذا الخلاف المادي عبوراً يتجاوز فيه مرحلة بعد مرحلة ، فينتجلى له عالم الحقائق واضحا شفافاً تلمها :

« تعبد الله كأنك تراه » (البهاري) .

والنبوة هي آخر درجات هذا الرقي ، والإنسان العادي يصل إلى مقام عبودية الله كأنه يراه بعد أن تنمو روحه ، والفرق بالضرورة بين الاثنين هو أن الرسول — لأنه مختار ومعطى من الله - فإن جميع حجب العالم القدسي لتكشف أمامه ، وتصبح تعينياته انقدسية ظاهرة تماماً بشكلها الأساسي ، حتى تصبح جزءاً من شعور النبي نفسه ، ويصبح النبي في موقع يقول فيه : « أنا أعرف الله أعرف » بينما الإنسان العادي لا يمكن أن يصل إلى هذا المقام أبداً نتيجة لعدم اصطفاة من الله سبحانه صاحب الحق في هذا الاصطفاء ، ولا يكون

الاتصال بينه وبين العالم المادي اتصالاً قطعياً أو شعورياً كما هو الحال بالنسبة للنبي .

وهذه هي حكمة الصوم التي وردت عنها في القرآن هذه الآية تحريمه لمن احتكم الصوم :

« وإذا سألك عبادي عن فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . (البقرة — ١٨٦)

والنبي — نتيجة لحكم الأهل — يرتبط مباشرة بالله عن طريق الملك (جبريل) . والقرآن هو بقية النفس أنزله الله بواسطة جبريل فيحمل التوجيهات الأخرى من السماء . . . والإنبياء حين يسومون يمتلئون بروحهم أو ما يعرف بالمصطلح الحديث ذهنهم من ثلاث الماديات فينزل عليهم وحى الله (بواسطة جبريل) فيبلغهم مباشرة كلام الله . والناس الآخرون يجدون الله عن طريق القرآن . وحياة الصوم بالنسبة لهم حياة ضرورية حتى يدركوا القرآن ومع أن القرآن موجود لديهم الآن (ما بين التفتين) في شكل وحى متلو إلا أنه « ينزل » على قلب معين في الوقت الذي يعيش فيه صاحب هذا القلب حياة الصوم واليقين تسمح مؤهلاً من الناحية الروحية لأن يكون مهبطاً للقرآن .

أن فرض الصوم في شهر نزول القرآن (البقرة — ١٨٥) (١) إشارة إلى هذا الأمر . وهو أن الصوم جعل ليؤهل الإنسان ليكون هاملاً للقرآن .

وكما كان النبي ﷺ يصوم أثناء خلوته بفار حراء ليصبح هاملاً للقرآن : فبالمثل يجب على المسلمين المؤمنين أن يصبحوا أهلاً للقرآن وإلا صاروا كالخمار يحمل استغراقاً (٢) (الجمعة — ٥) لأن القرآن

(١) عند الألف ليلة تمالي ١ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن على محمد .

(٢) عند الألف ليلة تمالي ٢ . على الذين دخلوا البوابة ثم لم يعصوها لعل

لعلهم يحمل استغراقاً .

نفس يهبط على قلوبهم — لأن القرآن صدى قانون الكائنات . وكتساب
القطرة . فإذا ما غاص فيه أحد إلى أعماقه وراح يقرأ القرآن بوعيه
ويقلبه بدأ صوت القرآن يصل إليه متسللاً في داخل كل ذرة من ذرات
كيانه حتى يأتى عليه ولست يسمح القرآن وغمرته الانسانية معاً نسيج
والحد أ :

« بل هو آيات بينات في صحور الذين أوتوا العلم » .

(المئيكوت - ١٩)

وقد نزل حكم الصوم في شهر نزول القرآن . وذلك تعالى وهو
يصدر أمره بالصوم :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . (البقرة)

إن أولى حاجات الإنسان الضرورية هي الطعام والشراب ومن
هذا فإن منع الطعام والشراب يكون من الناحية النفسية سبباً في وجود
« عسر » أما من الناحية الجوهرية فهذا الحكم يكون سبباً في وجود
« عسر » للإنسان الذي سيطرت عليه المادة أو الجانب المادي لله
تبارك وتعالى يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »
وبطريقة غير مباشرة يتضح — بالنظر إلى الحاجة المادية للإنسان —
أن الصوم هو على كل حال يكون باعثاً للعسر كلما أذن بفعل له
« يسر » ١٩

« فاليسر » في اللغة العربية معناه السهولة . والهدف منه أن
يطلب من المؤمن عمل ما يسهل عليه تنفيذه وعلى مسبيل المثال
فالاستعداد للحرب يقال له : تيسر للقتال . والآية القرآنية السابقة
تعني أن الصوم إنما هو صعب عليكم في الظاهر : إلا أن الله لا يستعبد

إذا ما أصابتكم مشقة . فالأصل هو أن تتحقق لشح الحاجيات المادية طبقا لخدمه خلقكم . إلا أن الوصول بكلام الله إلى مستوى روحى حقيقى يستلزم أن تتركوا هذه المادية إلى حد ممتد ولايام مقرر . وأن تصلوا على الترقى والسير بوجودكم الروحانى لتصبحوا جديرين بالانطلاق من جميع الحجب المادية ، لتصبحوا بالتالى جديرين بتلقى كلام الله .

هذه هى الملة الموجودة بين القرآن والصوم ولقى - طبقا لها - فرضت على المسلمين حياة الصوم في شهر نزول القرآن .

وفي شهر الصوم لا تنقضى « حرارة الانفجار » على أهداف الصوم بل إن هذا الأمر - أى معاناة الإنسان بالجوع والعطش لا علاقته به مطلقا بأهداف الصوم الحقيقية ، إذ أن معاناة الإنسان بالجوع والعطش وبقائه « بختم » القرآن كل يوم وغيرها من أعمال العبادات، إنما يمل بهذه العبادة الإسلامية الخالصة إلى مقام الرهبانية نصرانيه. وهكذا فإن ما يقوم به المسلم في شهر الصوم والذي قيل له خطأ « الذكر بالجهر للمساكين » إنما هو أمر يقتاتن مع انتظية الروحانية الهدف الأسمى للصوم . فالهدف الأسمى للصوم هو أن يفرخ الإنسان نفسه من الضمائم بالأضافة إلى جميع الأمور الضرورية الأخرى : الكلام ، اللقاءات ، الذهاب والمشي ، الجدال والمباح . فعليه أن يقطع صلته بمثل هذه الأشياء ، وبجميع أنواع المشاغل الدنيوية فهو يقضى حياة هادئة لفترة من الوقت يفرغ فيها لعبادة لفظ ، ولذا ذكر الله ولقراءة القرآن بتدبر وتذكر وترك الطعام هو في الحقيقة علامة ، فترك الحمرات أمر واجب على الإنسان وهو كالصوم . إلا أنه يعيش فيه طول حياته حتى يوم القيامة ، وهكذا وفي أيام خاصة يقطع الإنسان

علاقته حتى بالمجاهات . فيصوم ويقطع كل صلة له بكل شيء إلى حد
الامكان ويحاول أن يكون قريباً من الله .

والمصوم وأن حين أمراً مطلوباً لمره واحدة في السنة يشمله التحسين
بالمعنى . إلا أن الروح الاممية التي تتولد من خلال الصوم . هي أمر
مطلوب دائماً من المؤمن . وهو الانقطاع إلى الله بعيداً من التلهيه
الجسدية فقط بل من التلهيه النفسية . نرفع درجات الايمان في أن
يكون الانسان متجهاً إلى ربه بقلبه وروحه دائماً مهما كان مشغولاً
بأي عمل بشكل ظاهري . إذ يضع نفسه بصورة دائمة داخل نوع من
أنواع الاعتكاف الروحي . وقد كان عدم فهم الناس لهذه الحقيقة
سبباً في الانعزال عن العالم والبقاء داخل صوامع أو الذهاب إلى
أماكن بعيدة داخل الغابات أو غوى الجبل . وفهمهم هذا على أنه هو
كمال الايمان . بينما كمال الايمان هو أن يقوم الانسان بأداء واجبه
وسط مشاغل الحياة ومشاكل الدنيا إلا أن ذهنه يكون منشغلاً
(مستنك بذكر الله) .

لعم ابن مسعود رضي الله عنه قال : أنتم أكثر ميلاً وأكثر صلاة
وأكثر لجهتداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيراً منكم .
قلوا لم يا أبا عبد الله ؟ قال : هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في
الآخرة . (حلية الأولياء - ج ١ ص ١٣٦)

المصلاة :

حقيقة الصلاة الجوهرية هي الذكر (١) (طه - ١٤) والذكر
والذكر يقال ذكرته فتذكر ، فالحق يريد من عباده أن يتذكروه ويتذكروا
صلاته ، وحكمته ، وخلقه وملكه مرة بعد مرة : ولكن يخلق الله هذه
الحالة عند عباده ليرقى عليهم الصلاة .

١ - عند قوله تعالى : - والله اعلم بالصواب الذي افترضكم - في التراجع .

ويقول القرآن الكريم أن جميع مخلوقات الكون تسبح للذخر
 سبحانه « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » (١) . وعند سلم
 الملائكة لأدم وسدر حكم للملائكة أن يسجدوا له فقالوا أنا نسبح
 بحمك ونقدس لك دائما : « وإن قال ربك للملائكة ائسي جعل في الأرض
 خليفة قالوا اسجدل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح
 بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (٢) .

يقوم من هذا أن استحقاق الخلافة يستوجب من وجهه نظر
 الملائكة أن يكون لتطيقه متشكلا على الدوام بسميح له ، وطبقا
 لرواية البخاري فإن حجم الصلاة لدى سدر في المراح كان تسعلا
 لخمسين صلاة ، ومن الواضح أن أداء خمسين صلاة في مدة أربع
 وعشرين ساعة يستوجب قضاء اليوم كله تقريبا في الصلاة ، ثم خلقت
 السموات لتعمل إلى خمس ساعات فقط ، وكان المطلوب هو « صلاة
 خمسين وقتا » إلا أنها خلقت لتكون لخمسة أوقات فقط .

والصلاة هي اعتراف من جانب العبد بربوبية الرب . وهناك
 جوانب عديدة لا تخص لهذه الربوبية ، وتوضح سماتها على الإنسان
 بالشكل لا تسمى ولا تمتد . حتى أن الإنسان إذا استمر دائم في حالة
 الذكر فلا يمكنه أن يؤدي لله حقه (ما عبدك حق عبدة) فما بالك
 لو انتقل بالذكر انتشالا جزئيا وليس كلياً ، فالحقيقة أن الشيء
 المطلوب أساساً هو أن ينظر الإنسان مصليا أمام الله في جميع الأوقات ،
 إلا أن الله تبارك وتعالى قد أصدر حكمه لعباده برحمته الخاصة مراعيًا
 المصالح المختلفة لهم فالمر عباده بالصلاة لخمس ، على أن ينشغلوا
 بغية لوقاتهم بصلاة غير محددة ، فالصلاة عبادة فرغت في أوقات

(١) الأعراف - ٢٠ .

(٢) البقرة - ٣٠ .

معروفة ومحددة « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقونا » (١) .
ومع هو يدل أن هدف الصلاة هو الذكر « وأقم الصلاة لذكري » (٢)
حتى قيل أن الذكر هو أعلى مراتب الصلاة « ولذكر الله أكبر » (٣) ،
عندما ما قرأنا تلك الآيات على ضوء هذه الحقيقة التي مصدر فيها أمر
بذكر الله في جميع الأحوال المختلفة للحياة اتضح لنا هذا الأمر وهو
أن الصلاة ببينيتها الخاصة فرض يتم كل خمسة أوقات إلا أنها من ناحية
معناها للحقيقة مطلوبة كل وقت حتى حين يكون الإنسان مشغولا بأعماله
الدينية الخاصة :

« رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٤) .

والصلاة بمفهومها الواسع هذا يشير إلى ما جاء في القرآن من
بيان وتعريف كان أهل الجنة إذ هم مشغولون دائما بالصلاة :

« إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » (٥) .

فالمصلاة الدائمة أو الذكر الحقيقي هو ما يرد على لسان الإنسان .
وليس تكرار الألفاظ الموضوعية . فعين يدرك الإنسان أسمى وأعلى
الحقائق فإن وجوده الكلي يفرق في حالة (كيفية) ربانية خاصة ،
وما يرد على لسانه من كلمات — في ذلك الوقت — يناجي بها ربه —
يقول لها « ذكر » وفي الحديث : يشر في ذلك الوقت بأنه يرتفع في
الجنة : (من أحب أن يرتفع في رياض الجنة لميكتر من ذكر الله)
(الفرجه الطبراني عن معاذ بن جبل) .

١ - المائدة - ١٠٢ .

٢ - النجم - ٦١ .

٣ - الحشر - ١٨ .

٤ - النور - ٢٧ .

٥ - المائدة - ٢٤ .

وقد قسم القرآن الصلاة قسمين . الأولى صلاة الخشوع (*) (المؤمنون - ٢) والثانية صلاة السجود (المؤمنون - ٥٥) . فتلوح الأول من الصلاة بشر أصحابها بالجنة . بينما الصلاة الثانية لا تدعو لها ولا تفيد المصلين أنفسهم أن لهم تكن غارة بهم . جاء في الحديث أن الرسول ﷺ دخل المسجد النبوي فجاء رجل فعلى ثم تقدم إلى الرسول فقال له الرسول : أرجع فصل فإنك لم تصل . *

وجاء في رواية :

« القرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (رواه مسلم عن أبي هريرة) . *

والفرق بين الصلاتين ليس فرقا من الناحية الشكلية أو بصرية في أداء مراسمها الخارجية بل من الناحية الكيفية أو الجوهرية . أدى بها الشخص الصلاة فصلاة السجود هي الصلاة التي يؤديها الشخص بلا شعور ، فالإنسان يؤدي أركان الصلاة بشكك ما ، دون أن ينال أي قسم من كفايات الصلاة ، يقول أنس رضي الله عنه : إنه سمع النبي ﷺ يقول : هذه صلاة المنافق يجلس يشاهد الشمس ، حين تغرب الشمس وتصل إلى مغرب قرني الشيطان يفنف ويمسئ أربع ركعات كثر الدجاجة تظلو من ذكر الله (١) . *

وصلاة الخشوع هي صلاة مليئة بالهبة ومليئة بالكيفيات . يقول عتبة بن عامر إن النبي ﷺ قال : من تواضعا بطريقة طيبة ثم وقف فادى ركعتين فيهما اتجه قلبه ووجهه كلاهما إلى الصلاة وجهت له الجنة « (٢) . *

* يقول المؤلف تواتر خبر : « قد صح الحديث » . انظر في مسائل الخشوع . *

* يقول المؤلف تواتر خبر : « قول الشيطان » . انظر في مسائل الخشوع . *

« رواه الترمذي » . *

(٢) رواه مسلم . *

وخلدا يروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن الرسول ص :
« من قوفاً وضوئى ثم يصلى ركعتين لا يحدث لربما يسىء غيره
ما تادم من ذنبه » (متفق عليه) .

وهذه ينسب الإنسان بعمل هو مغرم به وله جاذبية خاصة عنده ،
فإنه يشجذب إليه بطريقة ينسب فيها كل ما حوله ، وتقل من حوله ، وهذا
هو الأمر المطلوب في الصلاة ، فرفع اليد في بداية الصلاة علامة على
أن الحصى الآن ينزث كل ما حوله ، ويدخل في دنيا أخرى ، وهو يفرق
ويشوب في تسبيح ربه وفي مناجاته له وفي دعائه له حتى تلتقي مراحته
لقداء العبودية بالربوبية تماماً . وبعد أدائه للصلاة يلتفت يمينا ويلتفت
يسارا ليقول السلام عليكم ورحمة الله : وهذا يعنى أنه يخرج نفسه
من دنيا ليمود إلى الحالة التي كان يعيش فيها قبلاً ، وهو يسلم
على الحاضرين .

تعد قسم الفقه الصلاة إلى النامية ، نفسها إلى فرض وراجب
ومندوب ومستحب وسنة ونفل ومؤكدة وغير مؤكدة ، إلا أنه في دنيا
الحقيقة لا يوجد للصلاة مثل هذا التقسيم . فإذا قلتم شخص بقبلي
واحصاء أقسام الصلاة طبقاً للتصنيف الفقهي الخاطئ فإنما هو
يؤدي بذلك صلاة « كمبيوترية » لا « صلاة إنسانية » ، فالكبيوتر يمكن
أن ينقل تماماً الصلاة المقلدة ، إلا أن صلاة الإنسان هي اسم لعواطفه
ومشاعره وأحواله لا يمكن أبداً أن تصنف داخل خانة الحشائية أو
أطارات تنشيطية ، ولا يمكن أن يعبر عنها باللفاظ للقلوب .

إن مراعاة الأسسكال والهيئات الظاهرة للصلاة جاء التعبير عنه في
القرآن بالمحافظة على الصلاة (المارج - ٣٤) : فالشرط الأول للصلاة
أن يدخل الإنسان إلى دنيا الصلاة في تلك هذه الأشياء : وما يطلب
من الإنسان يمكن أن ينقسم إلى درجتين :

الأولى : السجود في الصلاة . والسجود علامة على سجد
الأسن أمام ربه في الحياة العملية . ولهذا قال القرآن : « إن الصلاة
تنتهي عن الفحشاء والمنكر » (١) .

وفي القرآن قيل لأحد الأنبياء حين دعا قومه لعبادة الله . فسبوه :
هل نقضى الصلاة لأن يتركوا حياتهم العملية والمرهم الاقتصادية
ويأتزموا بأحكام الله :

« يا شعيب أصلحك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا لو أن نفعل
في أموالنا ما نشاء » ؟ (هود - ٨٧) .

والسجود والركوع في الصلاة هو كنولك لله . يا سيدي لناشري
بما تشاء : فسوف أتفقد أوامرك . ولهذا جاء في النصوص ما يفيد أن
من يتبع الشهوات مع الصلاة لصلاته خالية من روح الصلاة ذاتها .
والدرجة الثانية وهي أعلى الدرجات هي أن يصبح ذكر الله جزءاً
من نفسه ونفسياته فيخلق ذكر الله لونه ومحيط به حتى يصل بذلك
إلى مرحلة الشهود وتطراً عليه حالة الحضور :

« والسجد واقترب » .

وبما جاء في القرآن من ذكر « المقام اليقين » قال عنه الهمس إن
الصلاة هي المقصودة بالمقام الأعلى .

« وأبعد ربك حتى يأتبك اليقين » (الحجر - ٩٩) .

وليس المقصود من « حتى » هنا هو حد الانتهاء من الصلاة بعد
الوصول إلى مقام اليقين : ثم يبدأ بعد ذلك صلاة أخرى . - إذ كيف
يمكن أن تنتهي الصلاة ؟! هذا في الأصل إفصاح لانتهاء كيفية الصلاة
وليس لانتهاء صورة الصلاة .

ترى ما هو الاختراب أو مقام اليقين ؟ إن هذا لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ . فحين يصل الإنسان إلى هذا المقام يشعر وكأنه يرى حقيقة غير مرئية يقين كامل . وأن شيئاً ما يقترأ له من بعيد إلى أن يصبح قريباً جداً . وينسفل للعبد في حديث ناجح دون وجود مضطرب وبعلاج بداخله عواطف المحبة . أعظم محبة . وأقوى محبة لتحقيق أمر محبب لا يصل إلى هيئته أمر آخر . أمر لا يمكن أبداً أن يسمر به بآية وسيلة أخرى . فهو يصل إليه بدون وسيلة ما أو واسطة .

والسجود الذي هو منتهى الاندماج في الصلاة هو منتهى حالة التقرب من الله . وهو يعيد كل البعد عن « وحدة الوجود » ذلك المصطلح الذي أطلق — في شكله الأول — غالباً — للتعبير عن هذه الكيفية فقط التي تقرأ على الإنسان حين يفرق في ذكر الله . إلا أنه بعد ذلك أوصلت محاولات التهديد المنطقي الأمر إلى درجة الفلسفة المعقدة التي لا تنهم والمتعلقة في عبارة « هو كل شيء » وبالتالي يتم التسليم لدى بعض الفلاسفة المخرفين بهذه العقيدة السيئة وأخذت ترتبط بمفهوم الارتباط الحسي المحض .

أقول إن الكيفية التي نقرأ على الإنسان وقت السجود . (والاختراب هو التعبير الأقرب على اللسان البشري لإظهار هذه الحالة) تتحقق لحظة تسلط هيئة السجود التي تعني تعلم المعجز وانخسوع إلى كمال لا حد له . حتى تضع جبهتك على الأرض وذلك انتسفت بها وحينئذ يقرأ عليك شعور واحساس كل هناك تلمر من ماء وضعت نفسها في بحر واسع ، وكان الإنسان قد اقترح بالله .

ما هو المراد بالصلاة الحقيقية المطلوبة في شكل ذكر دائم ؟ من الصعب بل لا يمكن أن يوضع لها فهرس أو توضع لها قائمة غير عمل ينتم إلى شقين : الشق الأول يتعلق بالعبد ، والشق الثاني خلص

بالرب . فالمعبود حين يذكر ربه في قيامه وقعوده : في نومه وفي يقظته (آل عمران - ١٩١) ينال رعاية الله . وينال من الله بصفة خاصة ككلياته لذكره : وكلماته الذكر : وهو ينال على المستوى النفسي في كل لحظة رزقا جديداً من ربه .

ومن الواضح أن هذا النوع من الكيفيات والأزالي لا يمكن أن يفرد له قهرس خاص إلا أنه يوجد له علامات ذكرت في القرآن الكريم أمثالها :

١ - أن يكون الله موجوداً في تصور المعبود دائماً حتى أن كل حدث يذكره دائماً بالله « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا » (آل عمران - ١٩١)

٢ - أن تسيطر عليه غلبة أنه أدرجه أنه يرتعد من خشية الله « تَقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » (الزمر - ١٦)

٣ - إذا ما ذكر الله وجل قلبه « الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ طَوْبُهُمْ » (الانفصال - ٢)

٤ - يكتبه كلام الله « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » (المائدة - ٨٣)

٥ - تصبح الصلاة بالنسبة له أمراً مساعداً وقت الحاجة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ » (البقرة - ٢٥)

ويحكي عن حقيقة أن النبي ﷺ كان يصلي إذا واجهته مشكلة (إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) وهذا هو شأن الملتحقين في هذه الأمة

على الدوام . ويدل عن ابن تيمية أنه كان إذا واجهه أمر لا يفيقه ذهب إلى مسجد خل غيملى ويقول في السجود : « يا معلم إبراهيم علمنى » : وينقل أبو نعيم عن ابن مسعود أنه قال :

« ما دمت في صلاة فانت تفرع باب الملك ومن يفرع باب الملك يفتح له » .

فالمصلاة هي واحدة المؤمن في حضراء الحياة . حين تهيم عليه تصبح أحب الأشياء عنده . قال رحمته : « جعلت قرعة عيني في الصلاة » (روى النسائي) . وكان إذا دعا يؤذنه بالإن للأذان قال له (أرحنا بها يا بال) (روى أبو داود) .

وهذه الصلاة لا يمكن أن يفلها المرء بغيره بالمصلاة اليومية فيختم القرآن مرة أو مرتين . بل يمكن للإنسان التخليق بهذا ألا يسمى الأمر صلاة . فتح تأثوته للآيات في الصلاة لأبد من التفكير ولأبد من التدبر . فأصل الأعمال الشرعية قائم على الكيفية وليس على الكمية . وفراء القرآن لا تعنى أن يتلو الإنسان كلمات وآياته ، بل يجب أن يخرج ذكر الله من أعماق قلبه . ومن هنا لا يمكنه أن يختم القرآن مرة أو عدة مرات في اليوم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقضى ليلة كاملة أهيلنا يتلو سورة واحدة ، وينقل الأمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت أن بعض الناس يتراون القرآن كله مرة أو مرتين فقالت : أولئك تراءوا ولم يقرأوا ، لقد قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الليل كله فقرأ فقط سورة البقرة وآل عمران والنساء : فكان إذا بلغ آية فيها من الوعد والتهديد دعا الله وطلب الجوه إليه وكان إذا بلغ آية فيها بشارة دعا الله أن يرضه البشري !!

الزكاة

أصل الزكاة أو الاتفاق هو الإيثار ^(١) (الحشر - ٩) فانه تبارك وتعالى يريد ان يشعر كل شخص بان عليه حق للآخرين . وان ينشأ مجتمع على استعداد للعطاء بدلا من الأخذ . وأن يتطلع الجميع فيه إلى تحقيق الفائدة للآخرين بدلا من التيل منهم . وأن يولد لدى كل فرد شعور بأنه لا حق له في هذه الدنيا ^(٢) . فعليه ان يستويبت نفسه . ولايجاد هذه الروح الاجتماعية فرضت الزكاة ، وللزكاة أهمية كبيرة في النظام الديني ، فعين حضر بشير ابن خصامة إلى رسول الله ﷺ لبيعة . سأل الرسول ﷺ : يا رسول الله على أي شيء تبايعني ان الصدقة والجهاد أشياء سعبة بالنسبة لي . فأعزني منها . فرقع رسول الله ﷺ يده وقال : يا بشير « إلا الصدقة والجهاد فبهم إذن تدخل الجنة » ؟ (رواه أحمد) .

والفتنة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ : كان ذلك سبب . فعد كانت السبل الاقتصادية لدى العرب قديما محدودة للغاية . وهذا رغبت بعض القبائل أن تحذف الزكاة من بين فرائض الاسلام . كما فكرت بعض القبائل المسامة حديثا في خلق طاعة الحكومة الاسلامية . وقالوا : لقد مات هذا الرجل الذي كانت العرب تنتم به . (يقصدون الرسول) (كثرت العمال ج ٣ ص ١٤٣)

[١] أصل الازك هو العطاء . ويطلق على الشخص الذي سأل به خصامة .

مراجع : .

[٢] ٧٨ في التاريخ الذي صدره الأستاذ وهو انظر بعض الواسع . صفحة ٢٠

التحقيق : المراجع : .

ومع أن هذه التبليّات كانت قد أُنكرت الزكاة فقط واعتبرت نفسها مسلمة كالمعادة . فالتزمت بالصلاة والصوم أيضا إلا أن الخليفة الأول قال : « والله لأفانن من غرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال » .

« إن كل ما في الأرض والسماء هو ميراث الله » (١) (الحديد ٧)
 « والرزق كله رزق الله » (٢) (الملك - ١٥) والمال كله مال الله (٣)
 (النور - ٣٣) وما لنا له هو كله من عند الله (٤) (الأسراء - ٣٠)
 فلو كان الله قد جعل المال والمتاع كله نصيبا له لكان هذا حقه كاملا ،
 لا يملك أن يعترض عليه معترض إلا أنه قرر لحق أن ينال جزءا بسيطا
 منه . وإن يهبنا البقية « وآتوا حقه يوم حصاده » (الانعام ١٤١)

لقد فرضت الزكاة شرعا في السنة الخامسة للهجرة إلا أنها كانت
 منبوية منذ اليوم الأول بشكل غير محدد وهكذا وجد ذكر الزكاة في
 السور الكمية . كما ورد في سورة (المؤمنون) : « والذين هم
 للزكاة فاعطون » وهكذا جاء في حق المشركين في سورة فصلت (٥)
 « الذين لا يؤتون الزكاة » ، وفي السنة الخامسة للهجرة النبوية حين
 هاجرت جمعة من مسلمي مكة إلى الحبشة قام جعفر بن أبي طالب
 بالتعريف بنبي الاسلام في بسلام نجاشي الحبشة : وكان من جملة
 ما قاله :

(١) بقصد قوله تعالى : « والفقراء مما جعلكم مستطيقين فيه » .

(٢) بقصد : هو الذي جعل لكم الأرض لتولوا فاشكروا في خلقها وآثارها من رزقه .

(٣) بقصد : ولكنهم من مال الله الذي أنفق .

(٤) بقصد : كلا لقد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك مغلولاً .

(٥) المراجع ١ .

(٦) المراد سورة فصلت - الآية ٧ : ويول الشركون . الذين لا يؤتون الزكاة وهم

بالأحرار بعد ٥ هـ من (١) المراجع ٢ .

« وأمرنا بعبدة الله ، وإمام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، كن هذا في البداية حسنا عليه . وبعد لحظه من مديد « فديرها واعتبرت واجبة وتكرر إسمية تحصيله من أجل الدعوة به . كما حصل انصرافه . والآن تعدد المفهوم الواجب لزمه سرعا وأصبح مطلوباً واحداً . وله كانت المصلحة لا تعني « الضرورية » بل هي عبادة حرة . ومن هنا كان لها مفهوم واسع ، ومن هذا الاعتبار . فلا حد لها : فلائسان ينلق على قدر حقيقته مما يملك من مال من أجل مرضاة الله . تقول لخدمة بنت قيس إن رجلاً من المسلمين سأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال الرسول : « إن في المال حلقاً سوى الزكاة » (رواد رمضاني) . أما فسر لمرآة الكريم إلى ضرورة الإنفاق مما يتبقى بعد المسكنة . حاجات الضرورية .

« يسألونك ماذا ينفقون قل المنى » (البقرة ٢١٩)

ولمزيد أو ثلاثين مورتان : الإلزام : المصلحة والنية . - ب . بيان انه انصرفي الحسن . *

« إن المصدقين والمصدقات وانفقوا الله قرصاً حسناً بفاسف لهم ولهم أجر كريم » (١) . (الحديد - ١٨)

والمراد بالمصدقنة « إطلاع المسكين » « وألم تك نطعم المسكين » (المدثر - ٤٤) أي الإنفاق من أجل تلبية الحاجة الضرورية للمحتاجين . وعلى العكس من هذا المراد من انصرفي الحسن الإنفاق الذي يكون في سبيل الله . أي (تنزيه الدين وأعماله ثباته) ففاية ما يطلبه الله من عبده هو نشر دينه ورفع رايته والائسان بنال ثواباً كبيراً ببذله روحه

١ - قوله تعالى : « المصدقين والمصدقات » في كل القسم الأول . ٢ - قوله تعالى : « لن نفهم الذين من الناس ينفقون المال » الذي المقصود به وهذا النوع من الإنفاق في الآخرة مختلف .

وماله ، ولأن الهدف الأساسي لهذا الإنفاق ليس مقدماً لعدد احتياجات الإنسان بل مقدم لدين الله ومعتق في سبيل إعلاء كلمة الله ، لهذا اعتبره الله قرصاً يؤدي حقه لعباده .

ومقدار الإنفاق يتحدد في شكل الزكاة ، إلا أنه لا يوجد أي مقدار محدد « للقرض الحسن » بل يكتب الله سبحانه أسماء أصحابها على قائمة المجاهدين بالذل ، أو الدعاة والشهداء ، وسيضعهم المفسر الأول لأهل الإيمان ، لأنهم قد أسلموا أنفسهم وما يملكون إلى الله . يقول القرآن الكريم :

« أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »
(التوبة - ١١١)

ففي غزوة نيوك (٦٣٠ م) قدم أبو بكر الصديق رضي الله عنه جميع أمواله ، وقدم عمر رضي الله عنه نصف ماله ، وقدم عثمان رضي الله عنه ألف جمل وسبعين قرصاً ، وعشرة آلاف دينار ، وبها تم إعداد ثلث قطعات الجيش .

هذا هو نوع الإنفاق الذي جاء ذكره في القرآن الكريم بعبارة إنفاق في سبيل الله (التحديد - ١٠) وجاء في القرآن الكريم : « وأنفقوا في سبيل الله ولا تظنوا بأيديكم إلى التهلكة » (البقرة - ١٩٥) ذلك لأن أهل الإسلام إن لم ينفقوا في سبيل رفع راية الإسلام فهم يقضون بأنفسهم على حياتهم الاجتماعية ، ولا يمكن أن نغوم لهم قائمة في الدنيا كاملة ، وقد بشر القرآن المنفقين بمضاعفة ثواب الإنفاق إلى سبعائة مرة ، بل وأكثر من هذا ، فليقنا لا جاء في (الطبراني) فإن معاذ بن جبل أورد حديثاً يتعلق بالثواب العظيم لذكر

الله ، والإنفاق في سبيل الجهاد في سبيل الله وبعده يروى الترمذي ما يلي :

« قال عبد الرحمن فقلت لعمد إنما النفقة بسبع مائة ضعف فقال معاذ هل غنمك إنما ذلك إذا أنفقوها وهم مقيمون بين أهلهم غير غزاة فإذا غزوا وأنفقوا خيراً إنهم من خزائنه رحمة ما ينقص عنه علم العباد ومفتهم » .

والزكاة من الناحية الشكلية ضريبة ، ومن الناحية الحقيقية عبادة . ولهذا فمن حق الدولة أن تتبع أسلوباً إجبارياً في جمعها تمام كصا تجمع الضرائب الخاصة يقانون المالية : إلا أن عامل الزكاة سوف يتل فائدة الزكاة الأساسية حين يؤديها وهو يشعر أن أداءه لها إنما هو عمل من أعمال العبادة ... ملتزماً بالشروط التالية :

١ - أن يتوقع أجراً طيباً من الله عن طريق الصدقة . ونحن نرى من الضروري له أن يخرج أطيب ماله في هذا السبيل .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تبصروا الطيب منه تنفقون ولستم بأخديه إلا أن تنفقوا فيه » (البقرة - ٢٦٧)

وقد أرادت السيدة عائشة أن تتصدق بلحم تقيم عديم المذاق فقل لها النبي ﷺ : « أتصدقين بما لا يمكن أن تأكلن » (رواه أحمد) .

٢ - أن ينفق بقلب خالص ... قال تعالى :

« والذين يؤتون ما آوتوا وقلوبهم وجلة » (المؤمنون - ٦٠)

وقال : « ويطمعون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنما نخلف من ربنا يوماً عبوساً مطمئناً » (الأنسان - ٨)

٣ - أن لا يمتروا على من يمسونه المذمة ولا يقولوا لهم ما يؤذي مشاعرهم .

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منهُ ولا أذى »
(البقرة - ٢٦٢)

٤ - أن ينفق المسلم بطريقة لا يشعر فيها أنه وهو ينفق في سبيل الله إنما يصاب بطرر اقتصادي أو يشعر بثقل أو عبء مما قدمه !!

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ونفسيًا من أنفسهم »
(البقرة - ٢٦٥)

٥ - أن ندعم الصدقات سرًا - لأن ذلك الطيب (البقرة - ٢٧١) .
بعد كان الصحابة يتفتنون في إخفاء صدقاتهم . جاء فيما يتعلق بعبد الرحمن بن ثابت أنه قال منحة فاشترى طعاماً لأهل بيته قدر الطعام لضروري لهم . ثم تصدق ببقية المبلغ . فلما سألت زوجته : ماذا حدث ابنتي المبلغ ؟ اجاب الصحابي : (لقد أنقصت) . وهذا للنوع من الإخفاء والسرية كان يخلق داخل البيت حسابات كان الصحابة يعملون على تلاشيها بطريقة تتضح من الحادثة التالية :

عن حسان بن عطية قال : لما عزل عمر بن الخطاب عمالية عن الشام بعث سعيد بن عامر بن جذيم : فخرج معه بجارية من قرشي نفعية لوجه . فلما بعث إلا يسيراً حتى أصابته هجمة شديدة : قال فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث اليه بألف دينار . قال فدخل بها على امرأته فقل : ان عمر بعث اليها بما تريد . فقالت لو أنك اتفقت لنا أداماً وطعاماً وادخرت مائتها : فقال لها لولا أنك على الفضل من ذلك ؟ فدفعها إلى من يأتينا بما أحوج ما نكون اليها .

(أبو نعيم ، حلية الاولياء مجلد ١ ص ٢٤٤)

ويحكي الراوى بعد ذلك أنه تحدث بلامران بعد أن سمع .
وعرفت الزوجة بذلك فهكت وعقدت الأظفار داخل البيت وحاولت
الرجل أن يلهم زوجته . وقال لها في النهاية : (إننى لا أستطيع أن
أومل على رضا الله والجنة . فاختلرئ لنفسك ما تسائين فقد اظفرت
لنفس الجنة) .

وفي النهاية سكنت الزوجة ورضيت !!

لقد زاد شوق الصحابة للحصول على رضا الله بالانصياع في سبيله
لدرجة أن رسول الله قال ذات مرة : تصدقوا « فإننى أريد أن أبعث
بعثاً (١) . ولم يكن لدى أبى عتيل الانصاري أى سر . فقد يسقى
حديقة أحد الناس طوال الليل . وأخذ أجره من المسيح صاعين من
بلح (٢) . فترك صاعاً لأهل بيته وأخذ الآخر فقدمه لرسول الله ﷺ
وكان سعد بن عباد قد خطب أن يذهب للجهاد لمدة سنة ويتوهم ابنه
قيس على شئون البيت . ثم يذهب ابنه للجهاد ويتوهم هو على شئون
البيت بالتبذير . فما كيف ربي أولاده وعلمهم فيمكن أن نفهم ذلك من
هذه الحادثة . لقد وصل إلى رسول الله ﷺ غيوف تميميون ، وفى ذلك
الوقت كان سعد بن عباد يجاهد مع جلد رسول الله فوصله الخبر
فقال : « إن يك قيس ابنى فسيرتول يا نسطاط ! هات المفتاح أخرج
لرسول الله ﷺ حاجته . فيقول نسطاط : هات من أبيك كتاباً . فيدق
أنفه . ويأخذ المفتاح ويخرج لرسول الله ﷺ حاجته (الإمامة) .
وهذا ما حدث فعلاً ، فقد تلم قيس بتقديم منى وسبق من
أصبح لرسول الله ﷺ . ليقدما لضيفه .

وقد بين أبو ذر الظارئ أهمية الصدقة بطريقة حكيمة جداً

١ - أريد أن أرسل بعثاً • التبريم • .

٢ - حوالتر خمسة أطلال • • كافر طرية • .

فضل : في الليل ثلاثة شركاء : « التور لا يسألك ان يذهب بطيرها وشعرها في « الهلاك » ولا يستأفك في الموت ، ولوارث ينتظر ان تضع رأسك ثم يسوقها وانت ذميم ، فان استلمت ان لا تكون اعجز الثلاثة فافعل ، فإن الله عز وجل يقول : « ان ساءوا اضر حتى تفلقوا مما تحبون » . (حلية الاولياء مجلد ١ صفحة ١٦٣)

ويروى انس رضي الله عنه ان عائشة رضي الله عنها كانت في بيتها في المدينة سمعت صياها - فسالت فقيل لها : إنها قاتلة تجارة عبد الرحمن بن عوف قادمة من الشام ، وكانت تسم سمعته جبل مصلة بلا منعة - فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رايت عبد الرحمن بن عوف وهو يدخل الجنة » فومس هذا الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : إذا كن الأمر هكذا فسادخل الجنة ، وبعدده فتم القافلة بما تحمل من تجارة وشاع في سبيك الله ، ويعمل عبد الرحمن بن ثابت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سيجمع الله لناس للحساب يوم القيامة - فيأتى اقراء المؤمنين يتبخثون كما تتبخثر الحمامة ، فيقال لهم : انتظروا احساب فيجيئون : لا حساب لنا ، فأتى لم تعطنا شيئا . فيقول ربهم : « بحق عبادي » افتحوا لهم ابواب الجنة : ويدخل الناس الجنة بعددهم بسبعين سنة) .

وقد جاء ذكر حكم الزكاة في القرآن مقابلا للربا فذكر الآية الكريمة أن الله يزيد الزكاة ويمحق النظام الاقتصادي القائم على الربا .

« بحق الله الربا ويروى الصدقات » . (البقرة ٢٧٦)

وجاء في آية أخرى :

« وما آتاكم من ربا لم يرؤا في أموال الناس فلا يروؤا عند الله

وما آتاكم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المقتضون » .

(الروم - ٣٠)

وفي موضع آخر تذكر الآية انهم انما لا يمكن ان يثبت على حال ولا يمكن ان تقوم له قائمة :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْضِبُهُ
الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » (البقرة - ٢٧٥)

وهكذا ورد ايضا في الحديث ان الاله حين تترك الزكاة . يبيد
الله بالمعصية والجفاف (اوسط المطهراني) . فالنظام الاقتصادي الذي
وضعه الله تعالى . يصيب بالخلل اذا ما حسه الربا ولهذا صدر الامر
بالحجاء ضد الربا (البقرة - ٢٧٨) (١) .

والسبب في هذا الفرق بين الزكاة والربا . انه بالزكاة تدور
الثروة . وبالربا يكون ارتكاز الثروة او تجمعها داخل مركز واحد .
فالنظام الذي يقوم على اساس الزكاة يقوم على اساس اقتصادي
في وقت واحد : اولها انه بدلا من جمع الذهب بالذهب يصبح من
الافضل جمع الذهب بالمثل . والنتيجة : انحلاله دون شر الثروة
وتفكيكها لان الزكاة تولج على رأس المال (وليس من صرية للنظر
الحثية المفرزة على المنفعة فقط) . وهكذا قلن يتكسب رأس المال
دائما في مكان واحد . وعلى العكس من هذا فبالنسبة للربا يصبح
هذان الاساسان الاقتصاديان متناقضين : فنتيجة للربا يبدأ الحصول
على الذهب بالذهب ومعناه ان من تلتى الثروة في يده مرة لمسول
يعمل بالضرورة على زيادتها دون ان يحقق أي نوع من أنواع
الإضافة للاقتصاد العام : وهذا الشيء سيخلق نوعا من السيطرة
الاقتصادية لا يتوقف مداها عند أي حد : هذا بالإضافة إلى انه في
نظام الربا لا يوجد أي عامل يمنع من تجميع الثروة بصورة مستمرة
في مكان واحد .

(١) يحدد قوله تعالى : يا ايها الذين امنوا انقروا الله واربوا ما سري من الزكاة :
في آخر الآية .

الحج

حقيقة الحج وجوهه يتلخصان في (التضحية) فمن أجل الحج يسافر الإنسان ، وهذه تضحية بالوقت ، ثم يتحمل نفقات السفر وهذه تضحية بالمال ، وينتحر الحاج نفسه وهذه تضحية بالروح . ويسمى ويطلق ، وهذا معناه أنه قد قصر جميع أعماله من كل جوانبها على الله فقط .

إنها مهمة ربانية يقدم فيها المؤمن جميع هذه التضحيات ويرفع اسم الله علي في الدنيا « فإذا قضيتُم مَناسكُم فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو لقد ذكرا » (البقرة - ٢٠٠)

وقال النبي ﷺ : (إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله) (المشكاة ، كتاب المناسك)

لقد عرض القرآن علينا رسالة الحج من خلال صورة حياة الداعية الأعظم سيدنا إبراهيم عليه السلام (٢١٦٠ - ١٩٨٥ ق ٠ م) ذلك الذي وثق حياته كلها على المهمة الربانية التي كان منهاها أن يفسحى بابنه على هذا الطريق ، وكل عمل من أعمال الحج يذكرنا بحياة هذا الداعية الأعظم .

« ففروا على مشاعرهم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » (المشكاة - كتاب المناسك)

وحياة سيدنا إبراهيم التي كانت كلها حياة دعوة ، إنما تكرر لنا بطريقة مميزة بعض المراحل التاريخية ، فالحاج يأخذ على نفسه عهداً مع الله أنه سيقصر حياته كلها (كما فعل سيدنا إبراهيم) على
ن م - واقمنا ومستقبلنا

تبليغ دعوه الحق ونشر الدين ، وإن يثبت عليه في كل حال من الأحوال
حتى لو لم يمر بجميع هذه المراحل التي مر بها سيدنا إبراهيم
عليه السلام .

لقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا للحاج أ قل : نسجت
الفضل . فقام آخر فقال يا رسول الله أي للحج أفضل أ قال : الحج
والشج . (المشكاة - كتاب المناسك)

وبالفاظ أخرى فالحج الذي يتم دون ترتيب وبأعمال مجزئة
إنما هو حج تنجز مراسمه بلا روح . ولا يتعلق أبدا بأصل حياة
الإنسان . هذا في الأصل تصوير للارتفاع الموجه . ومظهر العزم يصل
إلى حد التضحية بالروح . وكان العبد وهو يؤدي مناسك الحج إنما
يعرض نفسه على ربه . والسفر إلى الحج يعنى التضحية بالوقت .
والتضحية بالمال .

والإهرام دليل على أن العبد قد جرد يده من كل شيء . سد
الاحتياجات الضرورية .

والملوك والسماة تصوير لتقديم الإنسان نفسه وجسده وقلبه
وعقله من أجل رب الكعبة .

ورمى الجمار مظهر للسلوك الذي يتبع مع أعداء الله . وهو أنه
لا يمكن أن يكون هناك مصلحة معهم أو تعاون . بل هو الاختلاف
والتصادم .

وتقديم الذبيحة أو التضحية عهد مع الله على العداة وتقسيم
الروح من أجل الله .

والوقوف في ميدان عرفات هو تمثيل لجمع البشر جميعاً أمام
الله في ميدان للحشر .

ومكناً من طريق الأعمال المختلفة للحج يلحق الإنسان دروساً في هذا الروح والسلبية . واستحضار الله والاطمئنان ، ويغرس الإسلام بداخل أعبد عشفاً لمولاه حتى ينطلق يبعث في سبيله بطريقه مجهولة من أجل مرضاته .

لأن الركن العبادات الأربعة للإسلام هي وسيلة ديدة هيبة مستوحاة وهي أن يوجه الإنسان تلبية وجسده إلى خلقه . وأن يفهم أن هدف حياته ليس إلا مرضاة الله . والصوم يضح هذه الكيفية في شكل حجب طبيعي . والصلاة تثير هذه الكيفية عن طريق جوانح الإنسان وجوارحه . وفي الزكاة يتم الحصول على هذا الهدف من السحبة المثالية . وفي الحج يتم الحصول على هذه الكيفية المطلوبة من خلال تمكك على لمسات التاريخ الإسلامي المشرقة (١) .

وعبادته الحج لها عازقه عميقة بإبراهيم الخليل . فقد ولد خليل أنه في مدينته أور ببلد العراق القديم . وكان أبوه سادساً لبيت الأصنام . منضم حين الأصنام وحجج أبوه ومدح بالحق أعلم الملك . فعرف لقوم هذا « الخليل » وكانت النتيجة أن صاروا جميعاً أعداء له ، فاضر إلى أن يترك البيت . ويخرج مع زوجته « سارة » وبس أخيه لوطاً خارج وطنه مهاجراً ، إلا أنه لم يترك الدعوة إلى الحق . لكن عملية الدعوة التي انحصرت في البداية على مدينة أور . قد أصبحت الآن عمية منظمة على مستوى دولي . فأرسل الخليل ابن أخيه لوطاً داعياً إلى منطقة « سدوم » وهي المنطقة التي يقال لها الآن منطقة شرق الأردن . وانفس الهدف أرسل ابنه الأصغر إسحاقاً إلى منطقة كنعان والتي تعرف اليوم باسم فلسطين . وعين ابنه الأكبر إسمائيل

١- الحادي الثاني للحج هو التمسك « عبادة الخليل » أي عبادة الخليل ومن أجل هذا يعبده المسلمون من بلادهم من كل أنحاء العالم . يمشون إلى مكان خاص « ولداً مني » ويحج ، وهذا البلد كان موجوداً زمان الجاهلية قبل الإسلام .

في منطقتي مكة بالحجاز . وأسس في مكة مركزاً للإسلام « بيت الله » .
ودعا الله قائلاً : إنه جاء بأولاده إلى والد غير ذي زوج ، وذلك للنشر
الحسين الحنيف . فأخرج الله من نسهم نبياً يدعو الناس إلى الحق
(البقرة - ١٢٩) وكانت نتيجة هذا الدعاء الإبراهيمي أن ولد نبي
آخر الزمان (محمد ﷺ) من نسله من فرع إسماعيل .

عاش إبراهيم عليه السلام ١٧٥ سنة وانتشرت دعوته من مدينة
أور إلى مكة لمدة ثمن تقريباً ، أما المراحل التي مر بها في حياته من
أجل الدعوة فقد تم اختصارها لتصبح رمزاً . وذلك في سورة نوح
وعراسمه فالسفر وللوصول إلى مركز الإسلام . والطولف ببيت الله
الحرام والسعي بين السما والروة والسبح إلى منى . والقيام في
ميدان عرفات ، وقضاء ليلة في المزدلفة . ورمي الجمرات . وتحمية
في منى ما هذا كله ، هذا كله يمثل المراحل التاريخيه لحياة الدعوة
حتى مر بها إبراهيم عليه السلام . بنت التي تقوم بإعادة تربيته
فانه تعالى فرض على المسلمين في كل فترة أن يعيدوا هذه الأحداث
فيجددوا بذلك عهد الدعوة .

« ولعدينا به ذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين » .

(الصافات - ٨)

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام « من مر بكنز
أنواع الاختبارات والمحن ومنك ثامناً على مهمة (دعوة الحق) في
جميع الأحوال فثبته الله تعالى في مكانة الإمامة التي أعدها له . وكانت
في علم الله .

« وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس

(البقرة - ١٢٤)

إماماً .

وليس المقصود بالإمامة الحصول على سلطة سياسية بل الحصول على منصب يؤهله لأعمال رسالة الهداية الإلهية إلى الناس ويذكر القرآن الكريم إبراهيم والوطا واسحاق ويعقوب عليهم للسلام بالإمامة فيقول :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات »
(الانبياء - ٧٣)

وهذه الإمامة واسمها الثاني « النبوة » ظلت مستمرة في سيدنا إبراهيم من بعده ، ففي البداية جاء اسحاق ابنه وأرشد الناس إلى مرضاة الله وكان آخر الأنبياء من نسله عيسى عليه السلام : وبعد محمد ﷺ (٥٧٠ - ٦٣٢ م) من أسرة اسماعيل بن سيدنا إبراهيم . وبمحمد ﷺ انتهت سلسلة المرسل . وانقضى الدين . وحفظ لعالمين . وسلم إلى الأمة المحمدية : وأصبحت مسؤولية الأمة المحمدية أن ترشد عباده الله جميعهم إلى طريق مرضاة الله حتى يوم القيامة « واجاهدوا في الله حق جهاده هو آجتباكم » !!

وكانت خلاصة تعاليم الصحيفة التي قدمت لسيدنا إبراهيم كما يلي :

« أم لم ينبا بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وثق ،
الآنز وأزرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن
سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأولي ، وأن إلى ربك المنتهى »
(النجم - ٣٦ - ٤٢)

فهذه هي أهم قضايا الإنسان عند الله : ولهذا أخذ الله عبداً على جميع الأنبياء أن يرشدوا الإنسان بتلك الحقيقة بأي ثمن .

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقنا لطيفاً ، ليسأل الصالحين من صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً » (الأحزاب ٧ - ٨)

وكان من نتيجة الدعاء الإبراهيمي (البقرة - ١٢٩) (١) أن بعث الله نبي آخر الزمان : وحمله القرآن العربي ، وأصبحت من ميامنه تعريف أهل مكة وبقيّة العرب بهذه الحقيقة :

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أعمى وأنرى ومن عزّزنا وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » . (التيسير ٧ - ٨)

وقد أرسل القرآن إلى العرب بلغتهم ، على أن « يلحق » معهم بقية الأمم التي تؤمن وتتشارك معهم بالتبعية :

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (الجمعة ٢ - ٤)

وكان من جملة الدعاء الذي رفعه إبراهيم وقت شفعه لئكيبة : « فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم » (إبراهيم - ٣٧) ، أي اجعل هذا المكان مركزاً لعبادة الله ، وهكذا أرادت مشيئة الله في زمن سيدنا إبراهيم أن تصبح مكة مركزاً عالمياً للدعوة الإسلامية وللإجنساع الدولي للأمة الإسلامية . « والذين في الناس بالحج » (الحج - ٢٧) يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية : إنه حين تم تعمير بيت الله في

(١) هو قوله تعالى : « ربنا وأبنتهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

مكة : أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعلن في الناس أن الله أقام لهم مركزاً يجب أن يبرولوا إليه ويحجوه .

وكان الهدف من الاجتماع في هذا المركز هو نفسه هدف الرسول وهو نفسه هدف وجود الأمة المصدية أى تبليغ رسالة الله إلى العالمين .

« ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »
(آل عمران - ٩٦)

وحتى يتحقق هذا الهدف جعلت الكعبة مكاناً لاجتماع المسلمين جميعاً ، « وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (البقرة - ١٢٥)
وقد عبر الله تبارك وتعالى عن المكانة الأساسية الثانية للكعبة بـ « قيسلما للناس » (المائدة - ٩٧)

وكان مكة هي مكان الاجتماع الدولي لأهل الاسلام . ولهذا نقرر أن يجتمع فيها جميع مسلمي الدنيا كل سنة ، وأن يعبدوا ربهم . وأن يخطبوا هناك لتبليغ رسالة دعوة الحق العالمية . هذه هي المكانة الأساسية لبيت الله ، والأمور الأخرى ما هي إلا نوابع لهذا الهدف . كما امر بأن يعود المسلمون بعد الحج وقد غرست فيهم عاطفة الشعور بعظمة الأب والجد وبالتالي يعودون من الحج رجالين لأمانة تحلية نواحي عظمة الله « فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذاكركم آباءكم » .

وأولئك الناس الذين يعودون الحج مجرد « زيارة » ويرون أن زيادة عدد مرات الحج هو من الكمال يجب أن نقرأ عليهم قول عبد الله بن عباس الذي نقله أبو نعيم :

« لأن أهول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله أحب إلى من حجة بعد حجة » (حطية الأولياء المجلد الاول)

وحتى يشك هذا المركز آمناً محفوظاً وضع ترتيب خاص لقسم تأكيد سلامة الحج - فصدر حكم شرعي بأن يكون هذا المركز قاصراً على أولئك الذين يؤمنون بالاسلام - وأنه لا يجوز أن يدخله غيرهم .
« وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والمكائين والركع السجود » (البقرة - ١٢٥)

والدعاء الذي رفعه ابراهيم إلى الله من أجل رفع شأن التعمد -
هذا المركز كان : « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات » (البقرة - ١٢٦) فقبل الله هذا الدعاء ، وظل هذا المركز ينمط برونه الحال رغم أنه (غير ذي زرع) لمدة أربعة آلاف وخمسمئة سنة .
وفي عصرنا الحاضر أثبت البترول العربي أنه نتيجة من نتائج استجابة الله لهذا الدعاء فقد حبر مالك الكائنات هذا الأمر حتى يرضى هذا المركز في عصر الصناعة - Endeverdal - ago - بما له من (انفساح أرضي) مركزاً غنياً ثرياً ، لا يفي بحاجته من البترول فقط بل جملة قادراً على أداء مسؤولية الدعوة على أعلى مستوى عالمي .

ويرى العلماء الجيولوجيون أن المدة الجغرافية Accident of Geography قد جعلت ثلث احتياطي البترول العالمي في هذه المنطقة التي يطلق عليها بالمصطلح الحديث منطقة (الشرق الأوسط) (١) إلا أن الحقيقة أن هذا الأمر كان نتيجة للدعاء الابراهيمي الذي قال فيه ابراهيم لربه : (وارزق أهله من الثمرات) ، وبالفعل أخرى يقدم

(١) هذا مصطلح المستخدم ليد به أن يدخل على إسرائيل ، والمصحح الشرق

لأهله وزرعه يفيض عن هـ جعلهم حتى يقوم قولوا الأمر منهم في كل زمان بالإتقان على سبيل الدعوة بعثيفه شبيه قوته عصره : وهن حمل الله إبراهيم الأمانة وجعل « بيته » مقصدا للعالمين ومثابة للناس . أمره بأن ينادي أن يجتمع المطلقون من عباد الله الصالحين في هذا المركز . ون يلتقوا بإمامهم وأن « يشهدوا » منافع دينية ودنيوية لهم « ليشهدوا منافع لهم » (الحج - ٢٨) . وليعبدوا الله أيضا حيث يجمع نبيد الله الصالحون مرة كل سنة في هذا المركز الألى ، ليشهدوا أمورهم وشايلهم الدينية . وليستمعوا إلى أحكام إمامهم وليستعدوا لتجديد سنة إبراهيم ، وأخيرا ليعود كل منهم إلى وطنه .

والعبادات الموجودة في الحج هى وسيلة للحصول على قرب الله ونصرته . وحلف الحج الأسلى هو أن يطرح الإنسان جميع قضايا الدنيا ، وأن يحاسب نفسه ، ويستعد لبرنامج جديد من العمل الدينى، فسمى نبي للذى جاء ليحيى الأمانة الإبراهيمية لم يتم بتصحيح أخطاء مناسك الحج فقط : بل جعل من بيت إبراهيم مركزا دينيا . ول حجة المشهورة عام ١٢١٢ باعلان أمر الحق (خطبة حجة الوداع) فأوضح الفرائض والأحكام الدينية وأعلن نسخة بعض المعاهدات . وحدد بعض القواعد الدولية واتهد لبعته على نفسه لأخر مرة بمناسبة الحج حين قال بعد الخطبة : ألا هل بلغت ؟! فقال الناس : بلى يا رسول الله ، وأعطى ١٢١٢ آخر تحذير لمنكرى الخلل في يوم الحج :

« وأذ أن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر » .

(التوبة - ٣)

ورغم أن زمان نزول الآية كان في الوقت الذى وجد فيه النبى في المدينة : الا أن اعلان البراءة كان في مكة يوم الحج . وهذا دليل على أن مكة هى المركز الدائم للحركة الإسلامية .

وقد جاء في الحديث :

« إن الذين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها » .

(المشكاة بلب الاعتصام بالكتاب والسنة)

وما جاء ذكره في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد ادعى لبني إسرائيل مقام الفضيلة . جاء ذكره ايضاً فيما يتعلق بالامة المصطفوية بأنها خير امة (آل عمران) . فقد اظهر بنو اسرائيل قبل بني نسطهين (الامة المصطفوية) للقيام بارشاد الناس إلى الحق .

« ان الفريضة الوحيدة لبني اسرائيل في هذه الدنيا ان يكونوا شهداء » .

(دائرة المعارف اليهودية مجلد ٦ ص ٢)

و فرض على بني اسرائيل القيام بالدعوة إلى وحدانية الباري . والتفويض بجهنم عبدة الشمس والتمس والكواكب . وحين حمل الله بني اسرائيل هذه المسؤولية اعد لهم الله نظاماً اقتصادياً خاصاً وذلك في زمان موسى عليه السلام (١٥٢٠ - ١١٠٠ ق م) : وكان هذا هو ابن والبلوى . وكان شعاعهم هذا يملهم حتى ملكهم بسهموي . كبره . وامروا ان ينصرفوا بكل قواهم إلى تبليغ دعوة الله أكثر من تعليمهم بنظامهم الاقتصادي إلا أنهم لم يقدروا على فهم هذه المصلحة فبدأوا يتجهون إلى اللذات والشهوات وبسهولة الحياة وفضلوا ما هو أدنى على الذي هو خير . وفي النهاية أبعثوا عن مقام الفضيلة لأنهم انكروا آيات الله .

« واذا قلتم يا موسى ان نصير على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما نبت الأرض من بقلها وقتالها وفوميا وعمسها وبصلها ، قال انستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصرأ فإن لكم

ما سالنم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبألى يقضب من الله ذلك
؛أنهم كانوا يكفرون بآيات الله .

(أنيرة - ٦١)

وما حصل عليه العالم العربي من ثروة بتروليه تمثل من حيث
مكانتها ما كان لدى يفي اسرائيل من من وسوى . عند كانت قيمة المن
والسلوى كهيئة بتصحينهم من تبليغ « شهادة دين الله » . وهكذا فإن
الثروة البترونية وما لها من قيمة عالمية ومكانة عليا كهيئة إنما أرسلها
إلى لإداء مهمة تبليغ رسالة الحق ، واضمان الاستمرار في مهمة تبليغ
رسالة الله .

إن وجود الكمية في العالم العربي يجعل من هذه المنطقة مركزاً
لحركة الاسلاميه باستمرار وعلى الدوام . فمن ناحية تتمتع هذه
المنطقة بجاذبية تاريخية تجذب إليها جميع أهل الأرض ، فيقد إليها
من عم ملايين البشر . ومن هنا جعلت المنطقة حرماً مقدساً . وتجمعت
حولها جميع وسائل النزه لتظل دائماً في يد أهل الاسلام ، ولا يمكن
أن تؤزل لأطرين لا سياسيا ولا إداريا ، ثم كان هناك تدبير ثالث
وهو قيام اقتصاد هذه المنطقة على أساس راسخ ثابت حتى يكفل
سكنها ويلقيس عنهم قلقهم يمكنهم من أداء أكبر وأعظم الخدمات
وللشر دين الله ورفع لوائه وهو العمل الذي كانوا يقومون به على
مر الأزمنة ...

تري هل يعرف العرب سر نعمتهم ؟ وهل يقومون بأداء رسالة

الله ؟ !!

المسألة المستقيم

ما هو المراد بالمستقيم ؟

يلهم من القرآن الكريم أن الله تعالى قد حدد منهجاً محكماً لجميع الكائنات . وجميع الكائنات تمضي على هذا الطريق وعلى هذا المنهج مترتبة بالعدود التي وضعها الله (فصلت - ١١) (١) حتى أن النحل (٦٨ ، ٦٩) تسلك سبيل ربها الذي حدده لها . فهي تسلك سبيل ربها ذئلاً (٦٩ - النحل) (٢) . وفي هذا أيضاً سر نجاح الإنسان ولا شك فالإنسان في حالة اختيار دائم وامتحان مستمر . ومن هنا تم التكليف بإخياره وإرشاده فقط . ثم وهب الإنسان الفرصة ليستخدام إرادته في اتباع الطريق المستقيم أو الانحراف عنه (الإنسان - ٣) . وخير أخبر الله الإنسان بمعنى « سبيل الله » وضع على عاتقه مسؤولية المضي على هذا السبيل واتباعه وكله يقين على أنه هو السبيل الوحيد الذي يفوده إلى الفلاح والنجاح (إبراهيم - ١٢) . وإذا ما انحر الإنسان بسبب ما فسلك سبيلاً آخر . فهو ينحرف بهذا عن سبيل الله . ومن ينحرف عن سبيل الله لا يصيب من هذه الدنيا سوى الفشل والفهم (الأنعام - ١٥٣) (٣) فالإنسان عند الله هو الإنسان الذي يمشي على

(١) يشير المولى إلى قوله تعالى في الآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوي

إلى السماء ومن هناك أنزل أمراً فلو أن فلاناً لم يؤمن أو كفراً » فدلنا أيضاً على أن :

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « ثم كلفنا كل الأجناس قبلي سبيلاً » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « لا إله إلا الله الذي لا يشركه شيء » .

١ . يشير المؤلف إلى قوله تعالى في الآية ١٥٣ - الأنعام : « ومن يضرع إلى الله فاستجب له » .

مستطاعه « معبود » ولا تسجدوا له فكل من سجد له « فليس له شريك » .

الصراط المستقيم . ومن يحدد عن الصراط المستقيم فهو ينحدر إلى
مقام الحيوانية .

« أمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط
مستقيم . قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
سيدا ما تشكرون » (الملك ٢٢ - ٢٣)

ويعلم من معنى المضى على الصراط المستقيم ان يستخفم
الإنسان إنسانيته وكفاءاته . سمعه وبصره وفؤاده ليعيش حياته .
ما هو السمع والبصر والفؤاد ؟ هذه هي الأشياء التى يتميز بها
الإنسان عن بقية المخلوقات . هذه هي الأشياء التى تنفذ أى كائن
« هي » من هذه المنزلة إلى منزلة كونه « إنسانا » . وعلى العشى
من هذا تتوزع الحيوانات . فرغم انها تمضى وتتحرك إلا انها حُرمت
بعمى السمع والبصر والفؤاد . تلك النعمة التى خص الله بها الإنسان
فحده . ومن هنا فمن يمتلك هذه النعم الإنسانية ولا يستفيد منها فهو
كمن ينحدر بنفسه من مقام الإنسانيه إلى مقام الحيوانية وقد ذكر
القرآن أنه كالكتب (الاعراف - ١٧٦) (١) كالحصار (الجمعة -) (٢)
كالأنعم (الفرقان - ١٤٤) (٣) وأكثر من هذا فهو فى منزلة المفردة
والفخاير (المائدة - ٦٠) (٤) بل أسوأ :

« إن شر الذواب عند الله الصم والبكم والذين لا يعقلون » .
(الأنفال - ٢٢)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « خلقناكم كمالا اكمل ان نعمل عليه بليت لو تركه بليت »

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « خلق الذين هموا الفؤاد ثم لم يبلغوا عقل التصور
بعدم انظارا » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « لم نصب ان نقرهم بسجون لو يعقلون ان هم لا
كالانعام بل هم اضل سجيلا » .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : « قل من انشأكم بشر من تلك الجملة عند الله من انشاء
الله ونصب عليه وحملهم الفرداء والفاير وبهم المخلوقات » .

فالأمر الذي تفهم بالعقل ، يحدث إلا يفهمها الإنسان وضه
لا يمتلك عقلا ، وهذا الإنسان هو في نظر الله اعى ولا يسمع ، وقد
ورد في القرآن للتكريم في سورة رقيم ٥٠ ان الله خلق الإنسان في
أحسن تقويم ثم وده اسفل سفلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
(التين ٤ - ٦) (١) فالمراد بالأمر الأول هو مقام الإنسانيه والأمر
الثاني مقام الحيوانية ، فانه قد خلق الإنسان على مقام الإنسانيه
ثم وضعه في مقام الحيوانية ، والآن يختبره ويمتحنه حتى يخرج
الإنسان نفسه من مقام اللذ إلى مقام الرفعة .

« ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أفلد إلى الأرض وأتبع هواء »
(الأعراف - ١٧٦)

وهذا التقسيم من الآيات التي ورد فيه هنر هؤلاء الناس لعمى
والعمى الذين لا يفتكرون ، ليسوا صيا أو مما بالمعنى المعنوي بل هم
كالمجنون في الواقع انقلبوا على وجوههم في الآلوية .

كان هؤلاء أنسا اعتبروا أئمة العلم في زمانهم . وكانوا قد بنوا
المنصور والقلاع ، كانوا علماء خبراء في السجاد والزراعة والهندسة .
كانوا يتقودون الأمم والدول . وهكذا ذكر النبي بن أبي الحسك العربي
الذي اشتهر ليس فقط بإمارته وكرمه بل أيضا بشعره ومخكته
(الآية السابقة من سورة الأعراف - ١٧٦) ثم عندك شطش آخر
ولد في آخر زمان موسى عليه السلام ويدعى بلعام بن بعور - اشتهر
بين أهل زمانه بالعران وذاع صيته بسبب طمه وزهده : كما يروي
عن عيادة بن الصامت أنه كان يعد مصداقا لروساء قريش : وقد تولى
أمر الكعبة ولهذا اعتبر قائدا للعرب أجمعين (البحر المحيط) .

١٧٦- يشير إلى قوله تعالى : « الله يخلق الإنسان في أحسن تقويم ثم يردها اسفل سفلين » الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير غير هؤلاء .

... ثم ماذا تعنى عبارة عمى صم : إن فهم هذا الأمر يستلزم التفريق في الفرق بين الإنسان والحيوان فالحيوان يمتلك كل ما لدى الإنسان من أشياء - فاعرفه فالحيوان يسمى ويأكل ويشرب . ويرى ويسمع ويشعر بالألم إذن ما هذا الشيء الذي يفصل بين الإنسان والحيوان . يقول علماء الأحياء إن الفرق يتجلى في القدرة الإنسانية على الفكر - *Conceptual Thought* . وبعبارة أخرى فهو يفكر . ولا يمكن أن يقوم بأى عمل بدون أن يتتبع بما هو موجود أمامه . مثل هذه القدرة لا توجد عند الحيوانات . ومن هنا يمكن أن نفهم الفرق بين مقام الإنسانية ومقام الحيوانية . فمقام الحيوانية يعنى أن شيئاً ما لا يمكن أن يهرك الإنسان سوى المصلحة المادية أو الشر المادي . وعلى العكس من هذا فمقام الإنسانية هو أن يؤمن الإنسان بالشيء ذهنيًا بعد أن يتأكد من حقيقته أو صدقه ويطبق عليه معنى أسلوب حياته . يقول تعالى في كتابه العزيز :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »
(البقرة - ٢)

فالقرآن الكريم ليس هداية لأولئك الناس الذين يجمعون للتأثير المادي فقط أو للتفكير المادي أو النفع والتضرر المادي فقط بل من يبتدى بهذا الكتاب هم أولئك الناس الذين يؤمنون باحتمال المصادفة التي تحمل أهمية عقلية خفية (الغيب) . ولا وجود لقوة تلك الحقائق التي يؤمنون بها في هذه الدنيا . وكأننا الإيمان بالشاهدة هو مقام الحيوانية والإيمان بالغيب هو مقام الإنسانية .

يروى فيما يتعلق بإسلام أبى بكر رضى الله عنه أن الرسول

ﷺ قال : (ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنه كبرة وتردد
وبشر إلا أبا بكر ، ما عنكم)^(١) عنه حين ذكرته ولا تردد فيه .
(لبدلية والنهاية مجلد ٣ ص ٢٧) .

وهذه هي أعلى درجات مفاهيم الإنسانية عندها أبو بكر
الصديق . فقد كان في إمكانه أن يعطي قدر وقيمة أي شيء على أساس
جوهره الذاتي وهذا يتأثر الإنسان بالخصيصة العالية لرسوله الله
وينبثق منها . لو يصر بالمعجزات أو بالفران الكريم أو بغير ذلك
المدية بالنسبة ويخون مسلما . إلا أن أبا بكر وصل إلى مقام من رغبه
القدر بدرجة أنه يمس من ذنوب الناس على أساس الحسن والظبح
المجتردين ، وهذا حتى أوصى أبو بكر . أثناء مرضه بوصية
الشفقة وعهد بها إلى الثارون عمر . ظهر في الحاشي كتبي شديد :

« تدخل عليه ملحه بن عبید الله فلق لنا رسول من ورائي إيت
يفدون : قد علمت عنده عمر عبيد في حينه فكيف بعد وفاته إذا
انصرفت إليه أموري والله بسلك عنه فانظر ما انت قلت » . إلا أن
من وصل إلى هذه الدرجة العالية من مقام الإنسانية قد عبر مرحلة
الظفر إلى مرحلة الإيمان . فقد رأى أبو بكر أن سدة عمر هذه ليست
خاصة بداره هو بل من أجل الدين . وإن اقترب الخاسر في داخل
صدره هو أكبر ضمان لأن يظل عمر على الحق . قال عثمان : لا تأخفوا
على ظاهره فبماسته الحسن من ظاهره (سريره خير من علاته) وهذه
هي عبارة أبي بكر بالفاظ أخرى . فلشخص الذي يقوم على السريرة
المنطقية تثبت فيه بقرة المعرفة . لقد سمعت قريش الكثر أن علي لسان
محمد ﷺ ، فقالوا : « هذا كلام شاعر » فكلية شاعر هنا لم تكن
كلمة كبرة وهي عند الله تعل على ثقة الإيمان ، فبلا ما يؤمنون .

(المصحة - ١٢١) (١) - ظلم يكن إيمانهم إيماناً كلياً ، لقد عاكفوا عن القرآن ، كلام شاعر لأنهم أرادوا أن يعلنوا أنه مجرد عمل أدبي . يضم المستقيم القديمة لآلة إبراهيم . وهكذا يلتقي هؤلاء الناس بالاعتراف بلحق الأدبي للقرآن بينما الحق الأساسي للقرآن هو أن يعسم على أنه المصدق الأعلى . وأن يسلم به على أنه « حق اليقين » . ونحن نطلب رسول الله ﷺ من أبي سفيان أن يفتي بشهادة الإسلام قبل دخول مكة بيوم قال : يا بني أنت وأبي ما علمت وأكرمك وأوصيك . هذه والله كان في النفس منها شيء حتى الآن . وبعد هذا حين نسر عنه الحجاب بدقة الموقف نطق بالشهادة ، وكان من السهل على أبي سفيان أن يعترف بعظمة النبي وأخوته لأنه بعد هذا حصل على عدوه نفسى كذا شعر بأنه إن كان هناك فرق بالفرق فقط فرق أخلاقي وليس فرقاً خاصاً بصفه أو خطأ نظريه النبي ﷺ . ولا شك أنه من الصعب على أى انسان أن يعترف بالنظرية بالمقارنة بالاعتراف الاخلاقي .

المصراط المستقيم في السلوك الفردي :

ما هو المصراط المستقيم الذى تم إيضاحه في القرآن الكريم بطريقة واضحة : فيما يتعلق بالحياة الفردية (الشخصية) والحياة الاجتماعية .

جاء في القرآن الكريم في السورة السادسة (الأنعام) :

« قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْلَاقٍ تَحْنُ تَرِزُّكُمْ وَإِيَّكُمْ وَلَا تَقْرِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي

(١) وهذه الملائكة التي قوله تعالى : « وما هو بذكور شاعر » . مثلاً بلذبيون .
م ٦ - واضحاً ومستقل

حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ولا تقرّبوا مالكم اليهم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلّف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعوه الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون * (الأنعام ١٥١ - ١٥٣)

هذا هو الصراط المستقيم الخاص بالصياد الفردية ، وخالصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين ، الاعتماد على الله ، البعد عن الفواحش ، احترام النفس ، البعد عن الظلم ، امتناع بالاحسن إقامة العدل في جميع الأحوال ، الوفاء بعهده الله ، اتباع التقوى في جميع الأمور ، وأولئك للناس الذين يمشون على الصراط المستقيم هم أولئك الذين اتعم الله عليهم (المائدة) ، الذين خرجوا من الظلمات إلى النور (إبراهيم - ١) (١) ، الذين نالوا فضلاً من الله ورحمه (النساء - ١٧٥) (٢) حتى أتم الله عليهم نعمته (الفتح - ٢) (٣) . ومن الواضح أن حياة الناس الذين يتصفون بهذه الخصائص لا يمكن أن تكون كحياة عامة الناس . ومن الضروري أن يظهر أديهم هذا الإدراك - في حياتهم - بأشكال مختلفة :

١ - وأول ما يتعلق بهذا الأمر هو أن يسألوا أعلى الكيفيات الإيمانية ، يروى أن عبد الله بن رواحة قال لرجل : تعال نؤمن ساعة . فسمعه رجل فحذبه إليه وقال : « أولست بمؤمنين ؟ » فأجاب ابن رواحة :

(١) يشر إلى قوله تعالى : « السر كتب لرساء اليك لمخرج الناس من الظلمات إلى النور فإذن رجع إلى صراط التزويج الجديد
(٢) يشر إلى قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا بآلله وأخلصوا به فستخلصهم الله من ربهم ويغفر لهم »
(٣) يشر إلى قوله تعالى : « أولئك هم الذين آمنوا بالله وحده وحده »
عليك وبذلك صراطاً مستقيماً *

« أجل ، نحن مؤمنون ، ولكن حين نتفكر الله فاننا نزداد إيماناً على إيماننا » ، وبعد ذلك ذهب ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وثسكى مما قاله ابن رواحة الذي ترك إيمانه وانشبه ليؤمن فترة ، فقال النبي ﷺ :

« يرحم الله ابن رواحة أنه يحب المجالس التي تتبسم بها
الملائكة » (رواه أحمد عن أنس بن مالك) •

وكان ما قاله ابن رواحة من جملة للكيفيات الإيمانية العالية .
لكن الشخص الذي وقف عند حد الإسلام دون « الإيمان » لا يمكن أن ينهم هذا المستوى .

٢ - يعنى الإيمان لكل هؤلاء الناس أنهم قد أسلموا نفوسهم تماماً لله . وهذه الفكرة تجعلهم يرتجعون وتفتش قلوبهم خوفاً من أن يقضى الواحد منهم حياة تكون بعيدة عن مرابط الله المستقيم ، وحين نزلت الآية امرأية « الذين يكتزون الذهب والفضة » (التوبة — ٣٤) .
حل رسول الله ﷺ : « تبا للذهب ، تبا للفضة » ، وكان هذا الأمر من المعوية على أصحابه لدرجة أنهم قالوا فيما بينهم : فأى مال نتخذ .
وحل عبر هذه القضية وذهب إلى رسول الله ، فقال :

« لينخذ أحدكم لساناً ذاكرة ، ولها شاكرا وزوجة مؤمنة تعين
أحدكم على إيمانه » •

(تفسير ابن كثير مجلد ٢ صفحة ٣٥١)

٣ - أن تولد بداخلهم بكرة الاعتراف بالذنب بدرجة كاملة .
ركب أحد الصحابة ويدعى جابر بن الأزرق على ناقته ، وكان بعض مسافراً مع رسول الله ، وفي الطريق خط الرسول رحاله ودخل إلى

هيئته . وذا ان هناك زحاح شديد على باب الحقيقة . قال جابر بن لاريق .
 لقد دفعني شخص وأراد ان يبعثني عن الباب . فقلت له : لقد دفعني
 وسوء الفطنك وإذا ضربتني ضربتك . وسمع الرجل هذا غص له :
 يا سر الرجل . فقال له : بالله أنت شر مني . فقال له الرجل : كيف
 هذا ؟ . فقال : لقد جئت من البوائك الذين لا يسمعون شيئا من رسول الله
 وأعود لأخبر الناس الذين من خلفي . وأنت متعتني . وسمع جابر
 بن لاريق الغافري هذا وهذا . وتل على القوم : صدقت نعم والله
 لأنا شر منكم . (كنز العمال) .

٤ — ان يشعر بمسئوليته تجاه الناس أكثر من شعوره بحقوقه .
 يروي عن أم سلمة في مسند الإمام أحمد ان رجلين اختصما . فجاءا إلى
 رسول الله ﷺ . يخطبهما إليه في مزاحمة على إرث . وكان أحدهما
 متهما يقول : هذا حقى . ولم يتمكن أحدهما من إثبات حقه بطريقة
 بيّنة . فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلي . وإنما أنا بشر .
 ولعل أحدكم الحق من الآخر فاحكم له . فممن حكمت له بشيء
 من حق أخيه فإنما أصليته جزء من النار يوم القيامة) . وسمع الرجلان
 قول رسول الله ﷺ فبكيا وصارا كالمهملين يقول : هني لأخي هني
 لأخي .

٥ — ان يوجد في الإنسان سمو النظرة وارتفاع النفس : غيرهي
 الضمير كما يرمي الكبير . وقد أرسل الأمير معاوية في زمان حكمته
 إلى أنصارى مبلغ خمسمائة دينار . فرأى أنصارى أن هذا المبلغ
 قليل . فقال لأبنته خذ هذا المبلغ واذهب لمعاوية وألق به في وجهه وعد .
 واستخلف ابنه على أن يقوم بما أمره به : فأخذ الإبن المبلغ وذهب
 إلى معاوية وقال : يا أمير المؤمنين : لقد أمرني أبى وأنا لا أقد على
 مخالفتك . فزاح معاوية يده على وجهه وقال له : افعل كما أمرت أبوك .

ولكن تصرف بلين مع عبك . ففجّل الابن وترك المبلغ . وذعب فضاء
معاوية المبلغ والرسله إلى الأنصارى . (تاريخ الخضرى)

٦ - أن تظهر بداخلهم معرفة الحقيقة . التي تجعل الرجل العادى
يصل بأمر مضع كبار الناس في حيرة . على زمان خلافة عمر رضى الله
عنه حين انتصر سعد بن أبى وقاص في معركة القادسية (فارس) .
فبدل مع رستم قائد جيش الفرس (الرسل) وفي تلك الأثناء . حين
وصل أحد الرسل بمقتاده وملابسه العادية إلى بلاط رستم صاحب
الخدمة واليهامان استحضره . وقال له مشيراً إلى رمحته : ها هذا
الذى في يدك كالنزل . فقال له الرسول يهدوء محبباً عليه : « لا يقل
من نال قطعة الفخم أن تكون صغيرة » . (تاريخ الخضرى)

٧ - أن تظهر في الإنسان « بسيرة » تمكنه من رؤية أدق تفكك
العدو وخاضه . فقد كان من بين المهاجرين مع عمر رضى الله عنه شخص
يدعى عياش بن ربيعة . وحين عرفت قريش أنه وصل إلى المدينة . وصل
وراء كل من أبى جهل بن هشام والحارث بن هشام وكلنا من بين القادة .
وقالاً عياش بن ربيعة عد معنا إلى مكة فأمك أسميت بمسدة كبيرة من
جرا . ذهباك . فاقسمت بأنها لن تنشط شعرها . ولن تستظل بظل ذلك
لم تشاهدك . ووصل الأمر إلى عمر . فقال لعياش بن ربيعة إنها مؤامرة
نسهدف عودتك لا تطلق لكلاميها . فوالله لو قد أذى أمك القمصل
لامنتظت . ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت » .

(البداية والنهاية مجلد ٣)

إلا أن عياش بن ربيعة لم يفهم ذلك . وعاد إلى مكة . وهناك ابتلاه
الناس بالامتحان والعذاب والقتل .

هؤلاء هم للناس الذين بشروا بالأجر العظيم (الملائكة - ٥) (١)
والذين تتبدل سيئاتهم حسنات - (الفرقان - ٢٥) (٢) ، لعالمية أن
هذه الأخطاء يتعرض لها الجميع ، المؤمن وغير المؤمن إلا أن من وصل
إلى مقام العبودية حين تصدر عنه سيئة يتجه إلى الله بشدة تضاعف
ما كان عليه من قبل - وهكذا تصبح هذه السيئة التي ارتكبها سببا في
أن يستعيد حالة إيمانه بأشد مما كانت عليه - وعلى العكس من هذا
فمن يضل طريقه وسط ظلمات السيئات ، فإن سيئاتهم بدلا من أن
تطهرهم غذاء إيمانيا متجددا تضيف إلى قساوتهم .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا ماذا هم
يعصرون وإخوانهم يمدونهم في التي ثم لا يقصرون » .
(الأعراف ٢٠١ - ٢٠٢)

الصراط المستقيم الاجتماعي :

كما وصلتنا الصلاة وكما وصلتنا الصوم من طريق النبي فقد وصلتنا
منه أيضا كيف يمكن للحركة الإسلامية أن تضي على الطريق ، وكيف
يمكن أن ينتشر الإسلام في الدنيا ، وبعبارة أخرى فكما يوجد صراط
مستقيم للحياة الفردية يوجد أيضا صراط مستقيم للحياة الاجتماعية
فصلح الحديدية (١٢٦ م) هو من أهم أحداث الكفاح الاجتماعي
الإسلامي وتقول سورة (الفتح) عن هذا الصلح :

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » .

(الفتح - ٢٥)

١- يشير إلى قوله تعالى : « ومن أتى الله بغير سنة سيئة وبسبب له العار »
٢- يشير إلى قوله تعالى : « لا من قبله وأبى وصل حاله فيقول الله تعالى الله
بسمهم حسناته » .

وهذه الآية التي تتعلق بصلح الحديبية توضح أنه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات والأخلاق فهناك أيضا صراط مستقيم لأمر الملح والأمن والقتال .

فالشخص الذي يمشي على الصراط المستقيم وبعبارة أخرى الذي يمشي على مقام الإنسانية حيث تكون القرارات كلها قائمة على أساس السمع والبصر والفؤاد . وليس على أساس للعناد ورد الفعل . فهو ينال بصيرة خارقة . ويتخلص من جميع الدوافع العاطفية والجوانب الإضافية والذهنوية ويبدأ في إدراك جوهر الحقيقة مباشرة ، وطبقا لهذه الحقيقة فخطوته تكون صحيحة وقاطعة وإصابته تكون صحيحة لا تخطئ .

« اتقوا لرئاسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وفي الوقت الذي يذكر فيه القرآن الكريم أن المؤمن يقرب عشرة أمثاله . فإنه يحدد أن سبب الهزيمة هو أن هؤلاء رغم كثرة عددهم لا يفقهون شيئا .

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »
(الأنفال - ٦٥)

وصلح الحديبية مثال بارز على هذا الأمر ، فمن الواضح أن هذا الصلح تم تحت ضغط ، فالممثل القرشي لم يكن مستعدا لأن يوقع ألف وخمسمائة من الفدائيين المسلمين مثل هذا الصلح الذي كتبت مسودته في معظمها بناء على مطالب العدو ، إلا أن العقل الإنساني البصير الذي وهب القدرة على أن يميز بين الحقائق في شكلها النقي الصافي قد استشف أن هذه هي قضية « الفتح الجيد » (الفتح - ١) (١)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أيا فتننا الله » فتننا بهذا .

وهكذا فقد ذكر المراط المستقيم أو سبيل الله من أجل شئون الحياة جميعها ومن أجل قضايا الدنيا والآخرة ، وجميع الكائنات بمعنى على هذا المراط ، وهذا هو سبيل نجات الإنسان ووسيلة نجاهه ونوحيته . ومع هذا الفرق فإن للكائنات ملتزمة بالفضي على هذا المراط المستقيم طوعا وكرها (فصلت — ١١) (١) والإنسان يفضي عليه بإختياره .

وكما جدد القرآن خطوط المراط المستقيم الذي ينطلق عليه الفرد في رحلته الذاتية فقد أهتم أيضا بيفضاح المراط المستقيم في المعاملات الاجتماعية ، فمن ناحية قدم لنا أمثلة في شكل تجارب حياتية كبيان حكم صلح الحديدية : يقول تعالى : « ويهديك صراطا مستقيما » (الفتح — ٢) ، ومن ناحية أخرى يذكر القرآن الكريم بعض الأصول الأساسية التي تحيط بمعظم المعاملات العملية فإذا ما سما الإنسان بنفسه عن مقام الحيوانية ، ووصل إلى مقام الإنسانية فإنه لا يمكن أبدا أن يخطئ . في فهم الأسلوب أو السلوك الذي يجب أن يتبعه فيما يتعلق بأي أمر اجتماعي خلص يأخذ بيده إلى طريق النمر الإلهي والفتح .

١ — إن أول الأصول الأساسية فيما يتعلق بهذا الأمر هو عدم انتهاك أي إجراء أو عمل بتفكير سلبي ، يجب أن يفسح المرء هذه الأساس أمامه بطريقة إيجابية ، ثم يحاول بعد ذلك أن يخلق جميع خطته الاجتماعية طبقا لهذه الأهداف الإيجابية .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالنفس ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة — ٨)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض اانزلي ماء فتنبهن وهابا ليلتهما فزلزله » .

وإذا نظرت بعيني شاهدنا أن معظم ماضي القشل عبر التاريخ إنما كانت نتيجة لإلتداع على عمل بعد التآمر بالعداء والكراهية والبغض والعنصرية . ونحن نخضع فرد ما أو جماعة ما لقتل هذا النوع من المواقف وبعدها يرسم خطته العملية غير بالضرورة يعنى عى التمريق المبعوج . وعلى العكس من هذا فإذا ما وضع أمله الهداية الأساسية وسما بعقله الحيوانى ووصل إلى المستوى الإنسانى ، فلا يمكن حينذاك أن يروح ضحية للمواقف السلبية ، وهكذا يجب أن يضع خطته على أسس إيجابية ، فالخطط التي توضع على أسس إيجابية لا يمكن أن تفشل أبداً ، وقد تم إضاح هذه الأصول الأساسية للصراف المستقيم فيما يتعلق بالمعاملات الاجتماعية وذلك في نهاية ملحق ملح الحديبية :

« إذ جعل الذين كلروا في غيوبهم حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً » .

(المفتح - ٢٦)

إذاً كنت لدى الفريق الثانى حمية الجاهلية فعليماً أن نتعلمها ونضعك بقوة كلمة التقوى . وبعبارة أخرى لا يجب أن نتخذ أى قرار أبداً نتيجة رد فعل تحت أى تأثير نفسى . يكون نتيجة لتأثير سلوك العدو ، بله عليماً أن نقوم بالتخطيط لبرنامجنا الاجتماعى بنسبة إيجابيه في ضوء أهدافنا المستقلة وأصولنا المحددة ولن ننظر إلى المستقبل بدلاً من أن ننظر إلى الحاضر .

٢ - ومن أهم أصول الهداية الاجتماعية الأخرى اتباع سبيل الله (الأنعام - ١٥٣) (١) وقد ذكر القرآن الكريم الشجرة كمال على

(١) يشير الى قوله تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيماً فليجود ولا تفرقا السبل » .

هذا الأمر . فالشجرة تثبت جفورها أولا في الأرض . ثم ترتفع بعد ذلك رويداً رويداً ومن هنا فإن القوة الداخلية لها الأهمية الأولى في بناء الأمم . إذ لا يجب انتظار أي إجراء خارجي قبل تدعيم الجذور الأساسية . فالقرآن الكريم يقدم نصيحة القدره الإلهية التي ترشدنا إلى اتباع الأسلوب الذي تتبعه الشجرة فيما يتعلق ببناء الأمة !!

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

(إبراهيم ٢٤ - ٢٧)

تلتفتوا في الأمثلة التي يقوم عليها فريقان يتهاكم فريق آخر بأنهم تدل على أن هذا الفريق إنما غرس « شجرة طيبة » والحقيقة أن البناء الاجتماعي إذا ما وضع على أساس نظرية الشجرة الطيبة فمن المستحيل أن يتهم أي فريق في المجتمع فريقاً آخر بأنه أفسد شجرته .

٣ - وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت غزوة بدر وكان أمام المسلمين هدفان : الأول : قافلة قريش للتجارة التي كانت عائدة إلى مكة من الشام . وتضم ألف رجل محملة ببيضات قيمتها خمسون ألف دينار . والثاني : جيش قريش وقوامه نحو ألف جندي يتقدمون إلى المدينة . وكان من بينهم أبو جهل وكبار رؤساء قريش : فاستشار النبي ﷺ المسلمين . فرأى البعض منهم الاتجاه ناحية القافلة التجارية القادمة : وكان هذا هو الرأي الراجح قبل الفترة السابقة لذلك العهد ، فقد كان العرب الممولين لمدة سنة ونصف بعد الهجرة . هو الهجوم على القوافل التجارية لشركي مكة المتجهة إلى الشام . إذ أن الهجوم

عنها يقضى على القوة الاقتصادية العدو ، ويقوى الصلة المالية للمسلمين ، وبعد الهجرة بسنة حدثت غزوات صغيرة مثل الإبطاء ، والجواط والعشيرة وغيرها (١) مما تذكرها الأحاديث وكتب السيرة ، وكانت كلها من مثل هذا النوع . إلا أن النبي ﷺ رأى ومعه كيسار الصحابة مواجهة جيش قريش .

« وإذ يعدكم الله إحدى الملائكة أنها لكم وتودون أن غير ذلك الشئ تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع داير الكافرين »
(الأنفال - ٧)

فانقل الحيولاني لا يمكن أن يفهم أبداً أن أهل المدينة الذين كانوا في ميسس الحاجة إلى الرضاء الاقتصادي سوف يتركون القافلة التجارية التي لا تحرسها أية قوة ويخرجون لمواجهة جيش جرار ربما زاد عن ثلاثة أضعاف جيشهم ، وكان يمكن فقط للشخص الذي سما إلى مقدم الإنسانية أن يفهم كيف يكون لتعظيم قوة جيش كبير من نتائج عظيمة حتى أن قيل الرضاء الاقتصادي يمكن — بالمطلق البعيد — أن يتحقق من خلال هذا الأسلوب ، لا عن طريق ترك الجيش والاتجاه ناحية القافلة ، فالدرس الذي نستفيد من هذا هو ألا نربط التقدمنا (بالفوائد المأجلة) بل يجب أن نضع أنفسنا دوماً على الفوائد الثابتة التي تأتي من بعيد وتكون أصولها الأساسية قائمة على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وليس الحصول على مصالح دنيوية ، لأن الأهداف الدنيوية إنما تتحقق عاجلاً أو آجلاً بذاتها ، فما هي السرورة لجعلها هدفاً ؟

(١) في السنة الأولى الهجرة خرجت سرايا الجيش : والمزار : ورايح : وفي السنة الثانية خرجت سرايا مكة : وممبار : والبي ملك : وودان : والقواط : والعشيرة : وغير الأولى : ديار الكبرى : وبنو هلال : والسويق : والرايح : .

٤ - وهناك أصول لوضع العمل الاجتماعي على قاعدة (المصراة المستقيم) عن طريق استعمال القرص التي تأتي على وقتها ، وليس اتخاذ قرارات كبيرة على أساس تقديرات المستقبل ، وصحيفة الخشية التي ترسى ترسوف دعائها في نسبة الاولى للهجرة من مدل من اعداء العمل الاجتماعي فحين هاجر النبي ﷺ من مكة . وانه إلى نهاية كان به بالإضامة إلى المؤمنين جمعة كبيرة . من المشركين ويهود أيضا . ورغم أنه ثمر للمشركين واليهود أن تكون نهايتهم - ليم بعد - في الخيبة . إلا أنه في المرحلة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن يتبع معهم أقل درجات التوجه فأسدر صحيفة اشتراكها بوجودهم . وأعلن أن (ليهود دينهم وثمنين دينهم) عهد الاعتراف أدى عهد، إليه اليهود - أو بتعبير آخر المبادئة الإسلامية - كان يعد شيئا من « المرحلة الثانية » إلا أن رسول الله ﷺ استنفع بهذا الأمر في المرحلة الأولى . وحدث التفتيح فيها بعد على صدق هذه الكلية التاريخية . فالشخص الذي يقتنع في المرحلة الأولى بأن الأمر الثاني هو الأفضل سيفوز في النهاية بحسب المنيب الأول وعلى انعكاس من هذا ضمن يجري منذ اليوم الأول وراء الشيء الأول لكن يذلل وإن ينال ما هو أكثر منه أيضا .

مفسر

٥ - يجب تجنب مواجهة العدو في حالة وجود عملية ردع بشعة . ومنه إلى آخر حد ممكن فالبرنامج المستقبلي أمام المسلمين كان هو السيطرة بقدر الإمكان على الواقع الضيقية أدرجه أن الطريق الثاني كان يفضي إلى الخلاء الميدان بعد أن يضييق عليه ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قل :

(والجلهم إلى مضائق الطريق) (رواء الترمذي)

وهذه هي الحقيقة التي عبر عنها القرآن بقوله :

« أفلا يرون أننا نأثي الأرض لننقصها من أطرافها أنهم الغالبون »
(الأنبياء)

لهذه الآية تشبيه إلى أن الإسلام انتشر دوماً عن طريق عملية التبليغ نبي نتم في سميت . وهكذا أسلمت أهم الشخصيات في مكة ومكثت قبائل (غفار وهزينة وجبينة) وبغية أطراف مكة في الإسلام . كما أسلمت قبيلة المدينة (الأوس والخزرج) . وهكذا دخل مرضو الإسلام إلى حظيرة الإسلام تدريجياً . وأخذت تنتسج دائرة الإسلام . وتربياً يأتي الوقت الذي لا يكون فيه أمام أهل مكة من مخرج سوى أن يحاصروا من جميع الأطراف ليستلموا أسلحتهم ويستسلموا أمام الإسلام .

لقد مر الإسلام بعدد القود . على فئس من الضرورة الاستخدام السريع لها بل هي قوة لأرهاب أعداء الإسلام « فترهبون به عدو الله ومخوفكم » . ولهذا يقول نبي الإسلام :

(نصرت بالرعب مسيرة شهر) ويريد الرسول أن يقول : إنني أخبرت باللوب للعامل أقوم فيه بالاكتماء بالظهار القوة بدلاً من استعملها . ويتم النصر عن طريق مجرد الإرهاب والتخويف . وكان من نتيجة هذا الأسلوب أنه رغم قيام النبي بنحو ثمانين غزوة وسرية فإن الغزوات لمي حدث فيها قتال لم تتعد التسع غزوات فقط . أما الغزوات الأخرى فقد حصل فيها النصر على الأعداء بالإرهاب والتخويف .

ولقد أدى انتشار العلم والرقى الصناعي في العصر الحديث إلى وجود نمس جديدة لا حصر لها لهذا الأسلوب من العمل ، فقد غامت لياض بعد الحرب العالمية الثانية باستعمال طريقة كان من نتيجتها أن

ضاعت الحياة بالأمريكا في اليابان مما اضطرها إلى ترك اليابان ، بينما اليابان لم تستعمل أية قوة عسكرية أو سياسية ضد أمريكا .

٦ - والأصل الأخير بل الأهم في هذا الأمر هو الميل إلى الواقعية والتحقيقة ، ومعروف أن تفعل الحقيقة أمر مسعّب على النفس البشرية . إلا أن الله قد أرشدنا عن طريق رسوله ﷺ إلى أسلوب عملي من أجل الجهاد الاجتماعي .

وهنا لابد لنا أن نسأل : ما معنى الواقعية وتقبول الحقيقة ؟ .
معناه اللجوء إلى تحكيم العقل في اتخاذ الأمور بدلا من اتخاذها من جهة رد الفعل العاطفي . وإدراك الأسباب والعوامل الدقيقة بدلا من الانسداد وراء الرغبات والميول الظاهرية والفعل طبقا لها .

إن قبول الحقيقة يقتضي رسم خطط العمل بناء على الفرص البعيدة بدلا من الحصول على انتصارات فورية سريعة . ويجب وضع القوى الحاسمة كهدف يمكن بعد تحقيقه أن يصبح العدو ينزل تأثيره وبلا حول ولا قوة .

لا يمكن أن نجد كلمة أكثر تعبيرا من « الواقعية » (وحب الحقيقة) تصف بها المنهج الذي اتبعه عليه ﷺ الدعوة الإسلامية . كان أمامه في مكة ، بل في حرم مكة (٣٦٠ منما) (وفي بعض الروايات أكثر من هذا) . إلا أنه لم يجر أية عملية سريعة أو عنيفة لإخراجها من الكعبة ، ولكن على بيئة من (النوايا الاستعمارية) للعرب المصيطرين بها ، ومع هذا لم يصدر « أي بيان » ضدهم ، ولقد حاك أهل مكة المؤمرات للقتل . إلا أنه لم يتصرف كقائد (ثوري) فيقدم نفسه لهم ليروح شهيدا بل ترك مكة وخرج في سبيلهم ، وحين قدم وفد الانصار إلى مكة وتمت البيعة قال قائدهم :

« يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل منى عداً بأسلافنا » (تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ١٠٩)
 فقل له الرسول : (نحن لم نؤمر بهذا ، عودوا إلي دياركم) .
 وكانت خيبر بمنه دالمة مركزاً لإحاطة المؤمرات ضد النفس . إلا أنه
 لم يتخذ ضد أهل خيبر أي عمل عدواني مثل أن يستد مساعده مع أهل
 مكة حتى لا يشركوا مع أعدائه ويحاربوه . وانشاء صلح الحديبية من
 عادة قبش ثوره غارمه لفرجه أن جميع الصحابه غضبوا وشروا ما عدا
 « أبا بكر » إلا أن النبي ﷺ قام بمصير وتحمل إثباتات (خاصة الشريف)
 على معاهدة الصلح .

لقد أعطى القرآن الكريم أهمية كبرى لأسلوب العمل هذا الذي
 يتصف بالواقعية والحقيقة والمصير .

ولقد جاء في آخر سورة هود إرشاد للمسلمين بالألا يغرنهم النجاح
 المعارض لبعض الناس فيظنوا أن استوهم في العمل انقل من الأسلوب
 المقدم لهم فيسلكوا سبيل أولئك الناس . إن مثل هذا البلاء ابتلى به
 اليهود . فظهرت بينهم الفرقة . وهدوا عن الطريق المستقيم إلى
 طرق مموجة . فلا تعلموا هذا وإلا فاحشوا أن تمسكم النار فاحرموا
 من عون الله . وهذا هو الفلاح الحقيقي (١) .

أسس النصر وقواعده

وعد الله الإنسان الذي يخشى على المرامم المستقيم أن يملك
 النصر :

« ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »
 (الفتح - ٣)

(١) يهود اللؤلؤ قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك العزى بظلم » إلى قوله تعالى :
 « من قوله تعالى : « وانظروا إلى العاقبة »

ويقدر ما يكون النصر الإلهي مؤكدا. بقدر ما يكون هذا الأمر مؤكدا أيضا وهو أن احدا أن ينال نصر الله بدون حق . وهذه سنة الله ولا تبدل لسنة الله^(١) . (فاطر ٤٣) . لما إذا كان هناك إنسان وصل لخالة الاضطراب . فالتدبير بكنية الدعاء للينال للنصر تخطيطه في يكون قد بذل كل جهده البشري .

« ألين يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » .

(التعليل — ٦٢)

وكأنما شرط استحقاق الإنسان المضطر للنصر هو أن يشغل نفسه بكلمات الدعاء . فينال نصر الله : إلا أن الإنسان أو الجماعة التي لا تكون في مقام الاضطراب . فيلزمها بالإضافة إلى الدعاء . شرطان آخران : الأول : أن يعمل الإنسان وأن تعمل الجماعة طبقا لهذا الدعاء :

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

(فاطر — ٦٠)

ويستعين بهذا الدعاء الإنسان الذي يطلب النصر في أمر ما . فإذا ما دعا شخص ما أن يهبه الله معرفة السرار والحكم انفرآن فعلية أن يعمل بما يطلب هذا الدعاء . أي عليه أن يتدبر ويفكر في كتاب الله . وإذا ما قام شخص ما يطلب للنصر والتوفيق في أمور المعاش فعليه أن يبذل ما أمكنه من جهد على طريق تكسب والمعاش^(٢) . ولو طلب الانتصار والتوفيق ضد أعدائه فعليه أن يتعد مع إخوانه :

« واعتصموا بهبل الله جميعا ولا تفرقوا » . (الأنفال — ١٦)

(١) يقصد قوله تعالى : « من بعد لسنة الله تبليلا وأن بعد لسنة الله تعولا » .

(٢) يقصد قوله تعالى : « فاعلموا أنكم ستعبدون الله في الأرض » .

وإذا أريد المدعى بالنصر على أعداء الإسلام فإن الطريقة هي التمييز بينهم إلى الله . ومما هجتهم بشئى الطرق . نسلة الله هي ألا يملك جماعة ما دون أن يختبر سلوكهم انطلاقاً كاملاً (١) .
(الأنعام - ١٣١) .

والضرورة الثانية لإثبات استحقاق فضل الله هي الصبر أمام المعارضين . أى للصبر على أذلتهم (٢) . (إبراهيم - ١٢) . وهذا الصبر هو الجانب السلبى من العمل الإيجابى سابق الذكر . والهدف من هذا هو عدم انطاقة أى إجراء لفعلى ضد المعارضين . فبدلاً من الخضوع له نتفوق عليه . وبدلاً من تقديم الخدمات له نتحصل المصائب والمآعب التى يسببها . وبدلاً من أن نسأله ونقف على يده . نتبع طريق المقاومة الصامته .

وقد وعد الله بتحقيق النصر العظيم . إذا تحققت هذه الشروط . وحتى لو كان المسلمون عشرون فيسلبون من أهل الباطل مائتين « إن يكن منكم عشرون صابرون يطوبوا مائتين » . ويمكن أن نقل النسبة من هذا . كما أثبتت الأحداث والوقائع المتعددة فى التاريخ الإسلامى : إلا أن الأساس هنا هو أن الفرق بين الجماعتين هو فرق باعتبار الكمية وليس النوعية . فما لدى أهل الباطل إذا كان يساوى (مائتين) فيجب أن يساوى لدى أهل الحق (عشرون) من الشئ ذاته وليس من شئ آخر . أى أن أهل الباطل إن سلحوا بمائتين (بتدنية) فيجب أن يكون لدى المسلمين أيضاً عشرون بتدنية . وعلى العكس من هذا فإذا وجد لدى طرف مثلاً بتدنية ولدى طرف آخر عشرون سلباً ، فإن هذا الوعد لن يتحقق . لأن الفرق فى هذه الحالة لم يعد فى الكمية بل فى النوعية .

١ - سمع قوله تعالى : « ذلك أن لم يكن لك ضد سوى الله » .

٢ - سمع قوله تعالى : « وللمؤمنين من الله ما لم يعلموا » .

وهكذا فإذا كان لدى المسلمين علم تاريخي أدبي . ولدى أهل الباطل علم تمنى فني أو إذا كان المسلمون مسلحين بالعاطفة بينما يحمل أهل الباطل خرائن العقل والفكر (١) . وإذا كان لدى المسلمين جهل بالتاريخ وأطلع أهل الباطل على التاريخ والموا بدلالاته وإذا كان لدى المسلمون ثروة من الاختلافات بينما أهل الباطل متحدون متكاتفون . وإذا كان لدى المسلمين نوعي والاضطراب . وتمتع أهل الباطل بالتخطيط . وإذا امتلك أهل الإسلام للقوى القديمة كلها بينما امتلك أهل الباطل القوى الجديدة . فلا يجب حينئذ أن يتوقع المسلمون استحقاق النصر من الله عدد أحداثهم . لأنه في الحالات السابقة جميعها فإن الفرق (فرق نوعي) (٢) . وإذا ما وجد الفرق النوعي ، قلن ينزل أي نصر من الله على أي عدد مهما كان : وهكذا نعلم المسلمون أن يقتضوا على هذا (الفرق النوعي) أن وجد . حتى يرتفعوا على مستوى الفرق الكمي ، ويعددها يستحقون النصر الإلهي ، فالتشأن حين يثبت على الصراط المستقيم أن ينال نصر الله ، وليس معنى هذا أنه إن يصاب بأي ضرر . فلا شك أنه أثناء الكفاح والجهاد سيتعرض لاتواع من المصائب والمقاعب . ويتعرض لمزيدة مؤثمة تماماً مثله مثل الفرق التالي : إلا أن النصر النهائي سيكون مع ذلك الفريق الذي تصك بصراط الله المستقيم وظل قسماً عليه لا يحيد عنه !

لقد تعرض المسلمون عبر التاريخ الإسلامي إلى العديد من الأضرار والمصائب . وقال المسلمون هزيمة ثبيلة في غزوة أحد (شوال سنة ٥ هـ) نظراً لتصرفهم المنحرف ضد الأوامر النبوية العسكرية . وفي

(١) هذه مقارنة مختارة من المؤلفات فستحل القضية بها (المراجع) .

(٢) أصبح مصعباً قراباً حول مصعب (الفرق النوعي) حتى يخلصه التاريخي التزميم .

مير امر مصعب في محبة سنة الله (المراجع) .

اغزوة حنين (سنة ٨ هـ) لم يكن نظام المسلمين في التجسس قد اكتمل بعد ، فحين نزل الجيش الإسلامي إلى الوادي علم العدو الذي كان يهضى حلف الجبلين بأخطار جيش المسلمين بوابل من السهام . ولم يكن أمامهم من سبيل للنجاة .

وفي حصار الطائف (ذي القعدة ٨ هـ) اضطر المسلمون إلى شكة والعودة منه بعد أن أصيبوا بطائرات ضخمة لمدة ثلاثة أسابيع .

وفي مؤنة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) وهي الغزوة التي استشهد فيها سبعمائة من بين ثلاثة آلاف مسلم . ورأى القائد العسكري المسلم خلد بن الوليد أن يعود إلى المدينة وينجو ببنيه الجيش ... في تلك الغزوات . لا يمكن تقدير الأمر على أنه كان في نوعية استعدادات العدو ... بل هو لبعض اختلالات من الله !! .

وقد آمن الناس — طبقاً لوعده القرآن الكريم أن هذه العزائم هزائم وقتية يتعرض لها الجهاد الإنساني وهالأهم اعتقاد عظيم عام ساد بين المسلمين فحواه أن ما يصيب البعض منهم ليس طسورة ، لأن من يستشهد يذهب إلى الجنة بعد استشهاد . وتفصيله هذه تطلى للأحياء منهم حق النصر الإلهي . الذي يفتح لهم باباً جديداً من الانتصار .

وفي أيام خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه حين ذهب ربيع بن عامر إلى بلاط رستم وعرض عليه الإسلام قال لرستم : لنا سسوف نجاهد حتى نقاتل وعد الله ، فقال له رستم : ما هو وعد الله ؟ أجاب ربيع بن عامر : « الجنة لمن مات على قتال من أبيي والظفر لمن بقي » .
(البداية والنهاية)

ولا شك أن معيار العزم والنداء الذى أظهره أصحاب رسول الله ،
لو ظهر في جماعة أخرى ، فإن نصر الله يصبح يقيناً ومؤكداً ... قصة
الله تحكم الجميع .

لقد كن هؤلاء الذين نصرنا الإسلام هم الرجال الذين رأوا وهم
ببإيمان رسول الله أن معنى وخبرهم يدعم في يد الإسلام (يعلمهم)
إنما يعنى أداء فرائض وصلىوات هذه البيعة إلى آخر مدى . حتى
لو اضربوا إلى التنازع تمام على هذا الطريق . فليجبه معنى بالنسبة
لهم الموت .

فكان معنى الطاعة في داخلهم يعنى استعدادهم النورى لتبليغ
ما يطلب منهم .

من ألقى عليه الشكوى رضى الله عنه قال : كان الناس إذا نزلوا
تفرقوا في الشعب والأودية ، فقل رسول الله ﷺ : إن تفرقكم في
الشعب والأودية إنما ذلكم من الشيطان فلم يفرقوا بعد ذلك منزلاً
إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لوسمهم .

وحين دخل كل شعب إلى الإسلام لم يكن يبق لخط نفسه شيئاً فخط
الإسلام هو الخط الذى لا خط لسواه ::

وحين سأل النبي ﷺ الناس رأيهم قبل غزوة بدر قاله سعد بن
معاذ الذى كان يمثل الانصار : يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت
وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كن أحب إلينا مما تركت .

إن هؤلاء هم الناس الذين حرروا أنفسهم وخلصوها من جميع أنواع
العقد النفسية ، ومن جميع التخلفات ثم دخلوا دين الله . ومثل هؤلاء
الناس إذا اجتمع منهم عدة مثلت : أمكتهم أن يحركوا التاريخ الإسلامى
حركة لا ينتهى تأثيرها إلا إذا انتهى — في عالم العقول والنفوس —
ذلك المنهج الذى كانوا قد تعلموا على هديه بحركتهم !!

منهج الدعوة إلى الإسلام

يقول عز وجل في محكم آياته :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الشورى - ١٣)

وعندما لم تقل الآية القرآنية (أقيموا الدين وانصوا على الباطل) بل جاء فيها « أقيموا الدين ولا تتفرقوا » هذا فيما يتعلق بإقامة الدين . فالهالة التي جاء فيها الأمر بالإيجاب والحالة التي جاز فيها الأمر بالنهي والنهي هنا - طبقاً - ورد في الآية الكريمة - حالتان تتعلقان بالدين ذاته . وقد جاء الأمر بتوكيد حالة واتباع أخرى وكل الأمر الذي جاء في الآية لم يكن إقامة الدين في مواجهة إقامة الباطل بل جاء الأمر بإقامة الدين في مواجهة التفريق في الدين .

لقد كتب المنسرون أن المقصود بالدين في هذه الآية هو الدين الأساسي . لأن الدين الأساسي كان واحداً بين جميع الأنبياء . وفيه يمكن أن تكون التسمية المشتركة للجميع ؛ أما الشريعة المنفصلة فيوجد فيها اختلاف طبعاً لتسروح القرآن الكريم « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » ، ومن هنا فلا يمكن اتباع جميع الأنبياء في وقت واحد فيما يتعلق بالشريعة المنفصلة ؛ ولم يكن الفرق الموجود بين الأنبياء بالنسبة للشريعة المنفصلة قائماً على أساس أي تطور تشريعي بل كان قائماً على أساس الفرق بين الظروف والمراسد الدعوة . وهذا الفرق موجود الآن أيضاً بين مختلف الفرق الإسلامية وسوف يظل على الدوام ؛ ويمكن أن نعبر عن هذا الأمر بعبارة أخرى

وعلى أن الدين ينقسم إلى قسمين : قسم مطلوب بحالة واحدة على الدوام . وآخر يكون ظاهراً للظروف . والأول يتعلق بالتصليح الأساسية وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم « الشورى » . والقسم الثاني السريع أو المتناهي أي القوانين الفرعية وأسلوب العمل . وانقسم الآن عبر عنه القرآن بكلمة « سبيل » . والقسم الثاني من الدين ذكر باسم « سبيل » . ولهذا فالقسم الأول يظل دائماً على الدوام وهدى ويظل معمولاً به لجميع الأزمنة وسيظل السبيل الواحد . وعلى العكس من هذا فإن القسم الثاني من الدين يتعلق بالظروف . ويمكن أن يكون فيه احتمال أكثر من شكل واحد . والحكم هو : أقيموا الدين . دعوة الدين . ولا تقيموا سبلاً متفرقة . اتسفلوا بأهانة الدين المتفق عليه . ولا تلتفتوا وراء الدين المختلف فيه فتتفرقوا .

ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين في عدة مواضع فيقول :

« إن الله قد حدد لكم صراطاً أو سبيلاً فامضوا عليه ولا تتبعوا سبلاً أخرى متفرقة . وإلا ضللتكم وابتعدتم عن الصراط المستقيم . »
وعبر القرآن الكريم عن هذا السبيل بأنه الدين القيم ^(١) . سبيل الله ^(٢) سواء السبيل ^(٣) الصراط المستقيم ^(٤) وغيرها . وفي سورة الأنعام وبعد تقديم بعض الأهتمام الأساسية ، يقول تعالى :

« وأن هذا صراطي مستقيماً فلتيموه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فاكم وصلكم به لعلكم تتقون » (الأنعام - ١٥٣)
وايس المقصود بالسبيل في تلك الآية طرق الفكر والشرع بل تلك السبل التي تخرج في الدين باسم الدين : (قال مجاهد : السبل البدع - القرطبي) .

(١) القيمة .

(٢) قول حمزة .

(٣) المستقيمة .

(٤) الصراط .

نما يريد الله تبارك وتعالى من عباده جاء ذكره بوضوح في القرآن الكريم . أما كيف يتم تطبيق التعليلات القرآنية بمسوره عملية في الحياة فهذا موجود في حياة الرسول وأصحابه . فيجب على الإنسان ان يقوم على الدين الثابت من ناحية العقيدة والمثل الذي منح عن رسول الله . . . ثم اسقاط الآراء والأهواء على الدين فهذا أمر لا يقبل اسلامياً بلا خلاف بين المسلمين الفقهاء بدينهم . . . وهو من الضلال والتفريق على سبيل مفتقة . وشأنه أن يبعد الإنسان عن الصراط الإلهي الأساسي : فالإنسان نفسه يعتقد أنه يعيش على هدى الدين بينما هو لا علاقة له بالدين الإلهي الأساسي .

الفرق بين الدين والشريعة

ما الدين ؟

الدين هو التوحيد وجوهده عتراف المخلوق بحالقه ومالكه . وجعله محوراً لجميع اهتماماته فهو كل شيء بالنسبة له . يسلم له نفسه . ويخضع له هذا هو اصل الدين . فمن ملكه ملك كل شيء . ومن أضاعه أضاع كل شيء . . وعندما يصبح دين الإنسان الحمينى فلا يبقى للإنسان أى شيء حتى ولو زعم بشكل تمهيلي أو بأسلوب جدلى أنه متدين . والأمر الذي جاء في القرآن الكريم باقامة الدين يتعلق بذلك الدين . وما جاء في بعض سور القرآن عن هدف إقامة الدين إنما يعنى في الأصل إقامة التوحيد أى أن يلجأ العبد الى الله وحده لجوءاً حقيقياً . وأن يعبد وحده لا يشرك به أحداً فيعبده بالتالى — حق عبادته ، فإذا قامت جماعة ما بانارة نزاع فتوى حول جزئيات العبادة أو المسائل المختلف عليها . أو راحت تقيم جهة سياسية تخدم المجموعة الحاكمة حتى ولو كانت معادية للإسلام باسم إتسامه الدين فهذا لا يعنى قيدا « إقامة الدين » بل هو — بالمباراة القرآنية —

(أصبح نسب التفرقة) وهو أمر ممنوع تماماً في الدين وإن التفرقة المعارك حول الأمور الثانوية أو القضايا المختلف فيها إنما يقضى على وحدة الأمة علامة حين تنفرق إلى فرق مختلفة فهي تحرم من نصر الله الاجتماعي . وإقامة الدين إنما هو اسم للجهاد من أجل القضية (المتفق عليها) وهي قضية عبادة الله حق عبادته . وليس إثارة جدل ونزاع بين المسلمين في المسائل المختلف فيها .

فإذا كان المراد أصلاً من الدين التوحيد فسوف يضم بداخله دوماً جميع المسائل المتفق عليها في القرآن والسنة والتي لا تعتمد وجود آراء أخرى .

وعلى سبيل المثال بين قضايا (وجود الله) ووحيدانيته . ودميره إلى ربوبيته بين الناس ... مثل هذه الأمور ليس فيها اختلاف بين الأمة . لأن هذه العقائد ثابتة يحكم الآيات والأحاديث . وعلى العكس من هذا فإذا ما أخرجت لطلبه الصراع أبحاث مثل : هل هو جسم أم لا ، أين هو الله ؟ ، هل الله قادر على خلق نظيره أم لا ؟ (١) وغيرها من الأمور التي لا يمكن أن نتفق فيها الأمة كلها على رأي واحد ؛ لأن جميع هذه الأمور أمور استنباطية والخوض فيها يجعل البعض يأخذ اتجاه ما يظن أنه لا استنباطي شخص آخر بينما يأخذ البعض الآخر اتجاه آخر . وهكذا تظهر نتائج مختلفة ؛ وتتجمع حول كل (نتيجة) جماعة من المؤمنين بها ؛ لدرجة أن يتحول الدين الواحد إلى عدة أديان .

وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال المعتقدات (المتفق عليها) سابقة الذكر ، إنما هو وحده (الإقامة للدين) وعلى العكس من هذا فالقسم الثاني (أي المعتقدات الجدلية) سوف يوجد شقاقات ونسوخاً

(١) انظر صريح السليبي في تاريخهم وله يقولون طائفة لا الإسلام في هذا . مصادر السيرة
طائفة لهم . وهو رسول الله من الشمال بها (التراجع) .

كثيرة في المنتديات . وهو ما يسمى بالمصطلح القرآني « التفریق في الدين » والتي، الأول مطلوب والتي، الثاني غير مطلوب .

هذا هو أسلوب معاملة تلك الأمور التي يدل لها عبادات . فمثلا : الموضوع من أجل الصلاة مسألة متفق عليها . إلا أن الآراء المتعلقة بعدد أركان الوضوء وشروطه آراء كثيرة : وبصرف النظر عن عدد السنن والمستحبات هناك اختلاف في الرأي بين الفقهاء فيما يتعلق بفرائض الوضوء . عند الخلفية فرائض لموضوع أربعة وهذا الملكية سبعة وعند الشافعية والحنابلة ستة (١) . فإذا ما جعل تحديد تعداد هذه المسائل المختلف فيها موضوعا للبحث والمباحثة فلا يمكن أن تتفق الآراء فيها يتعلق بعدد . وهذا سيكون سببا في ظهور الاختلافات والفرقة . وسوف يقسم الأمة انولحدة إلى عدة أعم ولهذا صدر الحكم في جعل مدار الدعوة غالبا على الأمور المتفق عليها : وعدم جعل مدار الدعوة من الأمور المختلف عليها .

هذه المعاملة هي السياسة الإسلامية . فإذا قلّم شخص فدعا الله أن يصلح الحكم . ولتلقى بهم لقاء فرديا ونصحهم أن يعبدوا الله ويتعظوا بالآخرة . ثم أوضح جوانب السياسة الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح متزن . فلن يكون هناك أي تفریق أو اشاعة للفتن بين رجال الأمة . وعلى العكس من ذلك : إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاجات والمذابح وتكونوا جبهة سياسية وقلعوا بحركة تهدف إلى تنحية الحكم عن السلطة . فإن النتيجة الواجبة هي أن تصبح الأمة جماعت مفترقة . إذ تنحاز فرقة إلى الحكم بينما هناك فرقة أخرى ستعمل على تنحية الحكم عن السلطة : وهكذا تنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب إحداهما الأخرى . وهكذا يظهر التفریق في الدين باسم إسلامة الدين .

(١) راجع الفتاوى على المذاهب الأربعة .

أما فيما يتعلق بأداب اللغو، وتوابعه فهذه مسألة استنباطية ، وهذا هو السبب في وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم وذلك بالنسبة لتحديد ، وهذه الحالة هي حالة الرسالة السياسية للأمة الإسلامية . وهي كلها أيضاً معاملة استنباطية ، لأنه لا يوجد في القرآن والحديث نص يحدد صراحة نوعية المهمة السياسية وكانت النتيجة ظهور عدد آراء متعددة لدى أهل العلم في هذا الباب . وقرئ جماعة من جماعات وقتنا الحاضر - بإصرار - أن الهدف الأساسي للأمة المسلمة هو الجهاد لتأسيس حكومة إسلامية ، بينما يرى آخرون أن الحكومة أمر وعند الله المسلمين به أي أنها منحة من عند الله وليست هدفاً يبدل من أجله الكفاح والجهاد (١) . وقرئ جماعة ثالثة أن أساس العمل هو إصلاح المجتمع وليس إصلاح الحكومة . فلذا ما أصلح المجتمع ظهرت تلقائياً الحكومة السليمة . وبالإضافة إلى هذه الاختلافات النظرية يوجد أسلوب يظم أموراً عليه حسنة جداً بالنسبة للحكومة وذلك حين يتم محاولة تنحية جماعة تسيطر على الحكم وسلبها الحكم . فهي بالضرورة ستستخدم قوتها ضد معارضيها السياسيين . ونتيجة لذلك سيحدث صفك للدماء بين المسلمين . ونتج عن محاولة « إقامة الدين » « تفرق في الدين » وهكذا تكون نتيجة إقامة الدين (التفرق في الدين) وغلاك الأمر يتعلق بالشريعة أيضاً إذ يحتمل وجود أكثر من وجهة نظر واحدة تتعلق بأمر واحد من أمور الشريعة . وتكون نتيجة محاولة تحصيل الناس تحت رؤية واحدة ظهور العديد من الرايات ، ولهذا صخر الحكم دائماً بالانحلال الأمور الاختلافية أساساً للحركة الإسلامية بل يجب أن تقوم حركتنا على أساس الأمور المتفق عليها فقط .

١٠٠ يقصد المؤلف أن الله سبحانه علماً ملكه الحسبون مؤلفه الفداء ، والجهاد في

الدين ويقتضون في مستوى الخلافة (المراجع) .

ونتيجة لهذه الأسباب تحول نظام الخلافة إلى نظام ملكي في العصور الأولى . وظلت على هذا الحال لمدة ألف عام إلا أن مسكني الأمة الصالحين لم يخرجوا على هذا النظام . فقد قاموا بتقديم نموذج فردية للحكام إلا أنهم لم يقوموا بحركته انقلاب لتقويضهم عن أسلته . فهذا فقط هو دين الحركات المنظمة في العصر الحاضر . إذ ظهر بين المسلمين بعض الناس يتولون بأن الثورة السياسية هي أصل همه الأمة الإسلامية . وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون في هذا بلد مسلم منقسمين إلى جبهتين : جبهة الحكام وجبهة المعارضين الثوار . وتطور دهي الحرب السياسية بطريقة لا نهائية بين مجموعتي المسلمين . ولا تقدم لهم من عديده سوى هلاك البشر على المستوى الإسلامي العنم ؛ وكل ما يحدث - الأسف - يحدث باسم « إقامة الدين » . وفيما يتعلق بنوعية المهمة السياسية توجد آراء عدة بين علماء الأمة ؛ وهذا دليل على أن قضية الحركات السياسية هي قضية فرعية « للسبل المفرقة » وليست مسألة فرعية (الدين) ولهذا فيحق للمصلح أن يقوم بإصلاح حال الحكام المسلمين بالنصيحة إذا ما ساعد عليهم اعوجاجاً . إلا أن إصدار السياسى مع الحكام باسم إقامة الدين يعنى الانحراف عن كتاب الله وهو اتباع للسبل المنقرفة وليس إقامة الدين في حقيقة الأمر .

وليس معنى هذا التقسيم أن المطلوب من الدين هو الكليات فقط وأن الجزئيات ليست مطلوبة فالهدف فقط هو ملاحظة الفرق بين المطلوب الحقيقي والمطلوب الإضافى . واتباع أسلوب التسامح في الأجزاء الإضافية مع التشديد على الأجزاء الحقيقية . ويمكن أن نلهم هذا من خلال مثل محدد . فهناك قضية تتعلق بالطعام . ما هو الفرق بين الحرام والحلال . لماؤمن يجعل من الحلال غذاء له ولا يدخل إلى حلقه

أى طعام حرام . والتفضية الثانية هي مسألة آداب الطعام . فمثلاً هل يتناول الطعام بيده أو بالعلقة ؟ هل يتناول الطعام جالساً على الأرض أو يقبله جالساً على الكرسي إلى النضدة ؟ هل يتناول الطعام منتعلاً هذاه أو طالعاً إياه ؟ إلى غير ذلك : فالمسألة الأولى تدخل في كليات الدين فلنذكر بسم الله يوضح بطريقة محددة ما هو الحلال وما هو المحرام بالنسبة للعباد . ولكن بالنسبة للأمر الثاني فلا يوجد بالنسبة له أى تحديدات فهناك أكثر من نموذج لى سيرة النبي ﷺ وفى حياة الصحابة الكرام . ففى مثل هذه الحالة إذا ما قام رجل بالتشدد فى مسألة لحلال والمحرام المنصوص عليها : وجدل منها هديناً يركز عليه . فلن تنقسم الأمة لأن للتأكيد والتشدد هنا إما يكون على نفس الأمور التى يتعلق عليها علماء الأمة ولا توجد فيها أى خلاف فيما يتعلق بالآراء المختلفة . وعلى التمكن من هذا لو تم التشديد على قضايا آداب انطباعهم فلن يكون هناك أى اتحد فى الرأى على أى مسلك تتقوجه الأمة كلها . وعلى سبيل المثال سيقول البعض أن هذه ليست مسألة انعدام شرعية لأمر جائز بل هي مسألة يمكن فيها اتباع الأمر الحسن . لأن الحديث يقول : « اخلعوا نملكم فانها أروح لافداكم » ومن هنا فان النهج الصحيح هو « كلوا من الأشياء واعطوا صلها » (١) وعليه يتم التشديد والتأكيد ولكن يجب اتباع التسامح فى الأشياء المتعلقة بنوعية آداب الطعام .

وحركة « أهل الحديث » هي فى شكلها الأولى والاساسى كانت خاصة بهذا الفهم المتسك بنجزيات . ومع أنها لم تقدر على البدء على هذا المسلك . إلا أنها كانت — على الأقل — هي الحركة التى انتشرت على مستوى العامة بهذا الفهم !!

الدين الكامل كيف يتحقق ؟

إن الصراع الذي يدور بين مختلف البلدان بين حملى لواء الثورة الإسلامية الشاملة « . وبين « حملة الدين المرحلى » هو فى الحقيقة قائم على أساس - لهم الخطأ - « للدين الشامل » فالتاس يرون أن الإسلام دين يعالج على أساس القوانين الحضارية . ومن هنا فإن إقامة الدين تستلزم لقائه كنظام حضارى كامل ، فإذا كان معنى الدين الشامل هو هذا ، فإنه يعنى أن دين إبراهيم عليه السلام كان ديناً ناقصاً ، فمن المعروف أنه لم يقدم جميع القوانين والضوابط الحضارية ؛ وهكذا الأمر بالنسبة لمعلم الأنبياء بيتما تمس القرآن الكريم صراحة بقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وهيمس أن اتبعوا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١)

فالأصل أن الدين إنما جعل ، ليكون الإنسان موحداً بجميع المحتاق . وكما الدين هو فى الأصل كماله للتوحيد . فالإنسان بقدر ما يعبد ربه بقدر ما يجعل من دينه ديناً كاملاً ، وبقدر ما يقضى ربه بقدر ما يكون دينه ديناً ناقصاً . ومما كذبت من مواد قانونية لأن تستكمل هذه المواد معنى « الدين » وعلى سبيل المثال فإذا أُنجزت جميع الأحكام المتعلقة بعالم القرن السابع الميلادى فى القرآن الكريم . فسقطت هناك أمور قانونية كثيرة لم تستكمل مثل القوانين البحرية والقوانين الخاصة بالقضاء وغيرها ، وذلك لأن هذه القضايا لم يكن لها وجود فى ذلك الزمان .

والتحقيقه ان الذين الكول ان احد على هو انسى بان الإسلام
لا يبدو ايضا ديناً كاملاً .

الأمير همداني (نموذج للمسلم المثالي)

كتاب مثال على المنهج الاسلامي سابق اذكر . نجده في تاريخ
خسبر . وخسبر منطقة مشهورة بجمال طبيعتها ، إلا ان عليها ما هو
اجم واعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الاسلامي الذي
نجده في حياة الأمير سيد علي همداني (١٣١٤ - ١٣٥٤ م) وقد
اشتهر في كنعين باسم « الأمير كبير » وقد ترك بصيرته نموذجاً قابلاً
بالاعتداء قل ان نجد له مثلاً في القرون الحالية . فخصبر هي كالجنة
بخصبته الطلابة وهي (بامر كبير) قدمت منها للديرة الاسلامية .
وهذا المنهج اعظم ذخيراً من جناتها . وقد قال محمد اقبال (١٨٧٧ -
١٩٣٨ م) عن الأمير همداني :

« إن في يده منهج بناء الأمم » .

وهذا انراى صحيح مائة بالمئة . فكشعر المسلمه اليوم انما هي
سيرة جهاد . الذي لم يتبع فيه أسلوب « السيف والرمح » او
« تضاد مع الزمان » بل اتبع فيه أسلوب الهداية الحبية لدى معظم
قادة المسلمين في الوقت الحاضر . لقد حقق الأمير همداني النجاح
والاملاح بعد أن ترك « السيف والرمح » وكان اعظم درس قدّمه
في حياته هو قوله : « ان اردتم بناء الاسلام حياً فادعوا إلى الأبد
عمره انصارع والنهز . وتجنبوا تملأ بثرة الصراعات المذهبية
والسياسية : وبعد ما يقتلون نصر الله وتوقيته . وسيحقق الاسلام
الغزة والرفعة ويغز الله المسلمين بإسلامهم » .

كان (الأمير سيد علي همداني) - من سكان ايران - ماضراً
لتيمورلنك (١٣٣٥ - ١٤٠٥ م) وقد خطب عليه شاه تيمور لسبب

٣٠ ، واستمر هجما يسميه من إيران ، ولم يكن إيلام الأمير همداني من سبيل إلا إعلان انجلاء نجم نيمورونك والعمل على إنهاء حكمه مباشرة في إيران . حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد . ولكنه (أمير كبير) لم يمتد به في سطوة — عن التسليم السياسي ، بل اضطر رفاق الأرميين وخرج من وطنه (همدان) ، ووصل بهذه القبيلة إلى كشمير سنة ٧٨٦ هـ مارا بأفغانستان . وكان قد زار كشمير للسياسة من قبل في سنة ٧٦٢ هـ .

ووصل إلى كشمير نواته فرمة لإعلان حركة سياسية تحالفت للشاه نيمور ، وكان هناك أناس في زمان نيمور يكرهونه لأسباب سياسية . كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفا للشاه على السلطة النيمورية . إلا أنه تجنب لأقصى حد أي نوع من هذا العمل ؛ وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القبيلة ؛ وكانت هناك قبيلة تتولى بحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمي ذلك الوقت . ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أن مسلمي كشمير كانوا يمثلون أقلية نادرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع ثلث المبادئ الهندوكية ؛ وكان يمكن للأمير همداني أن يتوحد حركة الزعامة التي تهدف إلى المطالبة بحقوقهم . ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية !!

وهكذا اتجه (همداني) إلى الطريق الذي ارتضاه وهو أن يبلغ رسلته باسم « الإنسانية » وأن يقدم عنائته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة ؛ وتمكن بسرعة كبيرة من أن يبال مكانة محبة لدى الفريقين المتصارعين في كشمير ، لأن الفريقين أعجبوا به ، فقد راح يعمل على إيجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل ؛ وبطريقة لا يشعر فيها أي من الفريقين أنه خاضع لضغط ما .

وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب همداني والأسلوب الثوري السياسي - إن النوع الثوري من التحركات مهما بدأ تنجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب (والشعارات) فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل . بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب لم يست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية . وهو أسلوب من المعدل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه الناس إلى قضايا الآخرة .

وبرنامج « همداني » لم يكن قائماً على عملية رد فعل مضاد للنظام تيمور أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتية لمسلمي كتسحير الذهن كان يحكمهم في ذلك الوقت حكم مسلم هو (سلطان قلم الدين) وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات البائدة ويرتكب الكثير من الأعمال السيئة . لكن همداني أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والإرشاد واهتمت بضرورة إصلاح الأحوال . وهكذا لم يؤسس همداني حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن الحكم ووضع حكم صالح مكانه ، بل ارتفع « همداني » فوق هذه العواجل ولقاهم ببرنامجه الإصلاحى على أساس فكر ثابت . ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق (!!) فقد كان برنامجاً عاماً . لقد انتشر هو ومن معه من أخوانه في نواحي منطقة كتسحير وبدلوا بيلغون الإسلام لأهالى هذه المناطق، تعلموا لغة الكتسحيريين وتأنلوا مع ظروف المنطقة ، وتعلموا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم .

وهكذا عاش (أمير كبير) حياة المسير والتحمل . وقام بحركته الإصلاحية في صمت وهدوء .

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بدأ على يد محمد بن القاسم الحنظلي (٩٦ - ٩٦ هـ) فإن انتشار الإسلام بدأ بصورة واضحة في كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني) ، وقيل سبعة عشر سنة كانت كشمير إمارة خاضعة للأمير بودي يدعي (رنيجن شاه) وقد أسلم هذا الأمير البرودي على يد سيد بلبل شاه ، ولما كان الناس - في ذلك الزمان (١) - على دين ملوكهم ، أسلم عدد من الكشميريين ، وكان بلبل شاه تبعاً للمذهب الحنظلي . وهكذا اتبع المسلمون الكشميريون آنذاك المذهب الحنظلي في عبادتهم . وحتى قدم (الأمير سيد علي همداني) إلى كشمير وبدأ الناس يسلمون على يديه ظهرت مسألة خلافية تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم ، فقد كان (همداني) نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمو كشمير على مذهب أبي حنيفة !! فإذا ما قام (أمير كبير) بتعيين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التي أساءت على يده ثم بقية مسلمي كشمير ، فقد كان الخلاف بين الحنفي والشافعي يتعدى انقسام مدارسهما ومسجداتهن إلى أصل عملية التبليغ . في محاولة كل منهما إثبات صحة ونفسية مذهبه الفقهي . فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين متصارعتين ، بدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فتضيق فيما بينهم تلك السوء التي كان يجب أن تبدل في سبيل نشر كلمة « الحق » وتتمشي الأجيال ويستمر الاختلاف الذي لا ينتهي أبداً .

(١) ولانوار : المراجع ، ص ١٠

ولهذا نعلم (الأمير سيد علي محمداني) بفتح نسي الذين همذ .
ولم يثر أبدا أي بحث يتعلق بالمذاهب النقيية . ولقد احتاط حتى إنه
أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعي وكان يمشي مع أتباعه جميعا
بالطريقة الحنبلية . وكان يسمح زملاءه بأداء العبادات طبقا للمذهب
الحنفلي . وكانت النتيجة أنه وجد لمرءا مناسبة ليؤدي - دون نزاعات
جانبية - رسالته في كشمير : ففاز بتعاون جميع الطبقات . ولك في
أمن . بعيدا عن الدخول في منازعات الفسيفساء الفرعية . وقد نجح في
نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم
أغلبية مسلمة حتى الآن . ولو قلنا (أمير كبير) بأثرة جدل حول المذهب
الحنفلي والمذهب الشافعي لما حالله النجاح في تلك المنطقة . ولو حقق
بعض النجاح فيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين
متصارخين .

وليس معنى هذا أن الناس الذين يمشون على هذا الطريق
لا ينشأ بينهم اختلاف . وأحوال « أمير كبير » نفسه تدل على هذا .
فحين كان في الثالثة والستين تقدم له بعض الأشرار من منطقة
(بكيلي) (بتشمير) السم فكانت وقته إلا أن هذا النوع من الاختلاف
لما يكون نتيجة لأسباب شخصية . تهدف إلى الاضرار الشخصي
بالداعية فقط : بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير
دينية إلى مسألة دينية يعد جرما كبيرا : إذ يسلب الجماعة المسلحة
جميع النعم التي قدرها الله لها كجماعة تعمل كنبه وتستمسك بمبادئه
المستقيم .

وحياة (أمير كبير) إنما هي مثال على نجاح تماما لأسلوب
العمل الإسلامي . فالشيء الذي ركز عليه في كتابه وشامله من أجل
الدعوة كان قضية (التوحيد والآخره) . ولم يثر على الإطلاق أية

قضايا أخرى كالتطابق السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية عند كان يركز أساساً على أصل الدين . وليس على فروع الدين . وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور خارجة عن الدين ، أو أنه كان يعدّها أموراً غير ضرورية من ناحية الأدب والمناصب . فقد كان يعرف أهمية كل منها ، واتبع كل شيء اتباعاً عالياً إلا أن الشيء الذي ركز عليه كأساس لميله هو الدين المتفق عليه وليس « السبل المتفرقة » !!

كان « أمير كبير » يصلّي مراعيًا جميع شروط الأحكام الفقهية ، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو لتباعد مذهب ما وترجيح مذهب آخر . وقد اتلف أيضاً مذهباً اقتصادياً ، والأفكيف كان يمكنه ورفقته أن يعيشوا ، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركته ، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا أنه كان يتبع سياسة عبيقة وراسخة ، ولو لم يتبع هذا الأسلوب لما كانت لتكتمل اليوم هذه الكتلة ، فهي الولاية الوحيدة بالهند التي بها وزارة مسلمة ، ولا مجال لتقييم أية وزارة من أديان أخرى . وهذه الهيئة السياسية التي تتمتع بها كتسمير إنما هي نتيجة لدعوة « أمير كبير » .

ومع أنه لم يغيّر حياته كلها على أي برنامج سياسي بالمعنى المعروف ، ولم يعترف به أحد « كتشكك سياسي » ومع أنه لم يسع وراء شيء كهذا ، وقام فقط بالاستمسك بالهيئة المظلمة . فإن كل الأشياء قد سمعت إليه بعد ذلك ، وقال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كتسمير !!

والخلاصة أن أهمية الدين تكمن أساساً في نجات الإنسان كلية من الشرك ، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط ، وهكذا تدوين له الحياة ملكها . ومن الضروري لنا أن نؤكد قبل كل شيء على هذا

الامر . وأن نجعل من هذا الأمر أساسا للدعوة والمبينع . وبعدها يلزم اتباع طريقة ما عيما يتحقق بالمستلزمات الدينية المطلوبة في العمليات التفصيلية . تتخلى مع الظروف . وبالتالي لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساسا لحركة الدعوة . فالإنسان حين يتخذ من مسألة ما أساسا لحركة الدعوة فهو يجعل للمسألة الحرية نفس مكانة المسألة الأساسية . ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يصيب نظم الدين بالاضطراب . ويدخل عليه القوضى — فإذا أعجبك مذهب عقبي خلس أو رأي ما فلتتخذه مذهبا أو رايك . ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجدا أو مدرسة . وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك ما تشاء . ولكن لا تجعلها أساسا أو ميزانا إسلاميا تنقيس به الآخرين . فهذا أقدم حكم مسلم نظاما على أسس الملكية أو الجمهورية . ورايت أنت أن النظم الصحيح هو أي نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد . وإذا كنت لديك بمسيرة . ورايت حقوق أمك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فغرس لدى أفراد الأمة العاطلة أحرى تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بقوة وأمانة وحل قضيتهم . ولكن لا تتر فضائات الاحتجاجات والمطالبات ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة . فمثل هذا النوع من السلوك إنما هو ابتعاد عن سبيل الدين الوالح . وهو سمي وراء السيل المتفرقة . ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهي تنشئ — في الواقع — الفساد فقط . إذ هي لا تبعد الإنسان عن عبادة الله الحقيقية فقط . بل تصبح سببا في تمزيق الأمة وتفريق الجماعات ، وانه لا يجب بث الفرقة بين أهل أمته ، ولا يمكن أن نلوا نصر الله — إن فعلوا هذا — أن يذلوه مرة ثانية ؛ كما أن الفرقة لا يمكن أن تبعد الأمة وهدتها السابقة ١

(١) هذه الممارسة الصمد في الامتحان القسوس للجمعة اول المحرم ١٣٥٠ هـ .

السيرة النبوية المرفوعة على الفكر الإسلامي

إن كتب السيرة التي تناولت حياة النبي ﷺ هي من حيز المجموع تتحدث عن نبي الاسلام كنسبته من الشخصيات المعجزة - فهذه النسبته - كما تصورها معظم هذه الكتب قامت بأساليب فوق لطافة إنشائية للسيطرة على العرب جميعا .

وكتب سيرة تتحدث عن قصص الكرامات والمعجزات التي لا تجد لها مثيلا في التاريخ الانساني وقد بولغ في هذا الامر لدرجة أن الناس ضلوا خيالات تلك الأحداث التي لا توجد غير جوانب تقسم بالاعجاز . وعلى سبيل المثال فإن « جاء في امر هجرة صهيب بن سنان رومي رضي الله عنه حين تهرق من مكة فاعترضه بعض شباب قريش . فقال صهيب : إذا جا أهليكم على وعدى تركتموني . فقلوا له : فاصطهم صهيب بمعنى ما كان عنده من ذهب ووصل إلى المدينة سالم . وتنسب هذه الرواية إلى البيهقي إذ يقول : « فلما رأى (أي الرسول) قال : يا أبا يحيى : ربح البيع فقلت يا رسول الله . سبقتي إليك أحد . وما أطورك إلا جبريل عليه السلام » .

إلا أن (ابن مرفويه) (وابن سعد) يفتان نفس الواقعة هكذا : « فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ربح صهيب : ربح صهيب » (مما يوحي بأن النبي كان قد بلغته القصة !!) فالحقيقة أن حياة النبي ﷺ بأكملها كانت في الواقع حياة إنسانية بسيطة ، ولهذا فهو مثال يحتذى للمسلمين ، وهذا هو رائع نتيجته

فهو إنسان يعنى على الملوك . ويعتبر أيضا كغيره من عامة الناس .
ولهذا كان الناس يتعجبون : « فأنك تقوم بالأسواق وتلعب الألعاب
كما تلعبه » . (البداية والنهاية)

والحقيقة أن عظمة حياة النبي ﷺ تتمثل في تجنب لاسي
هذه الحياة وليس في هضم إعجازه المليئة بالأسرار وتوثيقه كامن في
نصرته له . ومن هذا الجانب فهو بلا شك شخصية معجزة . ومن هنا
من ظهور هذه المعجزة الألوية إنما كان على مستوى : التبشير بالرسول
وليس على مستوى الكرامات الشخصية .

وتتطلب صورة رسول الله في القرآن مع صورته الحقيقية على
ظاهر هذه الأرض .

بداية الدعوة

حين نزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء . وكان
في الأربعين من عمره . ترك لديه رد فعل قوي ، وهو رد فعل كان يمكن
أن يحدث لأى « إنسان » عادى . فقد عاد إلى بيته خائفا مرتعدا .
حيث تقيم زوجته خديجة . وكانت هي نفسها بمفردها تنظر عن حادثه
أنوحي في وضع يمكنها من أن تقيم رأيا محيذا . فقالت للنبي ﷺ :
« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب
المعتم والمترى الخيف وتعين على نوائب الحق »
(متفق عليه من عائشة) .

وفيما يتعلق بحركة الدعوة ، فقد كان ما حدث للنبي شيئا طبيعيا ،
وتعرض لما يتعرض له أى داعية في بيئة جديدة ، فقد استلزمت
الظروف أن يبدأ دعوته سرا .

• ذكر ابن اسحاق أن علي بن أبي طالب جاءهما وهما يميلان .
فقال علي : يا محمد ما هذا ؟ قال : دين الله الذي أصطفى لنفسه ،
ويبعث به رسلة فادعوك إلى الله وحده لا شريك له . وإلى عبادته
وإن تكفر بالثلاث والعزى فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم
فلمست بقتلى أمراً حتى أحدث به أبا طالب . فكرر رسول الله ﷺ ن
يفتى عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : يا علي إذا لم تسلم
فانكتم . فمك على ذلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام .
فأصبح غدياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت على
يا محمد ؟ فقال له . رسول الله ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له وتكفر بالثلاث والعزى وتبرأ من الأنداد . ففعل علي وأسلم .
ومكث يائساً على خوف من أبي طالب . وكنتم على إسلامه ولم يظهره (١) .

وحين عاد المسلمون بالأوائل من الأوس والخزرج إلى يقرب
كانت هذه أيف هي طريقتهم . في التيام بالدعوة سرا . (فرجعوا
إلى قومهم يدعونهم سرا — للمبراني) •

لقد اهتم النبي ﷺ طويلاً حينه اهتماماً شديداً بالألا يتخذ
أي إجراء قبل أن شئياً له القوة اللازمة لاتخاذ هذا الإجراء . فنون
عائسه رضى الله عنها : إنه تجمع لدى النبي ﷺ ٣٨ صحابي . فطلب
أبو بكر رضى الله عنه من النبي أن « يظهر » وأصر على ذلك . (أي أن
بانى أمام الناس ويبلغهم دعوته جهراً) فما كان من النبي إلا أن
قال : « يا أبا بكر إنا قليل » وهكذا حين أسلم عمر في السنة السادسة
لبعثته قال للنبي : يا رسول الله لم تخفى ديننا ونحن على الحق ؟ فدين
الآخرين ظاهر بينما هم على باطل ؟ • فأجابه النبي : « يا عمر إنا

قليل » . وظل هذا هو أسلوب النبي ﷺ حتى ثلث الهجرة . ونظمت القوة الإسلامية . وتركزت في مكان واحد . وقدمت قريش بجيشها لاستكمال هذه القوة . وهذا صدر لأن بالموالجة . وفي غزوة بدر حين بدأ أصحاب الرسول في مزاولة أعدائهم قال لهم النبي ﷺ : « هذا يوم له ما بعده . وكان وقت انشغال الإجراءات العملية قد حلت . وحدث حين أصبح المسلمون في وضع يمتنعون من تسخير مستبد جديد للدين للتحريك عن طريق اتباع هذه الإجراءات العملية التي بدأوها آنذاك . وقبل ذلك لم يسمح لهم بالتفاد من هذه الإجراءات العملية .

ونحن نعرف من الروايات ان النبي ﷺ حين كان يظنه بميمه ما تتعلق بالدعوة العامة . كان يشعر بضخامة هذا العمل وعظمتها . فكان ينصرف إليه انصرافا كاملا فقد اراد ان يتكفل به أهل بيته من الناحية الاقتصادية حتى يتمكن من ان يدير الأمور بطريقه طيبة . فجمع في بيته أسرة عبد المطلب وكانت تضم في ذلك الوقت أربعين شخصا تقريبا ومثبطا لأحدى الروايات تجمع ثلاثون شخصا . فأعلن أمامهم أن الله بعثه إليهم وطلب منهم أن يتعاونوا معه حتى يتمكن من أداء هذه المهمة . قال :

« يا بني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة فأياكم يبالي عنى أن يكون أخى وصاحبى ، وولائى . ويكون منى في اللجنة ويكون خليفتى في أهلى » (أخرجه أحمد عن عائشة)

لم تكن عائلته على استعداد لتحمل مسؤوليته الاقتصادية . كلن عه العباس بن عبد المطلب من الناحية الاقتصادية في وضع يمكنه من تحمل المسؤولية ، إلا أنه سكت أيضا ، « فسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بهالة » ، إلا أن الله تعالى نصره ، فقد أعلنه اقتصاديا

في حياته الملكية أولا بمال زوجته خديجة — رضى الله عنها — وبعد ذلك بأبي بكر الصديق .

لقد كان النبي هريصا حريصا شديدا في تبليغه دعوة الحق للناس : فينقل ابن جرير عن عبد الله بن عباس أن بعض كبار أهل مكة تجمعوا حول الكعبة بعد غروب الشمس وطلبوا الحديث مع رسول الله فبعثوا إليه — كما تقول الرواية — أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك : ثم تقول الرواية :

« فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم على أمره بدء . وكان عليهم هريصا يحب رشدهم ويحذر عليه عنتهم » .
(ابن جرير عن ابن عباس)

إلا أن الذين دعوه كانوا قد فعلوا ذلك ونهضة في الجدال فقط لا للاقتناع . وهكذا عاد رسول الله ﷺ بعد حوار طويل : (ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما غاتته مما كان يطمح به من قومه حين دعوه ولا رأى من مبادئهم إياه) .

(تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ٦٨)

وهكذا حين تجمع الناس حول أبي طالب في عرض لغاتة فقتلوا : لقد كان لنا مع ابن أخينا قبل هاتك أمراً (فخذلنا عنه وخذله منا ، ليكف عنا ولكف عنه ، فدعاه أبو طالب وسأله : ما تريد من القوم ؟ فقل : « نقولون لا إله إلا الله وتظلمون ما تعبدون من دونه » إلا أن القوم لم يكونوا على استعداد للإيمان بما جاء به ، وبعد أن انصرف القوم قتل أبو طالب (طبقا لرواية ابن اسحاق) : (والله يا ابن أخي

ما رأيكم سآلتهم شططا) . (فطمع رسول الله ﷺ فيه) فجعل يمين له : (أى عم ! فآنت فقلها اسطط لك بها الشطاعة يوم القيامة) .
(البداية والنهاية)

لقد كان ﷺ يتهم ثورة المدحورين وعيجانهم إلى آخر حد . بعد فتح مكة حضرت هند بنت عتبة بن ربيعة لتبليغ رسول الله . وكما هو متبع في مثل هذا الموقف . وحين هن النبي ﷺ يثرثه كلمات ابيعها قال : « لا تقتلوا أولادكم . فقلت له هند : أو هل تركت لنا أولاد نقتلهم » (ابن كثير)

إلا ان هذه الجملة البسطة لم تترك لدى النبي أي أثر . وأخذ منها البيعة منشرحها مسرورا .

لقد اتجه رسول الله ﷺ بكل قوته العظيمة والجسدية . وكرس كل وقته في سبيل الدعوة . بل ضحى بكل ما يملك من أجلها إذ قبل الضربة كان الرسول قد تزوج من سيدة غنية فل يزواجها «ألا قبيحا » .

ومن وقائع الدور المتى الأول ان قسادة قريش أرسلوا عتبة بن ربيعة ممثلا عنهم إلى رسول الله . وعمل عتبة إلى رسول الله فأنصبه لظوف وملائته الرعية . وعلاه الرعب ولم يخرج إلى أهله . واحتبس عنهم . فقال أبو جهل :

« والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا مبا إلى محمد وأعجبه طماعه وما ذاك إلا من حاجة لصابته ... انطلقوا بنا إليه . فأتوه : فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبت أمره فإن كان بك حاجة جئنا لك من أموالنا ما ينفيك عن طعام محمد : فنسب والسم بالله لا يكلم محمدا أبدا » .

(البداية والنهاية مجلد ٣)

وهكذا يحكى عن عبد الله بن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إليه فسلمه رسول الله ﷺ القرآن فاستأثر بالقرآن كثيرا . وعرف أبو جهل أن الوليد بن المغيرة ثائر يكلمهم الرسول . فقال له : « إن كنت تريد أن يجمع الناس لك مالا جمعوا لك لأن بك رغبة في مال محمد » .

وهكذا كانت حالة النبي المالية جيدة في بداية عهد النبوة ... ولكن في السنة الثالثة عشرة هجر عاجر إلى المدينة لم يبق معه شيء . حتى أنه اقترض من أبي بكر ليعد مناع السفر .

لقية الدعوة :

مع أن النقاط الأساسية للدعوة الإسلامية محددة على أسس منطقي . إذ أنها تتسم بالتعمال الشديد ، فإن كلمات الدعوة حين تطرح من لسان الداعي فهي تضم شيئا آخر ، وهي ذات الداعي نفسه ، وتعد هذه إضافة تسجل للمفسون المحدد للدعوة وتجعله عملا خالداً ، ورغم كونه عملا واحدا إلا أنه يبدو بأشكال متنوعة لا يمكن أن يوضع لها فهرس محدد ، على صغر الداعي قلب يرتجف من خشية الله وهو يتمنى بكل إخلاص أن يتقبل المدعو الأيمن . ويحمل الداعي بداخله عاطفة تجعله يود لو استطاع جذب عباد الله إلى دين أنه لينال بذلك رضا الله . هذه الأمور لا تضعف تأثيراً خالصاً فقط إلى طبيعة الكلمات التي تنطلق من لسان الداعي بل تمنح الدعوة تنوعاً كبيراً من الناحية الشكلية لأن عاطفة الشوق التي تؤثر في المدعو تجبر الداعية على أن يراعى عقلية كل شخص مراعاة تامة وهو يعرض عليه دعوته .

ويتضح هذا الأمر بجلال في حياة النبي ﷺ ، لقد انشغل بتبليغ الدعوة ليل نهار ، إلا أن أسلوبه لم يكن معتزلاً في ترديد عدة النقاط محددة أمام كل شخص بل كان يعرض هديته مراعيًا نوعية المخاطب .

على العصر الثاني الأول ثم بدعوة أبي سفيان وزوجته عند .
وطبق الرواية ابن هاشم . قال :

« يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لاقولن ثم
تبعن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار » .

ويشكل ابن خزيمة أن الرسول ﷺ خاطب شيخا يدعى حمير
فقال : « يا حمير ! كم تعبد من الهة ؟ قال : سبعا في الأرض وواحدا
في السماء » قال فإذا أصابك الضر فمن تدعو ؟ قال الذي في السماء .
قال فإذا هلك المال فمن تدعو ؟ قال الذي في السماء . قال فيستجيب
لك وحده وتشركم معه ؟ (١) .

ويشكل الإمام أحمد عن أبي أمامة أن رجلا من أهدي القبائل
قدم إلى رسول الله ﷺ ليخبر بماذا يأمرهم به . فقال له الرسول :
« بلن فصل الأرحام ونخفي أدماء ونؤمن السبل ونكسر الأولاد
وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا » .

وبعد وصول النبي إلى المدينة أرسل إلى أهل تجران كتباً يدعوهم
فيه إلى الإيمان جاء فيه :

« إني أدعوكم إلى عبادة الله ونفي عبادة العباد وأدعوكم إلى
ولاية الله ونفي ولاية العباد » .

لقد كان القرآن الكريم على الدوام هو الوسيلة الهامة
للدعوة والتبليغ . فكان الرسول ﷺ إذا ما قابل شخصا أسمعه بعض
آيات القرآن الكريم . وجاء في معظم الروايات « يا بلى : (ثم ذكر
الاسلام وتلا عليهم القرآن) . وفي رواية أخرى : (عرض عليهم

الإسلام وهرا عليهم القرآن) . وكان لمذهبيه القرآن وقع في نفوس العرب مدرجه ان بعض مخالفى الاسلام المعتاة كانوا يخرجون بالليل، ويختلون بجوار بيت الرسول فيسمعون القرآن وهو يتلوه ..

لقد كان للأدب السماوى القرآنى تأثير لا حد له على العرب . حين قدم الوفيد ابن المغيرة ممثلاً لقريش إلى ائمتنى عليه السلام تلا عليه النبى آيات من القرآن ، غارتجف . ولما رجع قال لقريش : إنه كلام يلقى ض كلام . (وأنه ليعلو ولا يعلى عليه وأنه ليحطم ما تحته) . وتلاوة القرآن من أجل التبليغ كانت الطريقة المعروفة في ذلك الزمن . فحين وصف مصعب بن عمير إلى المدينة مبلغاً كانت طريقته أن يتحدث مع الناس ويتلو عليهم القرآن (يحثهم ويكس عليهم القرآن) وقد استنهم بالمغزى نظرا لافرائه الناس القرآن (وكان يدعى القري) (١)

والى مكة استمرت دعوته بأسلوب ثابت مترن في ظل الأدب القرائى الرفيع . ولم يكن لدى المعارضين من شىء سوى السب والشتم حتى انه بدأ يقال بين جماعات مكة المقتزة أنه لا يوجد لدى معارضى محمد من جواب دامغ يمكن ان يجيبوا به عليه ، وقد قام أشرف مكة في اجتداع خض بدعوته ، وأعدوا خطة للحديث معه . والسبب طبقاً لرواية ابن جرير هو أن يبرثوا دعتهم . ألمم قومه (ابعثوا إلى محمد فكلموه وخلصموه حتى تعذروا فيه) (٢) .

كفاية العرب وصالحيتهم :

نينا يتلقى بقبول الدعوة . كان أمرها يعتمد على مدى الدعوة وجهاد الداعى : ونوق هذا كان أمرها يتوقف على ظروف الدعوة .

(١) حلية الأولياء ، العهد الاول .

(٢) الطبرى .

وكان للعنصر الانساني الذي توجع في بلاد العرب قيمة عظيمة ، فمن ناحية احتفظ العنصر العربي بالاضافة الى ما لديه من جاهلية عربية قديمة ويداوة وشرادة احتفظ ببساطة الفطرة . فقد ضمت مساحة الثلاثمئة ألف كيلو من الأرض المسطحة الساخنة + أعلى وأسمى المثل الإنسانية للعربي الذي جعل من فاقته الوسيلة الوحيدة لمعاشه يقوم بطبعها ليتقدمها طعاما لضيوفه حتى لا يجوعوا . وكان اذا ما لجا مظلوم إلى خيمة عربي . جعل هذا العربي سيفه وقام بحمايته . فلا يتمكن أحد من قتل المظلوم قبل قتل صاحب القيمة : وكان الأشرار اذا ما قاموا بعطيات السلب والنهب ، وأرادوا الاستيلاء على علبس او مجوهرات النساء لم يتمكنوا من تجريد النساء من ملابسهن . وما كانوا أبدا ليلبسوهن : فقد كانوا يرون أن من الضروري سلب المجوهرات حين تكون المرأة في كامل ملابسها : وكان المهاجمون والمغنيون يحولون أنظارهم حتى لا تنزع على النساء العلويات .

وليس من الصحيح القول بأن عرب البادية كانوا أصحاب عقول بسيطة قليلة الإدراك ... لا ... لقد كانوا على درجة عالية من الإدراك والوعي وكان يمكنهم الوصول إلى أدق معاني الكلمات بل إلى بطون الكلمات .

لقد قدم سبعة من المسلمين الجدد من إحدى القبائل إلى رسول الله ﷺ ، وأثناء حديثهم معه قالوا : لقد تعلمنا من الجاهلية خمساً سنظل عليها حتى تمنعنا إياها :

(قال وما الخمس التي تخلفتم بها في الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء : والصبر عند البلاء : والصديق في موطن اللقاء والرخاء

بعر انفضاء . وترك الشعانة بالمصيبة اذا حلت بالأعداء . فقال رسول الله ﷺ : فتهاء أدياء + كادوا أن يكونوا أنبياء (١) .

ودى (ضمد) رجلا من قبيلة (أردستوه) . وكان يقوم بأعداء السحر والتسودة . وقدم ذات مرة إلى مكة . فاطهره الناس أن النبي ﷺ . حل به اثر من التهن . فذهب ضمد إلى النبي وفي نيته أن يعالجه بما لديه من معلومات . ولكن حين سمع (ضمد) كلام النبي قال : « يا الله لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة ، ورايت كلام الشراء : إلا أنني لم أسمع مثل هذا الكلام أبدا فعد بك أبايك » .

وكالعادة لم يطلب النبي خطبة طويلة بل قال فقط ما كان يقول في هذه المناسبة الإلهامية :

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له » .

إلا أن (ضمد) وجد في هذه الكلمات المختصر كثيرا من المعنى (فقال له ضمد) أعد على كلماتك هؤلاء فلكند بلغن قاموس البحر (٢) .

ولم يكن هناك أي فرق بين قول العري وفعله . لقد كان ﷺ صادقا قولاً وعملاً . وكان يرى الآخرين أيضا هكذا . فما يراء مصدقا عقلا يؤمن به على الفور . يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن قبيلة بني سعد أرسلت ضلم بن ثعلبة ممثلا لها عند رسول الله ﷺ . فقدم إلى المدينة فأنشأ قائمته على باب المسجد وربطها ، ودخل المسجد بعد ذلك . وكان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه في ذلك الوقت.

(١) نثر العميل ١ - ٦٩ .

(٢) الصلاة والتهنية ٢ - من ٢٦ .

وكان ضمام رجلاً شجاعاً عاقلاً وقت أُمم مجلس النبي وقال : « أيتها ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب - فقال ضمام : يا محمد ، قال رسول الله - نعم » قال : يا ابن عبد المطلب أريد أن أسألك وسوف أقشد في سؤالي فلا تتأثر من هذا - فقال رسول الله ﷺ : أنا لا تتأثر بهذا - أسأل وأخرج ما في قلبك - قال ضمام : استخلفك بمعبودك : وبمعبود أولئك الناس من قبلك - وبمعبود من بعدك (أأنت بمعك أينا رسولا ؟) فقال ﷺ : نعم - قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل قال الله لك أن تلمننا أن نعبد وحده ولا نشرك به أحداً وأن نترك هذه الأصنام التي كان يعبدونها ويقدسها آباءنا وأجدادنا ؟ قال ﷺ : نعم - قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل أمرك الله أن نحمل السلوات أنخصي ؟ قال رسول الله : نعم - يقول الرأوي وهذا ذكر الزكاة والصوم والحج وجميع أحكام الإسلام ... كان يستخلفه بالطريقة السابقة - ويسأله عن كل فريضة حتى إذا ما فرغ قال :

« فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله - وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص » (١) .

ثم ركب ناقته وعاد - ووصل إلى قومه وأخبرهم بالأمر كله - وطبقاً لأحدى الروايات - لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى أسلم جميع من كانوا في مجلسه رجالاً ونساء .

لم يكن في العرب نفاق - لم يعرفوا شيئاً ثالثاً بين الأقرار أو الإنكار ، فحين يقولون قولاً يطبقونه على كل حال - حتى لو قدموا

لروح من أجله . ولقد هوى أقلى التلصحيات • ومن خطب قبائل يثرب (الأوس والخزرج) ما يدل على تلاقى العرب . وهى الخطب التى قالها معاذ بن نضلة بمناجبةبيعة العقبة الثانية ••

قد ورد لى بعضها :

• إن اقوم لا أجمعوا ليبيعة رسول الله ﷺ . قال العباس بن عباد بن ثعلبة الطر بنى سلم بن عوف : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعونه ؟ على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم اذا انتهكت أموالكم معصية وأشرافكم قتلا أسلمتموه من الآن غدوه . فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وانابوا بما دعوتهم اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فاجتنبوا •• فالتوا •• لما لنا بذلك يا رسول الله أن نحن ولينا ؟ قال : الجنة • قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه ::

وأنهت الأحداث أن هذا لم يكن مجرد كلام . بل تم تنفيذ هذا العهد بهذا الغيرة :: • وحتى دعى ساد الاسلام والفسح . ظلوا أيضا مقدمون التضحيات دون مطالبة بأى تعويض سياسى بل ارتضوا تسليم الطائفة للمهاجرين . وعرضوا من الدنيا على هذا الحال •• واحدا واحدا •

شذوية الدعوة الاسلامية :

يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن أشراف قريش تجمعوا عند أبى طالب ذات مرة . وكان من بينهم بعض قادة قريش من أمثال عتبة بن ربيعة : وشيبة بن ربيعة . وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف . وأبى سفيان بن حرب . وسال هؤلاء الناس - برأسه أبى طالب - النبى ﷺ ماذا يريد منهم بعد كل هذا ؟ فقال ﷺ :

م ٩ - واتعنا ومستقبلنا

« كلمة واحدة ، تعطينيها فملكون بها العرب وتدين لكم بها
العجم » (١) .

لكلمة التوحيد إن كانت في الظاهر كلمة عقائدية إلا أنها تصل
بين طيبتها سر جميع أنواع الفتوحات الانسانية . أنها صوت انتمره
الانسانية ولهذا فهي تصل إلى احوار النفس البشرية . ونهوى اثار
المعارضين لها إلى اقوى المدافعين عنها . اسلم خالد بن الوليد قبل
فتح مكة بفترة . إلا أن مدق الاسلام كان قد وصل إلى قلبه قبل
ذلك . وقد أعلن هو نفسه عن هذا الأمر بعد إسلامه . فذكر في هذا
الأمر وقع في قلبه قبل ذلك بكثير وهو ان الحق لم يكن في جانب قريش
بل كان في جانب محمد . ويجب عليه (على خاند) ان يكون معه ...
قال : (لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ . فليس في موطن
أشهد إلا انصرف وأنا أرى في نفسي أنى موضع في غير شيء) (٢) .

وهكذا يروى عن الكثير من الناس أن الاسلام كان قد دخل في
قلوبهم قبل أن يعلنوا اسلامهم حتى أنهم بدلوا يشاهدون في أحلامهم
أنهم على وشك أن يستقلوا داخل حفرة من نار . وذلك من يود أن
يدفعهم ليستقلمهم فيها . وبينما هم كذلك إذا نبي الاسلام يأتي ويلقطهم
من السقوط في النار .

ورغم انه لا صلة بين الدعوة والاقتصاد في الظاهر إلا أن الدعوة
هي في ذاتها عملية اقتصادية بطريقة غير مباشرة لأن الانسان حين يضل
الاسلام تصبح جميع وسائله ومصادره تابعة بالتالى للاسلام . ففى
الزمن المتى الأول انما كانت ثروة خديجة ورضى الله عنها الاسلام : وبعد

(١) البداية والنهاية المجلد ٢ ص ١٢٢ .

(٢) البداية والنهاية بحث ٤ .

ذلك آهـن أبو بكر الذى كن يربـح من تجارته أربعين ألفـه درهم ،
مسـاعد رأس ماله فى دفع المعركة الاسلامـية اقتصاديا ، وفى أثناء الهجرة
أخذ سـتة آلاف درهم وخـرج من البيت وهى التى غطت جميع تكاليف
السفر ، وفى عزوة تبوك ، قدم عثمان رضى الله عنه عشرة آلاف دينار
كانت بمثابة ثلثى ما كان يحتـاجه الجيش ، وقدم عبد الرحمن بن عوف
فى مناسبة واحدة خمسمائة لرس للجهاد ، وهكذا قدم هؤلاء الناس
الذين أسلموا أموالهم مع أرواحهم لتصبح جزءا من طرانة الاسلام .

ونظرية التوحيد نظرية متكمله لا مجال فيها لتقسيمات اجتماعية
أو امتيازات طبقية ، ولهذا فحين تمنى أية حركة على أساس هذه
النظرية ، غانـد، نـؤثر فى عامة الناس بطريقة مذهلة لأنهم يشعرون بأنه
فى ظل التوحيد يمكنهم أن يصلوا إلى المقدم الحقيقى للمساواة .
والعظمة الانسانية انما تكون فى ظل التوحيد .

ولقد كان للخطبة مغيرة بن شعبـة حين قدم بالبلاط فارس أعظم الأثر
فى نفوس أهل البلاط : يروى ابن جرير :

« فقلت السـفلة : صدق والله العربى ، وثالثت الدخـلعتين : والله
لقد رضى بكلام لايزال يبعثنا يـزعمون اليه قلـل الله أولينا ما كان أهمهم
حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة » (١) .

وصل النبي ﷺ مع أبى بكر إلى المدينة فى السنة الثالثة عشر
للبعثة : فنجـع هناك حوالى خمسمائة رجل من سكان المدينة واستقبلوهم
فقالوا : (انما لنا آمتين مطاعين) (٢) .

لتكيف تمكن النبي ﷺ من قيادة المدينة ؟! إن الإجابة هى انه

١- تاريخ العربى الجاد ٢ ص ٢٦ .

٢- مقدمة والمقدمة بمادة ٢

تمكن من ذلك عن طريق الدعوة فان أول من دعاه النبي إلى الاسلام من سكان يثرب هو قى الخالب سويد بن الصامت الخزرجي . ذكر له الاسلام فقال : (نعل لديك ما هو لدى) فقال ص فقال له : « ماذا لديك ؟ » فقال : « حكمة لثمان : فقال ص : أوضح . فلبسه بعض الانصار فقال النبي : لدى القرآن الفضل منها . وبعد ذلك تلا عليه القرآن . فأسلم على الفور . وحين رجع إلى يثرب حمل رسالة الاسلام إلى قبيلته فقتلوه .^(١) »

وبعد ذلك قدم أحد زعماء يثرب ويدعى أبا الهيثم الأسدي بن رابع إلى مكة مع جماعة من شباب بني النضل . وكان هؤلاء انفسهم قد قدموا إلى مكة ليعتصموا مع قريش لحماية قبيلة الخزرج . فعمم ص بينهم بقصصهم فذهب إليهم وقال : « ألا ادلكم على أمر السب من جنم له ؟ » وبعد ذلك عرض عليهم التوحيد . فقال نائب منهم يدعى يسى بن عاذ : يا قوم والله إن هذا لأفضل مما جنتم له . إلا أن نريد سم يفهم هذا الأمر . فقالوا : « دعنا منك قد جئنا لغير هذا » وعادوا إلى يثرب . وبعد ذلك بفترة هجرة الهجرة استعادت نيران الحرب بين الأوس والخزرج . تلك التي انتهت باسم « بعاث » .

ويقول حبيب بن عبد الرحمن أن شخصين من يثرب قدما إلى مكة وهما (سعد بن زبارة وذكران بن قيس) فأناما عند عتبة بن ربيعة . وسعما من النبي فآرادا أن يلتجيا به فدعاهما الرسول ص إلى الاسلام وتلا عليهما القرآن : فأسلما ثم لم يعودا إلى مضيفهم عتبة بن ربيعة . بل عادا مباشرة إلى يثرب . وكان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا أهل يثرب الاسلام في البداية . وهذه الواقعة كانت في السنة العاشرة للهجرة .

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة خرج ستة رجال من قبيلة يثرب
للتحج ويبيعوا انثى وعادوا إلى بلدتهم حيث بدأوا بتليخ الاسلام .
وفي السنة التالية (سنة ١٢ من البعثة) بايع اثنا عشر رجلا للنبي
واسمعتهم بيعتهم في التاريخ الاسلامي باسم بيعة العقبة الاولى
(٦٢١ م) . وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة زاد هذا العدد وحضر إلى
مكة ٧٥ من اهل يثرب . ثم كانت بيعة « العقبة الثانية » .

وعلى العكس من مكة اتسمت يثرب بأمر طامس : إذ اسلم في
المرحلة الاولى بمخاض المدينة وأشرفها ، وكان هذا هو العصر القبلي .
وكان من الشائع في القبلات أن تكون القبيلة على دين رئيسها ، ومن
هنا بدأ الاسلام ينتشر في يثرب بسرعة (حتى لم تبق دار من دور
لامدر إلا وابها رهط من المسلمين) . وهكذا حتى أصبح المسلمون
أغلبية من سكن يثرب كل من الطبيعي أن تكون هذه المدينة ذات
مدر كبير (فكن المسلمون أمز أهلها وصلح امرهم) (١) .

إرهمسات تدعوة :

في كل زمان هناك أناس يتعدون بأنفسهم عن تأثيرات الزمان ،
يعيشون على الفطرة . وفي المجتمع العربي وجد عدد من الناس يعيشون
عن الصدق والحق ولم تعجبهم عبادة الأصنام : وكان وجود هؤلاء
الناس نتيجة لسيطرة الفطرية . ولبتأثير تأثير الأئمة الإبراهيمية ، وعرف
هؤلاء « بالحنفاء » . ومنهم على سبيل المثال : « قيس بن ساعدة » « وورقة
بن نوفل » وغيرهما . وكان هناك هنفي يدعى جندب بن عمرو الدوسي ،
كان يقول في زمان الجاهلية :

(١) المرحلة القبلية من دعوة .

« إن للخلاق خلقا لكن ما أدري من هو » (١) .

وحيث علم بخبر بعثة النبي ﷺ قدم بطمسة وسبعين رجلا من أهل قبيلته وأعلنوا الإسلام جميعهم . وكان أبو زر الندوى من بين هؤلاء الناس الباحثين عن الحق . علم بخبر النبي ﷺ فأرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بالخبر فعاد الأخ وحمل إليه تقريراً جاء في إحدى فقراته : « رأيت رجلا يسعى الناس الصلابة هو أشبه للناس بك » (٢) .

مثل هؤلاء الناس لم يواجهوا أية صعوبة في فهم دعوة النبي ﷺ . وحيث تبدأ الدعوة في أي مجتمع فإن بذور ما تنبت في أمكن لا يمكن حتى للداعي نفسه أن يتوقعها . ولم يكن معنى قبول من أسلم في مؤخره من العرب . أن الإسلام قد أتىهم فجأة . قالوا : « إن حياة النبي ﷺ الأخلاقية السامية ، زلزالته في دهرته وتبليغه بيل نهار . بالانسفة إلى الممرضة التي واجهته وفروع حياته وذبوع رسالته ... كل هذا جعل من وجوده سر سادس الجميع . ومثل هذه الأمور غرست بذرة الإسلام في أذهان العديد من العرب » .

وفتحة الحمضية القلبية كان الشغف يعصب بالعماد الظاهري إلا أنه لا يستطيع أن يوقف تغلغل الإسلام ونموه في دأخله . فقصده لشهر بالنسبة للإسلام عمر رضى الله عنه أن حالته متواجته كانت سبب في إسلامه في النهاية . ولا شك أن هذه الحالة كانت سببا مباشرا في إسلامه إلا أن بذرتها الأولى كانت قد وقرت في قلبه قبل ذلك بكثير .

أخرج ابن اسحاق عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حذفة رضى الله عنها قالت . والله إنا لنترحل

(١) ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٢ .

(٢) أخرجه سنن من طريق عبد الله بن الصديق .

إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حديثنا ، إذ أتته عمر ، فوقف على وهو على شريكه : فقالت وكنا نلقى منه أذى لنا وثسدة عين ضلته فقال : أنه الانطلاق يا أم عبد الله قلت نعم : وأنه لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آفئتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً . قالت فقال : سبحانه الله . ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أهرنه فيما أرى خروجاً^(١) .

على كل زمن توجد أفكار تتخلل في أذهان عامة الناس فإذا لم تتحطم جذران هذه الأفكار فلا يمكن لأي صوت أن يجد صدى لديهم على أساس من الحقائق الفلسفية فقط : ولهم تكن مظاهر الاختلاف التي ظهرت بين العرب في الزمان الأولى قائمة على أساس المصلحة والمعدوان . بل كانت قائمة على أساس عدم قدرتهم على فهم أمكانية وجود دين صحيح أو حق غير ما وجدوا عليه مدته الكعبة . وقد ظلت التبايل العربية الجاورة لليهود بعيدة عن مثل هذا التعميد العقائدي لأنهم كانوا يسمعون من اليهود أنه منتوب في كتابهم أن نبيا سيظهر من العرب .

« فلما سمعوا قوله انصتروا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته : وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوهم إليه لمدقوه وآمنوا به »^(٢) .

وفي سوق عكاظ حين قدم عليه السلام إلى خيبر بنى كنده : عرض عليهم الاسلام : فوالف شاب وقال :

« يا قوم استبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تسبقوا إليه فوائده إن أهل الكتاب ليحدثون أن نبيا يخرج من الحرم قد أفل زمانه » .

١١- البداية والنهاية جلد ٢ ص ٧٩ .

٢- الطبراني .

٣- أبو القاسم في التاريخ .

والسبب في إقدام قبائل المدينة من الأوس والخزرج على الاسلام هو وجود هذه الفكرة الذهنية لديهم . أما بالنسبة لأهل مكة ومعظم قبائل العرب فقد كانت سلطة الكعبة هي معيار الحق وعدمه ، وكانت مكانة الكعبة بين العرب قديما مثل مكانة « انتاج » بين الانظمة الملكية ، وبالإضافة إلى مكانة التاج فقد كان أمر التعمية مرتبطا أيضا . بتصوير السلطة السياسية فقط . وتزيد مكانة الكعبة درجة اخرى ++ بحبالاضافة الى السلطة كانت هناك تقاليد مقدسة تدعى . يد فمن العرب يفهمون بمعنيهم البسيطة ان من يبدء امر الكعبة هو نفسه يبدء الحق والصديق ، يحكى ذو الجوشن الضيائي من بني عامر ما جرى بينه وبين رسول الله :

(قال يا ذا الجوشن الا تسلم فتكون من أول هذا الأمر ؟ فقلت لا . قال لم ؟ قال قلت رأيت قرمك قد ولعوا بك قال : كيف بلغك عن مملوهم ببدر ؟ قلت قد بلغني . قال فاما عهدى لك . قلت إن تغلب على الكعبة وتقلتها . قال لعك إن أعشت ترى ذلك ++ قال فواته إني بأهلى بالغور إذ أقبل راكب فقلت ما فعل الناس ؟ قال : والله قد غلب محمد على الكعبة وقطنها . قلت هيأتني أمي وأو أسلمت يومئذ ثم أسأله الخيرة لأتطنها) (١) .

وهذا هو السبب في انه حين فتحت مكة دخل الناس في الاسلام أفولجا !! .

رد فعل حركة الدعوة :

بدأ رسول الله ﷺ حركة الدعوة . وبدأت الأحداث التي نشهر عادة في حالة ظهور صوت جديد في أي مجتمع . تحير بعض الناس حول ماهية هذا الشيء ؟

ويقتل ابن حميد في مسنده أن قتادة قرئش اختاروا ذات مرة عبدة بن ربيعة ليهبهم عند رسول الله . فوصل عبدة إلى النبي وألقى خطبته المأثولة التي عارض فيها النبي ﷺ وحين انتهى قال النبي ﷺ : (فقلت) فليس نعم فقال النبي ﷺ : (باسم الله الرحمن الرحيم وقرأ عليه من (حم فصلت) ثلاث عشرة آية : فسمع عبدة ولم يهر جوابا . وقال : احسبك ما عندك خير هذا ؟) فقال النبي : لا : وتحكي الرواية بعد ذلك . . . (خرج ابن قرئش ففلقوا ما وراحت) قال ما تركت شيئا لرائم تكلمونه فيه إلا كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ فقال نعم . ثم قال : ألا وأدري مسبها بينه ما فهمت شيئا مما قال غير أنه انفركم صاعقه (١)

وقد رأى بعض الناس الذين ألفوا الاطر القليلي للدين أن في دعونه ﷺ شذوذاً ناسكاً . فلقد قال أبو نعيم في (دلائل النبوة) كما نشر مسألي والبعوي وغيرهم أن عندما قدم إلى مكة ليعتمر فجلس ذات يوم في مجلس كان فيه أبو جهل وعبدة بن ربيعة وأمية بن خلف . . . فحدث أبو جهل :

هذا الرجل الذي فرق جماعتنا ونسفه أحلامنا وأغل من مات منا وعذب أهلكنا فقتل أمية : الرجل مجنون من غير شك (٢) .

ودعا عمرو بن مرة للجهمي أهل قبيلته « جنيمة » إلى الإسلام فقال رجل :

« يا عمر بن مرة ، أفر الله عيشك أتأمرنا برفض آلهتنا وأن نفرض جميعنا وأن نخالف دين آبائنا النسيم الأعلى ، إلى ما يدعونا إليه هذا القرشي من أهل تهامة لا حيا ولا كرامة » (٣) .

١ . السيرة .

٢ . الصلاة صلاة ٢ من ١١٠ .

٣ . البداية والنهاية جلد ٢ .

وبعد ذلك أنتد ثلاثة أئمة . كلن أظرها :

ليسله الأشياخ ممن قد مضى

من رام ذلك فلا أصاب غلا

وكان الحسد مانعا لبعض الناس من أن يسلما . لأنهم كانوا يريدون اعلان نبوتهم . وبالفاظ أخرى يرى هؤلاء الناس أن لديهم علم الحقيقة . ويمسح من أصعب الأمور على الانسان أن يعترف بأن الله قد أعطى علم الحقيقة الذى يديه لشخص آخر . ينقل البيهقى عن سمير بن شعيب أن أبا جهل بن هشام الفصل عنه ذات يوم قائلا :

والله انى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شيء - أن بنى قصى قالوا : فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم . حتى قالوا منا نبى والله لا نفعل (١) .

وبعض الناس علخوا النبى لأنهم راوا فى دعوته وفى ايمانهم بدعوته خطرا على اقتصادهم : فقد كانت الكعبة من أكبر بيوت الأئمة قبل الاسلام . وضعت فيها أصنام جميع المعتقدات حتى أنه وضعت به صور للمسيح ومريم أيضا . وهكذا كانت الكعبة مزارا لأهل الأديان جميعا . وكان هذا هو الهدف من الأشهر الأربعة الحرم ، فبها كان يند على مكة أتباع جميع الأديان آنذاك . فإذا ما رفعت الأصنام من الكعبة لمن يأتى أحد لزيارة الكعبة . وسيناق سوق مكة الذى كان ينعقد لمدة أربعة أشهر . ولهذا شعر أهل مكة بخطر دعوة النبى ﷺ واعتقدوا أن دين التوحيد لو انتشر لمن المنطقة (وهى غير ذى فرع) سوف تنتهى تماما ، كما أن ولاية الكعبة أيضا كانت تجعل لغريش مكان المدارة بين القبائل المختلفة .

يكتب أحد المؤرخين فيقول : « كانت أموالها وتجارتها تسافر في شرق والغرب في ظلال معاهدات تجارية بينها وبين أمم وثنية مثلها كدروس وأمم مسيحية كالعيسة وكمثل بيزنطة وكانت قريش تتصور أن تأييدها لرسالة محمد إنما يعني شيئا واحدا هو أن تتحلل الأمم المجاورة لها بل وقبائل العرب نفسها المقيمة على الوثنية من معيذاتها بعمارة تجارة قريش وقوافله وإذا حدث ذلك فهذا يعني موت قريش تجاريا واقتصاديا وانتهاء عصر سيادتها على العرب » . وكما جاء في تفسير آية من سورة الواقعة (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أي تجعلون الكذب غداً لكم . أي أنكم تعتقدون أن لنكار التوحيد الذي يدعو إليه نبي الاسلام إنما يمكن أن يحفظ لمتصالحكم وأموالكم .

وكانت نتيجة دعوته أن أصبح حديث الناس تساؤل . ويسأل الناس لأشخاص الآخر قائلا : « أهو هو ؟ » .

(ويمض بين رجالهم وهم يشعرون إليه بالأسابيع) (١) .

وكان إذا ما جاء شخص إلى مكة عاد ليخبر رفاقه بأخبار رحلته . ومما يثيرهم بأن محمداً بن عبد الله نبياً : وقد تبعه ابن أبي قحافة . وقد ولعت قريش اسم (مذمم) بدلاً من محمد (اسم النبي ﷺ) لقد اتهموا بتحقيق الأسلاب وتسفيه الآباء . ول في الليل كانوا يلقون القافورات في طريقه . وذات مرة رآهم النبي ﷺ . فقال : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ (٢) .

وحش في حياة أبي طالب لم يكن أحد يجرؤ على انتهاك أي إجراء عدائي تجاه النبي ﷺ وذلك طبقاً للتقاليد القبلية . فإن قتاله يعني قتلا

(١) رواه أحمد بن حنبل .

(٢) صحيح مسلم .

مع قبيلة بني هاشم ، وحين أخذ عمر بن الخطاب - قبل أن يسلم -
السيوف • وخرج عازما على قتله ، كانت الجملة التي لفظها أحد الناس
كافية لتهدئته • إذ قال له : (ويحك كيف تأمن بني هاشم إذا قتلت
محمدا) وكان هذا هو ما يراجه أي شطص يعزم على اتخاذ أي عمل
عدواني ضد النبي ﷺ ، وكان هذا هو السبب في أن المظالم والاعتداءات
التي حدثت في مكة كانت في معظمها ضد العبيد والاماء •

ينقل الإمام أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أنه في الدور
الاول كان هناك سبعة أفراد مسلمين في مكة هم (رسول الله ﷺ - أبو بكر -
عمار - سعيد - صهيب - بلال ، ومقداد) •

فأما رسول الله ﷺ فتمعه الله بعمه وأما أبو بكر فتمعه الله بقومه
وأما سائرهم فأتخذهم المشركون غالبهم دروع الحديد وسبروهم في
الشمس (١) •

يروي الإمام البيهقي عن عبد الله بن جعفر أنه حين توفي أبو طالب
زعيم بني هاشم قلم أحد رجال قريش السيئ بالتاء التراب على النبي
ﷺ • فعاد إلى بيته ونظفت إحدى بناته التراب من فوقه فقتل ﷺ
حينئذ : • لم يحدث أن أصابني مكروه من قريش حتى الآن ، لقد مات
أبو طالب لبدأوا يلعبون هكذا ، وفي رواية لأبي هريرة : • لما ملك
أبو طالب وجهوا بالنبي ﷺ فقتل يا عم ! ما أسرع ما وجدت بعدك (٢)

بعد وفاة أبي طالب بدأت قريش تستشعر أهلها في أمر قتله •
لمنعح أبو جهل بأن يضعوا سيفا في رأسه : وراى عتبة بن معيط أن

(١) رواه أحمد •

(٢) أبو داود - الحلية ٨

يلقوا بساطاً على رقبته ويستحبوه . فمن الواضح أن الطريق صار معهدا لارتكاب الأعمال العدائية ضد النبي بعد وفاة أبي طالب : ولقد ظلت هذه الأحداث نوعاً من العار والخجل لأنها كانت الوحيدة من نوعها في تاريخ العرب بالإضافة إلى أن بعض المشركين كانوا يقولون بحمايته بوازع من حسرتهم . فمثلاً حين قلم أبو جهل بالضغط على رأسه ورفقه ﷺ ليخذه علم أبو البختری بذلك فحمل السوط وتقدم إلى الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع رفاقه جلوس المنتصر . وحين عرف أبو البختری بمسحة الواقعة (بعد بحث وتحقيق) ضرب أبا جهل على رأسه بالسوط ضربات جعلته يصرخ !!

ويظهرنا تاريخ الأديان أن الشرك يكون دائماً حساساً لأقصى درجة لسماع أي نقد يوجه ضده . ولما كان أساس النظام الاجتماعي قائماً على الشرك قديماً فقد تجمعت الوسائل السياسية أيضاً مع هذه الشدة وعصديتها وسائدتها . وهكذا استأزمت دعوة التوحيد في بيئة مكة من النبي ﷺ الكثير من الصبر والمثابرة ؛ وفي السنوات الثلاث الأولى لم يؤمن بالرسول إلا عدد قليل من الناس ؛ وكما أنه لا يمكن لشجرة واحدة أن تظلل مكة التي بلغت مساحتها حوالي كيلو مترين مربعين فإن رفاقه كانوا أيضاً لا يجدون من يظلمهم ... فقد كان يجسواره ﷺ أربعة أنظمة فقط . (خديجة وعلى وزيد وأبو بكر) . ومع أن عائشة بنت أبي بكر كانت معهم أيضاً إلا أنها كانت أول من يولد مسلماً . وهكذا كانت جبهته ﷺ تتكون من خمسة أفراد فقط .

ومضى الأمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات فكان إذا خرج من بيته استقبل من الناس كالجلنين .

ومرة خرجت جماعة خطط لها أبو جهل لتسببه وتشتته ؛ وكان هذا سلوكاً لا يمكن قبوله من أشرف مكة ؛ وهر شخص منهم فرأى هذا

الموقف فذهب إلى عمه حمزة وقال له : أين فيرتك ؟ إن الفاس يسبون ابن أخيك وأنت لا تساعد . وامتلا حمزة من عيد المطلب بالغيرة والحسنة العربية . فوصل إلى أبي جهل فصره بقوسه الحديدى على رأسه وقال : منذ اليوم أنا على دين محمد فامنعوا ما شئتم (ديلى دين محمد فامنعوني ذلك إن كنتم صادقين) •

وكان حمزة من أبطال العرب المشهورين . فزادت حمة الناس ، ووصل عدد المسلمين إلى أربعين شخصا . وفى ذلك الوقت كن فى مكة شطمان من أصحاب النفوذ والأثر . الأول عمر بن الخطاب والثانى أبو جهل . فدعا رسول الله ﷺ بدعائه المشهور (اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) وتقبل الله دعاءه لأول من نادى باسمه . وفى السنة السادسة للهجرة كان لاسلام عمر اثر كبير فى اسلام الكثير من الناس ووصل عدد المسلمين إلى أربعين •• كان هذا فى وقت اتخذ فيه المسلمون من دار ابن الأرقم مركزهم المسمى . وذكر صاحب البداية والنهاية أن عدد المسلمين الذين كانوا يتجمعون فى دار ابن الأرقم كن تسعة وثلاثين مسلما إلا أن أولئك الناس الذين كذبوا مع النظام السابق كانوا بالتالى يمتلكون القوة . وهكذا وبعد توفد عارضى بدأت سلسلة من المظالم من جديد . ورغم محاولات إيذاء النبي بشئى الطرق إلا أن هذا لم يتمكن من قتله ، لأن التقليد النبلى يعنى أن قتل أحد المراد القبيلة هو بمثابة حرب مع القبيلة كلها ، كانت هذه هى القضية التى على أساسها قيل لشعيب : (ولولا رهنك لرجمناك) (١) •

ولدت مذاهب قريشى زعيم بنى هاشم وعمه أبا طالب بن عبد المطلب أن يخرجوا من القبيلة حتى تتمكن قريشى من قتله إلا أن حمية أبى طالب

لم تجعله يفكر أو يكون على استعداد لهذا . وذات مرة قال أبو طالب
لرسول بعد شكوى قريش له : لا تعيب آلهتهم * فظن النبي أنه سيسأله
لقريش (فظن أنه قد بدا لعمه فيه وأنه مسامح) إلا أن أبا طالب ظل
بمفكته : والله لا أسلك بسوء أبدا (٢) .

وتجمعت قريش ونفذت معاهدة اجتماعية تتألف بمنتسباتها بني
هشم وأعلنت انتداعه . وكان ذلك في السنة السابعة للبعث . وبعد هذا
أخذ أبو طالب وأخذ معه أسرته وخرج من مكة . وأقام في مكان يطلق
عليه (شعب أبي طالب) وهو هضبة وعرة لا يوجد فيها سوى بعض
الأنجار التي تنمو طبيعيا . وظلوا على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات .
يقتاتون على أوراق الشجر وجذورها . هذا باستثناء الأشهر الحرم
الأربعة حين كان أهل أسرته يذهبون إلى مكة ويضامون معهم لحجم
القرايين فيجفونها ويتناولونها لفترة طويلة .

وبعد ثلاث سنوات وفي السنة العاشرة للبعث انتهت المعاهدة
إلا أنها أثرت على أبي طالب نظرا لقسوتها وشدها . وبعد أن توفي
أبو طالب أصبح أكبر أفراد القبيلة هو عبد العزي (أبو لهب) من
بني هاشم . فعين زعيما لها . وهكذا يجلس الآن العدو على كرسي
القاضي فأعلن عن برامة القبيلة منه وأعلن إخراجه منها .

الإخراج من القبيلة

إن إخراج فرد من قبيلة هو في حياء، مصحرا، كمن يأخذ بنسب في بحر، ففي النظام الهلالي حين لا تكون هناك حكومة تشغل المسئولية في البلاد، فأى شخص يمكن أن يعيش حيثه في ظل حماية أية قبيلة.

وأثناء إمامة النبي ﷺ في منى قدم بعرض دعوته على إحدى القبائل، ورفضت القبيلة التسليم بدعوته، رغم أنه ينسج من كلام أحد أفراد القبيلة ويدعى ميسرة بن مسروق العتيبي أنه تأثر بدعوة النبي ﷺ ولا حظ النبي ﷺ ذلك (فطعم رسول الله ﷺ في ميسرة لعقمة عبد ميسرة - ما أحسن كلامك وأتوازه ولكن قومي يختلفونني و نعم الرجل بفومه) (١).

وكانت حادثة إخراج ميسرة من القبيلة من أصعب الأمور على نفسه، وهكذا لم يعد له ظل يظل في بلده، وكان أهله حل واحد وهو أن يبحث عن قبيلة أخرى تحببه، وكانت أولى محاولاته في هذا المجال هي خروجه من مكة، وذهابه إلى الطائف، وقال رسول الله ﷺ عن هذا السفر العائشة:

« إذا عرفت نكسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال ».

ويقول عروة بن الزبير:

« ومات أبو طالب وأزداد من البلاء على رسول الله ﷺ تسعة

فعمد إلى تكليف رجلا أن يؤذوه وينصروه » (٢).

١ - الحاشية والتعليق - جلد ٢ -

٢ - لم يسم له - الجزء الثاني -

إلا أن الناس هناك سلوكوا معه سلوكا وحشيا فمجيا قدما الله وهو عند من اللطيف بقوله :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وعوانتي على الناس يا أرحم الراحمين » (١) .

وقد لأهل الصدق وهو يعود عليه : « لا تبلغوا أهل مكة ما منعتم بي وإلا ازدادوا جسارة » (٢) .

عاد النبي من الطائف وأقام مرة ثانية خارج مكة وأرسل إلى أسير يطلب منهم مراعاة أحدهم علمي حمليته حتى يتمكن من اليقاء في مكة . وفي النهاية قبل مطعم بن عدي حمليته . ودخل مكة في غلب سيف ولولده .

ووضع النبي خطة للذهاب إلى القبائل التي تسكن أطراف مكة ، والتي كانت تدد عليها في الأعياد والأسواق وذلك ليجهز هذه القبائل ويهيئها لقبول حمليته . قال لعنه العباس :

« لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غذا حتى تفر في منازل قبائل الناس » (٣) .

فكان النبي ﷺ يذهب إلى موقع كل قبيلة ويسألهم : (كيف المنعة فيكم ؟) ويعرض عليهم نفسه ويقول لهم إن قبيلته كذبت وأخرجته ويسألهم حمليته وإبراءه حتى يبلغ عند الله عز وجل ما أرسله به ، ويروى المؤرخون أن النبي ﷺ اتصل بطعن عشرة قبيلة ، فقبل أفرادها فرداً فرداً .

(١) البداية والنهاية جلد ٢ .

(٢) طبقات سيوط ابن هشام ٤ من ٩٤ .

(٣) البداية والنهاية ٤ جلد ٢ .

إلا أن القبائل كانت تعرف مدى خطورة قبول شخص أخرجته قريش من حمايتها . وهكذا رجمت القبائل كلها إيواناً وحمايته . وهناك قبيلة أظهر أهلها تسامحاً إلى حد ما . قال أحد أشرافها : (أخرجته عشيرته وتؤوونوه ؟! أنتم تعلمون حرب العرب) (١) . فحماية شخص أخرجته قبيلته تعنى في العرف العام إعلان الحرب على تلك القبيلة . فإذا حدث ذلك مع قبيلة قريش التي تملك السيادة على البلاد كلها فإنه يكون أمراً بالغ الصعوبة . وكما تنطى التقاليد العربية فإنه من الأمور الشائعة جداً أن يطلب شخص الحماية ثم لا يجدها . فهذه من أول حادثة واضحة من نوعها في التاريخ العربي : أن يظل عليه الصلاة والسلام يدور بين القبائل طالباً الحماية لعدة سنوات . فلا يجد أحداً على استعداد لحمايته : لا أهل الطائف ولا أهل القبائل العربية الأخرى . والسبب هو أن أمر النبي هذا كان يحمل نوعية خاصة : فالقبيلة التي (حرده) كانت قبيلة قريش زعيمة العرب قاطبة : وتقديم الحماية للشخص الذي تطرده قريش يعنى إعلان الحرب على العرب قاطبة .

كانت هذه هي الخلفية التي على أساسها قال أبو الهيثم بن النعمان رضي الله عنه لأصحابه وهو يأخذ البيعة من الأنصار :

« فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحد » (٢) .

وعلاوة على ذلك فهناك سبب آخر للأحداث السابقة وهو أن القبائل التي كانت تسكن أقاليم الحدود كانت تربطها مع جيرانها من غير العرب معاهدات أخرى : وكانت تنطى أن تؤوى هذه الشخصية المتنازع عليها فتبدأ مشاكل وتزاعلت مع تلك الحكومات .

(١) لم نجد في المصادر شيئاً .

(٢) البخاري .

جاء في البداية والنهاية أنه ﷺ ذهب إلى سوق في « منى »
وتحدث مع زعماء بني شيبان ابن ثعلبة ، فاستصغروا رسالته ، ولكن
هاني بن قبيصة عقب فائلا : نحن نعيش على حدود كسرى (ملك
فارس) وبيننا وبينهم معاهدة •

(ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الخوفا)^(١) •

ويمكن تقدير المدة التي وصل إليها رسول الله ﷺ في ذلك
الزمان من تلك العبارة التي وردت في إحدى الروايات حين ذهب ذات
مرة إلى قبيلة يقال لها (بنو عبد الله) :

« فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى أنه يقول : يا بني
عبد الله إن الله قد احسن اسم ليبيكم ، فلم يقولوا منه ما عرض
عليهم »^(٢) •

وهكذا مضى النبي ﷺ السنوات الثلاث الأخيرة في الحياة
التيه بحث عن الحماية بين القبائل ، ورغم محاولات وكفاحه إلا أن
أية قبيلة لم تكن على استعداد لحمايته . لدرجة أن بعض القبائل
قالت :

« أما أن لك أن تياأس منا ؟ » وأخيرا وفق الله قبائل يثرب
(المدينة) الأوس والخزرج إلى هذا الأمر ، وكان وراء استعداد كل
من الأوس والخزرج لحماية النبي خلفية نفسية ، لغتان القبيلتان
كانتا تسكنان بجوار قبائل اليهود ، وكان يهود خيبر يسيطرون على
أخصب الأراضي بالمنطقة ، وكانت التجارة في أيديهم أيضا ، وهكذا
كان اقتصاد عرب (الأوس والخزرج) يثرب في معضله في يد

(١) البداية والنهاية ج ٢ •

(٢) البداية والنهاية •

اليهود . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد الهجرة تلم النبي وأصحابه بتعمير المسجد النبوي بأيدي أجراء اليهود . فورد هذا البيت على لسانه ﷺ :

هذا الجمال لا جمال خبير هذا أبر ربنا وأظهر (١)

وكانت نتيجة التفوق الاقتصادي اليهودي والسيطرة العربية حدوث عدة حروب بين الأوس والخزرج وكانت لليهود نقول إن كتبنا بخبرنا بظهور بني من العرب قريباً ، وحين يأتي ستكون معه وستهاويكم ونقضى عليكم تملأ . وقد أشار القرآن إلى قول اليهود هذا في الآية الكريمة : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٢) .

سمع أهل الأوس والخزرج دعوة النبي فقاتلوا : بالله هذا هو النبي الذي حدثتنا اليهود عنه فلنؤمن به قبل أن يسبقنا اليهود إليه ولنصبح من جماعته . وبالإضافة إلى هذه الخلفية كانت هناك أسباب أخرى تاريخية واجتماعية جعلت عشائر الأوس والخزرج قادرة على فهم كلام النبي ﷺ والإيمان به بسهولة أكثر من بقية القبائل العربية وجعلتهم يمدون أيديهم لبايعته .

والآن جاء الوقت الذي كان ينتظروه من سطوات : فقد وجد قاعدة يمكن أن ينطلق منها كنهجه ونشاطه بشكل مؤثر وتحت حماية القبائل ، وإن يجمع مسلمي مكة وأطراف مكة في مكان واحد يجعل منه مركزاً إسلامياً . وقبل عند كبير من أهل يثرب الدين الجديد ودخلوا في الإسلام مما جعل من الممكن أن تتجمع الطاقات الإسلامية

(١) البداية والنهاية - ٢ -

(٢) البقرة ١٧٩ .

المنفرة في مركز واحد حتى يمكن لشباط دعوة الحق أن يستمر بتأثير أكبر وهكذا يذكر المؤرخون عن مبايعة الأوس والخزرج للنبي ﷺ :
 « قال . فلم يأت رسول الله ﷺ إلا يسيرًا حتى خرج إلى أصحابه فقال لهم : أحببوا الله كثيرا فقد ظفرت اليوم أبناء وبيعة بأهل فارس (١) » .

بعد ﷺ عدة الهجرة . ورغم الفقر الشديد في إخلاء الخبر إلا أن قريشا عرفت بالأمر . ينقل الطبراني عن عروة :

« أن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين طلبوا أن رسول الله ﷺ يخرج وطردوا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة ويلفهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه وإما أن يسجنوه وإما أن يوثقوه وإما أن يخرجوه » (٢) .

وبعد إيمان الأوس والخزرج بالنبي قام ﷺ برسم خطة محكمة وبعدها خرج في صمت من مكة .

الهجرة :

والساعة التي قدمتها قبل المدينة (الأنصار) للنبي ﷺ والمسلمين تمثل حادثة تاريخية محيرة في الواقع . فالمسلم إذا أعلنوا شيئا اعتبروه نظير مقبل أو نتيجة لخوف أو نتيجة الوجود « بركة » معينة ، وذلك بمعنى الفاس (أحياء أو أموات) يفرض فيهم العظمة ، والإنفاق عليهم أو الإغراق عليهم — طبعا لهذا التصور —

(١) البداية والنهاية ، جلد ٣ ، ص ٣١٤ .

(٢) المعجم الطبراني عن عروة برسلا .

إتعا يكون مسجرا لوجود بركة نحل بالولاد او شجر الامون إلى آخره مما هو وارد في هذا الباب ، إلا أن ما حدث من الانصار كل أول مقال برز في التاريخ الإنساني على الأيثار والتضحية . فلم يحدث أن قامت أمة بأكملها بفتح أبوابها كاملة للمهاجرين على أسس الأخوة الإنسانية ، فالانصار لم يقدموا للمهاجرين بيوتهم فقليل بل أقاموا بينهم وبين المهاجرين مؤاخاة واعتبروهم كاشقائهم . فطسموا بينهم مشكلاتهم . فطوا كل هذا وهم يعرفون أن هذا العون المقدم للمهاجرين ليس مجرد عون اقتصادي بل هو إعلان للحرب ضد العرب والعجم . وتصور العبارة التي قالها « علي » هذا الأمر تصويرا دقيقا :

(كانوا ضحقاء صبراء) (١) .

حين ترك المهاجرون وطنهم ووصلوا إلى يثرب كان كل واحد من الانصار يود أن يحمل على شرف استضافة أحد المهاجرين حتى انهم افترعوا على ذلك (ولقد تشاحوا فينا حتى أن كانوا ليقتربون علينا ثم كنا في أموالهم أحق بها منهم) ورغم هذا الإيثار الخاص قاموا بمبايعة الرسول كما هو متبع وعلي أن يتم ترجيح الآخرين عليهم في تسليم العهد (اثرة علينا) علي (أن لا تنازع الأمر أهله) (٢) .

وهكذا بعد الهجرة لم تكن حياة المدينة حياة عدوة بالنسبة للنبي ، فقد ظهر العداء العربي المتحد في أسوأ مظهره . يقول أبي بن كعب :

« لقد قدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وآوتهم الأنصار .

(١) البداية والتبليغ ، مجلد ٥ .

(٢) تنبيه سيرة ابن هشام ، مجلد ١ من ١٩٩ .

فرميتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه « (١) » .

أعلنت قرىش المقاتلة الاقتصادية لأهل المدينة ، أعلنت هذا بين العرب جميعا ، وكانت الهبة الاقتصادية لا تكفى ولا تسد حاجة الزيادة السكانية التي طرأت على المدينة إذ تضاعف عدد السكان ضمناً . هذا بالإضافة إلى التنقلات العربية المتزايدة . كل هذه الأشياء أدت إلى حدوث شيق اقتصادي رهيب . يقول عمر : لقد رايت نبى الإسلام في المدينة . كان طوال اليوم يتلوى من الجوع . حتى التمر لم يكن متوافراً ليملا به معدته . وسأل شخص عاتية عن « سراج » فأجابت : لو كان لدينا زيت لخير به السراج لشرينا الزيت !

وكانت حاله المنقر في الغزوات شديدة لدرجة أن أبا موسى يقول : خرجت معه في غزوة وكان معنا نحن (ستة رجال) جمل واحد كتبنا تركبه بالتوالي وتورمت اقدامنا من المشى المستمر ، وكنا نلث الخرق والرقع على اقدامنا حتى أن هذه الغزوة أطلق عليها اسم « ذات الرماح » . وكان تموين الغداء في الغزوات قليلا لدرجة أن الرجال كانوا يمسون البلح بدلا من أكله . هذا بالإضافة إلى الأمراض التي تظهر نتيجة تغيير الطعام المعتاد . فاهل مكة تمعدوا اللحم واللين . ثم وجدوا في المدينة للتمر . يروي الطبراني أن رسول الله ﷺ حين وصل إلى المسجد للصلاة في يوم الجمعة مرخ مسلم مكى وقال :

« يا رسول الله أحرق بطوننا التمر » (٢) .

وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة خرج الإسلام إلى مرحلة الدعوة العلمية وبدأ دور تاريخي جديد ، إذ بدأت مرحلة المواجهة

(١) نثر السجدة ٤ ، مجلد ١ من ٢٤٩ .

(٢) الطبراني .

العملية وكانت الأصول التي اعتمد عليها النبي في دور الدعوة تتلخص في عدم إثارة القضايا الاقتصادية أو السياسية أو القبلية أو غيرها من القضايا المتنازع عليها . وظل بعيداً عنها وانتسب « بالإظهار والتبشير » .

دعا بنى عمر بن مسمعة في سوق عكاظ إلى الإسلام وأكد لهم بثتى الطرق انه إنما يبلغ رسالة دينية بطريقة سلمية تماماً . وأنه ين يشر بينهم أية منازعات سياسية أو اقتصادية أو قبلية . فكان رسول الله ما معناه انه يبلغ عن ربه ، وطلب منهم أن يمعنوا حتى يؤدي الرسالة ، ووعدهم انه لن يكره احداً منهم على شيء (١) .

ومضت الأمور على ما هي عليه من حيث الهدف الأساسي للمحنة المصيرية إلا أن الإسلام بدأ يواجه شيئاً آخر ، وهو القضايا العملية التي نشأت من جراء البيئة ، وفي هذا الشأن وضع النبي مبادئ أصولاً أساسية تمثلت في اتباع المبدأ التي تجعل قلوب الناس تميل إلى الإسلام ، وأمكن تحقيق الأهداف الإسلامية بدون حرب أو عراك . وهذا هو ما عبر عنه النبي بقوله : (تمسرت بالعرب على مسير شهر) .

وكان لهذا الأسلوب العملي جانبان معيّنان : الحصول على القوة التي ثبت للعرب (الأطفال ٦٠) (٢) ، والثاني تأليف القلوب (التوبة ٦٠) (٣) .

قدم النبي ﷺ إلى الناس الكثير من الأموال لتأليف قلوبهم ولا يوجد لمطالعه هذا مثال في التاريخ . كان صفوان بن أمية من أنصاره

(١) أبو سعيد ٤ مائة القوة من ١٠٠ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .
فهمون به هم الله ورسوله .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « إنما ناسطهم للفرار والقتال » .
والأمة عليهم .

مكة وبعد فتح مكة فر هزرا واختيا فاعلماه النبي الأمان واستدعاء . وبعد استسلام حوازن حصل المسلمون على غنائم كثيرة ، وكان صفوان بن أمية مع النبي آنذاك وكان لا يزال على الكفر . فوصل إلى حضبه طيئته بالخراف والجمال ، وأخذ ينتظر متعباً متعباً فرأى رسول الله ﷺ حاله وسأله : « يا أبا وهب . هل يعجبك هذا الملب الذي يغضي انصبه ؟ » فقال صفوان : نعم . فقال رسول الله « هو لك وما فيه » . سمع صفوان هذا فقال : لا يعنى أن يكون الرجل مثل هذا الكرم إلا أن يكون نبيا . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (وأنتم مكنه) (١) .

كان تعدد زوجته ﷺ امرا فرحيا . نفى النظام القبلي تحمل مسائل القرابة أهمية كبيرة . كانت زيجته المتعددة من أهم جوانب فترة ما بعد الهجرة ، فمن طريقها لربط بعلاقته قرابه مع العديد من الناس . ورفت قلوبهم له ولدعوته . فبالأضلفة إلى زواجه الأول من أرملة صرعا صرعا صرعا . فإن الزيجات الأخرى كانت لها في الواقع ضرورات معينة بل كانت في حدتها الأساسى وسيلة للحصول على لوائد الدعوة وفوائد سياسية أخرى .

في السنة التالية لمعاداة الحذيبية (٦٢٨ م) ذهب الرسول مع ألفى مسلم إلى مكة لزيارة الكعبة ففزوج ميمونة بنت الحارث لئلا يعاقبه التي استمرت ثلاثة أيام . وكانت ميمونة أرملة . لها شئني أخوات تزوجن من أشرف مكة ، وبزواجه من ميمونة أنتم علاقة قرابه مع ثمانى عائلات . وكان خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وقد ربه تائها تائها : وهكذا بعد الزواج منها صار أعظم قادة جيش قريش

(١) تبارك وتعالى ، سيد ، ص ١٥١ .

بنا له **يحيى** . فبعد ذلك تم يخرج حاتم بن الوليد في اية معرفته ضد مسعين ، واسلمهم بسرعة . وفي حفل الزواج اقيم **يحيى** وليمة لاهل مكة . إلا أن اهل مكة طالبوه ان يمتكث ثلثه ايام فقط طبقا للعامة . وإن هذه الفترة اكتملت ، وكان عليه ان يعود فوراً . ولهذا لم يتمكن اهل مكة من تناول طعام الوليمة التي كانت في الاصل تحصل اعمية كبيرة في تأليف القلوب ، وقد اسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص معا وحين وصلا إلى المدينة رأعا شخص فراح : « قد اعطت مكة المفادة بعد هذين » (أخرجه البيهقي عن الواقدي) .

أسلمت أم حبيبة بنت أبي سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش وعاجزا معا وذهبا إلى الحبشة وهناك تحول زوجها إلى النصرانية . ثم مات بعدها بفترة بسيطة . فخطب النبي **يحيى** للزواج من أم حبيبة . وهكذا أصبح صهرا لأبي سفيان الذي صار من أعظم قادة مكة بعد مقتل أبي جهل في بدر . ولهذا تزوج منها النبي زولجا غيايبا . خشية ألا يسمح لها أبوها بالزواج منه إذا ما عادت من الحبشة إلى مكة ، وقبلت أم حبيبة هذا الزواج الغيابي على يد تجاني الحبشة . وذهبت بعد هذا إلى المدينة مباشرة ، ويذكر المؤرخون أن معارضة أبي سفيان فعلت بعد ذلك حتى قبل الإسلام ودخل في دين الله قبل فتح مكة بيوم واحد .

ومن جوانب الحكمة العملية للرسول **يحيى** ما عبر عنه القرآن الكريم بسياسة « الإرهاب » فبدلا من استخدام القوة يمكن تحقيق الهدف من طريق إظهار القوة ذاتها . وما لم يأخذ أبو سفيان جيشه ويرجع لتعرض المسلمون لهزيمة ساحقة في أحد (٣ هـ) ، وقد شعر أبو سفيان نفسه بشأته هذا حين وصل إلى منطقة الروحاء ، فأراد أن يعود مرة ثانية بجيشه إلى المدينة إلا أنه من خلال الفوضى هذه

تمكن نظام المعلومات العسكرية لدى نبي الاسلام — وكان كاملاً محكماً — من معرفة أمر أبي سفيان ومن هنا قرر النبي ﷺ التقدم ونظم جيشه الجريح وعرج ناهية مكة ووصل إلى منطقة حمراء الأسد وتجمع على مسافة ثمانية أميال من المدينة وكان سفره هذا معلنًا ظاهرًا تعلمًا للعيان ، وبينما كان النبي ﷺ يعد للعدة للمرحيل وصل الخبر إلى أبي سفيان فاعتقد أن رسول الله قد تلقى المزيد من الإمدادات ، فتراجع في قراره واتجه إلى مكة بدلاً من أن يعود إلى المدينة وحين اطمأن الرسول ﷺ إلى رجوع جيش أبي سفيان عاد هو إلى المدينة .

وفي السنة التالية لغزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) بدأ قيصر الروم يعد العدة للهجوم على حدود الشام وأعلن للساسنة ومعهم بقية العرب حالة التأهب العسكري . ورداً على هذا أمد النبي ﷺ جيشاً قوامه ٣٠ ألف جندي وذلك في الغزوة التي عرفت باسم « غزوة تبوك » (رجب ٩ هـ) وكانت هذه الغزوة في الواقع (تدبيراً عسكرياً) يهدف إلى مضاجعة العدو قبل أن يفلح، المسلمين حتى يخاف العدو وتخور همته . فحين علم قيصر الروم بوصول المسلمين إلى منطقته تبوك بدأ في سحب عساكره من على الحدود بدلاً من أن يتقدم تجاه جيوش المسلمين ، وهكذا ترك النبي نية الحرب . ولا شك أن النبي استند من الانتصار الأخلاقي الذي تحقق من جراء تراجع القيصر لقد استقر في تبوك عشرين يوماً ، وأقام عاتقة مع قبائل الحدود التي كانت خاضعة لتأثير الروم آنذاك ونتج عن هذا قبول أنكير بن عبدالمك التكندي رئيس نصارى دومة الجندل ويوهنا بن ربيعة النصراني رئيس أيلة وبقية رؤساء مقنا وجرياء وأنرح النصاري ، قبلوا جميعاً داسع الجزية والخضوع لحكومة المدينة .

وهناك ولقمة منابيه لهذا النوع بعد خلافة أبي بكر فطفت في
تسجير جيش أسامة . فبعد وفاة النبي ﷺ أعلنت جميع القبائل
العربية في أطراف المدينة العصيان ما عدا قبيلة طي ، وكان عدد
المسلمين قليلاً بالقرنة بعد المتعدين . وكانت الضرورة تسمى آنذاك
الحفاظ على الخلافة لإخضاع العدو الداخلي ، ورغم أن عدد أعداء
المسلمين كان لا يتفوق من حيث كثرتهم بعدد المسلمين القلائك إلا أن
الخليفة الأول قرر الاستمرار في تنفيذ قرار النبي وأن يتوجه جيش
أسامة الذي كان يضم سبعمائة فرد إلى الشام لمواجهة الروم ، وكان
التأثير الذي تركه هذا القرار كبيراً وقد عبر عنه أبو هريرة بقوله :

« ففعل لا يمر بقبيل يريدون الانحداد إلا ضلوا لولا أن لهذا
قوة ما خرج من هؤلاء من عندهم ونحن قدعهم حتى يلقوا الروم فلقوا
الروم فهزمهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فلبقوا على الإسلام » (١) .
إذا ما صرفنا النظر عن الإقليات التي كانت مشركة بالمدينة حين
وصل إليها النبي فإن أكبر جماعاتها كانت جماعة اليهود وجماعة
المسلمين . ثم جماعات أخرى صغيرة لا يصحها أي اتصال . وكان الناس
من طائفة الأنسية في انتظار من يأتي ليقيم بينهم الاتحاد وبناف
وليوجد بينهم النظام ويقضى على ما يحتاجهم من فوضى . ورأى النبي
هذا الحال فاصفر في أهل المدينة صخيفه (ليست معاهدة) . وفيها
ثم الاعتراف باليهود والمسلمين كائنتين مستقلتين (إنهم أمة واحدة
من دون الناس إن يهود أمة مع المؤمنين — لليهود دينهم وللمسلمين
دينهم) . وتم الاعتراف بالحقوق والواجبات المتعارفة عليها لدى
كل من الفريقين دون إثارتها وقبيل بصورة كلية ، وجاء في تلك
المصيغة ما نصه :

« وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردء إلى الله عز وجل وإلى محمد » (١) .

وكانت هذه الصحيفة بمثابة إجراء سياسي حيث أعلن النبي ﷺ بحكمته من خلالها الحكومة الدستورية الإسلامية على المدينة .

وبعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة لرد غضب قريش بدلا من أن تبدأ . عند رأيت قريش المسلمين الآن وقد تجمعوا في جملة واحدة ودعوا مركزهم . ول السنة الثانية هجره واجه النبي موقف دقيقا وهو جيش قريش . لقد تمت قريش تحت المروءة بتدخل إلى المدينة وتجميع حيان المسلمين الذي تأسس هناك . ورغم أن جيش قريش كان حوالي ٥٠٠ مقاتلا في حين كان الأفراد المسلمون يقدرون على القتل حوالي ٣١٣ فقط فإن النبي أدرك أن هذا الشرك رغم كثرتهم لا يحملون بين جنبتهم سوى الجحد والنزول . وعلى العكس من هذا فالمسلمون لديهم الإيمان واليقين وهذه ثروة عظيمة . تتولى ما لدى المشركين من قوة . هذا بالإضافة إلى أن العرب اعتادوا القتل فرادي فرادي لإظهار براعتهم الفرديه وهذا نتيجة للنخوة الجاهلية التي سيطرت عليهم . فكل فرد يود إظهار شجاعته هو . أما المسلمون فقد نشأوا على هذا التقليد بعد دخولهم الإسلام وطلب الرسول ﷺ ولأول مرة في تاريخ العرب بتعليم المسلمين خطط الدفاع . وعلمهم ألا يميلوا إلى إظهار الكمال الفردي بل عليهم أن يحاربوا كجماعة . وأن يهزموا القسوى الفردية لقريش بلوتهم الجماعية (المص ٤ : ٢) ، وهكذا كانت الموقعة العظيمة التي نال فيها المسلمون النصر بتسوة الإيمان . وهي الموقعة التي يطلق عليها في تاريخ الإسلام « غزوة بدر » .

١ : رواية بريدة بن حصيب عن ١٢٩ .

٢ : تاريخ ابن كثير ج ٢ : ١٠٠ . والله أعلم بالصواب .

إنصار الإسلام

أثارت هزيمة بدر قريشا مرة ثلثية ، وخلال فترة بسيطة طاشت عدة معارك تذكّر منها على وجه الخصوص أحد (٣ هـ) والأحزاب (٥ هـ) . وفي هذه الغزوات تعرض المسلمون لمصائب عديدة : ولقد ضمت غزوة الخندق ثمانمائة رجلا : تعرضوا لحالة شديدة من البرد والجوع للفرجة أن النهي ﷺ أراد أن يرسل نسطرا للتجسس على العدو ، فقال ينادى ثلاث مرات : فلا يقوم أحد : حتى أنه ذهب إلى خديجة رضى الله عنه ودعاه وعينه لهذه المهمة .

ومن ناحية أخرى فقد كان يهود المدينة يمثلون قضية داخلية مستقلة ودائمة ، فقد اتحدوا مع قريش وقتلوا يصيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين .

بعد حصار الخندق الذي دام عشرين يوما : اضطر جيش مكة إلى العودة بعد تعرضه لعاصفة شديدة ، ورأى النبي ﷺ أن يعاقب اليهود عقابا رادعا ويكتف مؤامراتهم وخروجهم عليه ، فأعاد قبائل المدينة (بنو النضير — بنو قينقاع — بنو قريظة) من الخندق وأجرى عليهم كتابهم التوراة، ففضى على مسألتهم إلى الأبد .

كانت هذه مسألة خبير : وفي السنة السادسة للهجرة كان وضع المسلمين هكذا : بين دار الإسلام المدينة وبين قريش بمكة مسافة أربعمائة كيلو مترا . وفي الشمال يهود خيبر على مسافة مائتي كيلو متر : ورغم اتفاق كل من قريش واليهود على العداء للإسلام إلا أن

أحدا منهم بمفرده لم يكن قادرا على التجرد على النبل من الإسلام .
ومن هنا قدم الفريقان مع بعضهما المؤامرات . للقيام بعمل عسكري
مستترك فيما بينهما . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لم يكن
المسلمون في وضع يمكنهم من مواجهة الخصمين معا في وقت واحد .

في وسط هذه الظروف قام النبي ﷺ ويتوجه رباتي في ذي الحعدة
سنة ٦ هـ بطوجه إلى مكة مع ألف وخمسمائة من صحابته . وأعلن أنهم
لن يذهبوا لقتال أحد . بل سيذهبون للعمرة . ومصحب معه أيضا قافلة
تضم حيوانات الضحية . حتى أنه امر أن تطلق قلائد الضحية على
الجمال تلك العرف السائد في النجاشية حتى يعرف أهل مكة جيدا أنه
ورفاقه ذاهبون لزيارة الكعبة وتقديم الضحية . وكان لهذا السطر
أيضا هدف آخر أساسي أراد أن يظهره النبي وهو القضاء على المكنة
الدينية والتجارية للكعبة .

وصل النبي ورفاقه إلى الحديبية على مسافة أحد عشر كيلو مترا
من مكة تقريبا . وكما هو متوقع . وصلت خريش وتقدمت لإيقاله .
وتقدم النبي ﷺ القتال : وأقام معسكرا في ذلك المكان وأرسل رسالة
إلى خريش ليخمد بينه وبينها معاهدة صلح : وقد جاء فيها :

« إن لم نجى لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن خريش قد
نهكتهم الحرب وأضررت بهم فإن شاموا مددتهم مدة ويظفروا بيني وبين
الناس . فإن أظفر فإن شاموا أن يظفروا فيما دخل فيه الناس لعلوا
وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى
هذا حتى تنفرد سائلتى ولينفذن أمر الله » (١) .

لقد أفادت هذه الرسالة في الحقيقة من الفكر الموجود داخل قريش ذمها . ففي الدور المكى الأول حين قابل عليه بن ربيعة (ممثل قريش) النبي ﷺ ، ثم عاد إلى قريش بعد حديثه مع أنسب — طيب لأحدى الروايات — كان من بين ما شله لقريش :

(خوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه . فوايه ليكون بقوله الذي سمعت نبا . فإن تصبه العرب بعد نقيتموه بفركم . وإن يظهر على العرب فعلته ملككم وعزه عزكم وحنم أسعد أناس به) (١) .

هذه الفكرة ذاتها كانت موجودة لدى قريش واستفاد منها النبي ﷺ . وكملت النتيجة أنه وجد من بين أفراد الاعضاء من يذم عن وجهة نظره . وعندما أرسل أنسب الرسالة إلى قريش بدأ التأثير عليها بأساليب مختلفة . خرج رجل من بني كنانة من مكة ووصى إلى حديبية حتى يعرف سبب مجيء المسلمين فأخبر أنسب النبي ﷺ بخبره . فقال النبي ﷺ إن قبيلة هذا الرجل تعظم التضحية بالجمال : أيها الناس كفوا جمالكم (إبلكم) فحينكم واستقبلوه . فأخذ المسلمون قافلة الجمال وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، ويمرون أمامه ، فعاد هذا الرجل إلى مكة متأثراً تماماً وقال لقريش : إنا على يقين من أن المسلمين جاءوا بهدف زيارة الكعبة فقط فلا تعرضوهم .

وهكذا كان لهذه المظاهرة الإيمانية الإسلامية التي يقودها آلف وخمسمائة مسلم تأثير شديد على أهل مكة .

أرسلت قريش رسولا وحمل إلى الحديبية لوجد المسلمين مصطفين يعملون خلف النبي ﷺ لمشاهد هذا الرجل انضباط الصلاة فأصابه انبعاث وعاد إلى قريش وقال لهم : إن اتحاد المسلمين اتحاد قسوى

لدرجة أنهم يتحركون جميعا بإشارة من محمد وشاهد العدد رسل قريش النبي ﷺ وهو يتوقفا فيهرع المسلمون يأخذون بأيديهم الماء الذي يتساقط من بين يديه قبل أن يسقط على الأرض ، وهو حين يتكلم تسكت جميع الأموات . وهم — من الأدب والاحترام والتمظيم — لا ينظرون حتى إليه ، وعاد هذا الرسول إلى قريش فذكر لهم هذا الوفاء وهذه المحبة التي ملأت قلوب المسلمين . فحافوا وعلموا ، وحين وصلت الرسالة المذكورة إلى قريش — وقد حملها بديل بن ورقاء الطرأعي — حُلب فيهم رجل يدعى عروة بن مسعود فقال : (أي قوم ، أستم بالولد ، قالوا : بلى ، قال : أستم بالولد ، قالوا : بلى ، قال : فهل تقيموني ؟ قالوا : لا . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشدا ، اتبأوها ودعوني أتيه) (١) .

أعلن النبي ﷺ أنه سيقبل ما تطالب قريش (والذي نفسى بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أهبطتهم إياها) ، وهكذا حين بدلوا يكتبون معاهدة عدم الاعتداء ، بدأت حماية الجاهلية تظهر بجلالها ، فحفظوا من المعاهدة عبارة « محمد رسول الله » واستبدلوا بها عبارة « محمد بن عبد الله » وأصروا على كتابة عبارة « يا سمسك اللهم » بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأضيفت هذه المادة : إذا أسلم أحد رجال قريش فيجب الالتزام بإعلنته إلى قريش ، وعلى العكس من هذا : إذا عاد أي مسلم إلى قريش فلا يعاد مرة أخرى إلى المسلمين . ولم يسمح بدخول المسلمين إلى مكة في تلك السنة .

وكانت هذه شروطا صعبة جدا على الصحابة جميعا حتى أنه حين قال عروة بن سعد — في إحدى المناسبات : — « يا محمد هؤلاء الناس الذين تجمعوا حولك سوف يتركوك ويهربون » (إني لأرى

(١) البداية والنهاية ج ٤ - ٤

أثوابها من الناس خليفاً أن يتروا ويدعوك) غلب عندئذ أبو بكر
— وكان خليفاً — وانطلقت منه هذه العبارة : (امض بقر اللات !
لنحن نفر عنه وندعه ؟) •

ألا إن رسول الله ظل يتعمل هذه الأمور المثيرة كلها ووافق على
جميع مطالب قريش . ووافق على عقد معاهدة عدم اعتداء مع قريش
لمدة عشر سنوات • وهكذا أصبحت قريش ملتزمة بعدم الانسراك
فى لية حرب ضد المسلمين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر •

وكانت هذه المعاهدة شديدة الوقع على المسلمين لدرجة أنه بعد
استكمالها وحين طُلب النبى من المسلمين نهر أضياعهم لم يتحرك
أى شخص رغم أنه كرر الطلب ثلاث مرات : وبعدها قاموا والحزن
يسير عليهم إلى حد أنه بعد تقديم أضياعهم (جعل بعضهم يهلق
بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً) • إلا أن هذه المعاهدة التى
تمت بالضغط على المسلمين كانت لها فوائد عظيمة للتمسك لا يمكن
أن تحصى •

ففى الظروف التى تم فيها صلح الحديبية كان المسلمون يواجهون
جبهتين : الأولى يهود خيبر ، والثانية قريش مكة . ولم تكن قوة
المسلمين تسمح لهم بمواجهة الجبهتين فى وقت واحد لأن الهجوم
على إحداهما يعنى إعطاء فرصة للجبهة الأخرى للدخول من الخلف
ودخول المدينة والقضاء على مركز المسلمين • ومن هنا كانت موافقة
النبى على جميع مطالب قريش مكة ورضى بمعاهدة (عدم الاعتداء)
هذه لمدة عشر سنوات . وهكذا أوقفهم فى (بطن مكة) (الفتح : ٢٤)^(١)،
وبعدها عاد إلى المدينة وهجم على خيبر فى أول فرصة وحسم القضية

(١) يشير إلى قوله تعالى : • وهو الذى كذب أوفهم حكم وأبدركم بغير إذن مكة من
بعد أن انقركم عليهم •

اليهودية إلى الأبد . وكانت الواقعة الأولى في ذي القعدة سنة ٦ هـ ،
والثانية في محرم سنة ٧ هـ .

كان لليهود ثمانى قلاع هجرية في خيبر : جمعت فيها معدات
حربية لم تكن متوفرة لدى المسلمين على الإطلاق . وقد اختاروا
لتنفيذ وتقوية هذه القلاع نفس الأسلوب الذي اشتهر به الموشل
دايان المهندس العسكري الفرنسي في سنة ١٧٠٠ م . فكيف كان
يمكن فتح هذه القلاع ؟ هذه في حد ذاتها قصة طويلة ، إن الحكمة
العملية العسكرية التي اتبعت بهذه المناسبة اقتضت أن يقوم خمسون
رجلا بحمل شجرة ضخمة ثقيلة يجرونها ليضربوا بها بوابة القلعة
بشدة . وبعد تكرار هذا الضرب المستمر تحطمت بوابة القلعة .
واقتحمها المسلمون ، ووجدوا أنفسهم وسط قبضات من السهام
بالإضافة إلى استخدام المنجنيق . وتم للمسلمين السيطرة على أربع
قلاع . وحينئذ هرع أصحاب القلاع الأخرى وفتحوا أبوابهم وسلموا
أنفسهم للجيش الإسلامي .

وعكلاً تم إخضاع خيبر . وقاتل فضيلة قريش مكة قائمة ،
وأرشدت البداية الربانية النبي ﷺ إلى أن الطريقة المثلى هي إعطاء
حرمة للعدو ليرتكب خطأ حتى يسمح له بعد ذلك بالتدخل .

كان النبي يعرف أن ما يشعر قريش ضد الإسلام ما هو إلا الحسد
والبغض وحجب السيطرة . ومن يعارض انطلاقاً من هذه النفسية .
لا يمكن أن يلجأ عن ارتكاب أى فعل غير عقلاني وغير أخلاقي .
وأثبت هذا التقدير صحته تماماً . فارتكبت قريش خطأ بحمايتها
ومساندتها - بصورة غير مباشرة - لقبيلة (بنى بكر) حليفهم وذلك
ضد قبيلة (بنى خزاعة) حليفة النبي ﷺ . وذلك في الحرب التي

وقعت بين القبيلتين في (شعبان سنة ٨ هـ) : وكان هذا يتعارض مراعاة مع معاهدة الصلح . وكانت هذه الواقعة بعد صلح الحديبية بسنتين ، وكان من نتيجة الصلح انتشار الإسلام لدرجة أن اتباع الرسول ساعة صلح الحديبية كانوا لا يتعدون ١٥٠٠ رجلا ، ولكنهم وصلوا الآن إلى عشرة آلاف .

خرج رسول الله في صفت ، وبحكمة تحرك لدرجة أن فتح مكة تم تقريبا بدون إراقة دماء .

« وعذكم الله مفلمن كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » . (الفتح - ٢٠) .

كان الوضع أثناء عقد المعاهدة في صالح الإسلام إذ انتشر صوت الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية نتيجة لمركبة الدعوة الإسلامية الجادة المتواصلة التي استمرت قرابة عشرين سنة . ووجد في كل قبيلة عدد من الناس تقبعت قلوبهم لصدق الإسلام إلا أن قريشا التي ملكت قيادة العرب وزعامتهم دأبت على منع الناس من إعلان الإسلام ، بإعلان الإسلام كان يعني الدخول في حرب مع قريش . وبعد معاهدة الحديبية وحين عرف الناس أن « معاهدة عدم الاعتداء » هذه مستمرة لعشر سنوات بين قريش والمسلمين ، زال عنهم ذلك الخطر ، وبدلوا في دخول الإسلام ، وتدفقوا إلى حظيرة ما أتبعهم بمن انطلق حين رأى الخضرار إشارة المرور التي ظلت أمامهم حمراء لفترة طويلة .

قال الفقيه بن شهاب الزهري وغيره إن الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أي غزو آخر بدليل أن النبي ﷺ رجع إلى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عسسته من قبل لتزيد على ثلاثة آلاف بحال ، وظله بأنه لما هادن قريشا لم يجد

العرب حرجا أن يدخلوا الإسلام فإن ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تجدنيا لها (١) .

يروى البخاري عن يراء أنه قال للناس فيما بعد إنكم تعدون فتح مكة انتصارا إلا أننا نقول : إن صلح الحديبية هو الانتصار (ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية) .

وطبقا لهذه المعاهدة انتهى الحصار الاقتصادي للمدينة وكانت توافل تجارة المدينة تمر بحرية من مكة وأبى بصير وأبى الجندل وغيرهما وقد اضطروا إلى العودة إلى قريش طبقا للمعاهدة « هربوا ووصلوا إلى « ذو الروة » وهناك تجمعوا مع أنصارهم من المسلمين حتى أنهم كونوا بذلك مركزا ، وأطلقوا القوافل التجارية لقريش حتى تشبوا بأنفسهم على هذه المادة من المعاهدة .

إن من أكبر عوامل الضغط البشري العجلة وحجب الظاهر ، فإذا ارتفع الإنسان عن هذا فإن الله شارك وتعالى بيه في الدنيا ما يضمن له الوصول إلى التوفيق والنجاح .

أخرج بن عسك عن الواقدي قال : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول : ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كمجلة العباد حتى يبلغ الأمر وما أراد » .

إن « الواقعية » هي أعظم توفيق وأصلح نجاح في هذه الدنيا وهي ضمان الوصول إلى النجاح والتوفيق .

بعد الفراغ من اختيار بدأ يتكلم استمداداته أهمة أخرى إلا أنه لم يخبر أحدا أبدا بمقصده أو ضد من كان يعد هذه الاستمدادات حتى

(١) محمد صلى الله عليه وسلم وهو أسير إلى ١٠١ = ١٠٢ .

أن أبا بكر تلمسه لم يكن يعرف ما هدف هذه الاستعدادات ، وفي بداية رمضان سنة ٨ هـ حين بدأ الجيش الإسلامي يتوجه إلى مكة بأمر من رسول الله ، عرف الناس هدف هذا السفر الذي تم بصمت حتى وصل الكعب إلى « مر الظهران » (ولم تعلم به قريش) وقد دعا النبي ﷺ أنه قال الشرك قليل :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » .
أمر النبي ﷺ تربيّات مذهبة للاستعداد لهذه المهمة فقد أمر بقطع الصلات بين المدينة وكارجهما شاماً ، فلا يدخلها شخص من الخارج ولا يسمح بخروج شخص من المدينة إلى خارجها ، وتقرر أن يشرف بعض اندس على الطريق بقيادة علي بن أبي طالب وقد قبلت الناس على (قائد) هو حامل بن أبي بلتعمر واكتشفوا منه الططاب المشهور (وفي كل استقبال عدد وسلاح) (١) .

وخرج المسلمون جميعهم ، (لم يتخلف منهم أحد) ورتب النبي ﷺ نظام السير فقسم الجيش الذي وصل قوامه إلى عشرة آلاف إلى مجموعات مختلفة ، وعين لكل مجموعة قائداً يحمل راية ويتقدمهم ، وخلفهم مجموعات من مئات الرجال تمشي في صفوف ، وقال لعنه العباس : « اجعل أبا سفيان يشاهد منظر الجيوش » قال النبي ﷺ : « اجلسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله شراها (٢) » .

وقال جيش المسلمين يمر صفاً بعد صف وأبو سفيان يشاهد المنظر متعباً دحشاً حتى نطق قائلا : (من له هؤلاء طقة ؟) لم أر كالأيوم جنوداً قط ولا جماعة (. وهكذا أثر الرسول ﷺ في تلك

(١) الظهيراني عن ابن عساق .

(٢) كتاب سيرة ابن هشام ، جلد ١ ص ٦١ .

مكة (ابي سفيان) من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى أعلن أن « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن » . وكانت النتيجة قيام ابي سفيان نفسه بتوجيه نداء للناس فقال « ايها الناس ، اطيعوا محمدا ، لا طقة لأحد هنا بمواجهته » . وقد اثبتت الحداث ما بعد الفتح أن هذه الاستعدادات المضخمة لم يكن الغمود منها إرفقة الدعاء في مكة بل كان التمسك منها لرهيب أهل مكة حتى يسيطر المسلمون على مكة بدون إرفقة دعاء ؛ وقد وصل قائد جيش المسلمين سعد بن عبادة بالقرب من مكة وماسح : « اليوم يوم الملحمة » . فقال ﷺ : « لا اليوم يوم الرحمة » وعزله عن القيادة وسلم الراية لابنه عيسى .

ورغم حدوث بعض الغزوات الصغيرة بعد فتح مكة — وقد وصل عددها (سبعمائة وكبيرها) إلى ثمانين غزوة — فإن فتح مكة كان بمثابة السيطرة على عاصمة البلاد ؛ وهكذا اعترف العرب جميعا بقيادة محمد ﷺ .

الحركات الإسلامية في العصر الحديث

طبقا للحديث المشهور نفهم انه سيظهر في الامة الإسلامية في كل عصر أناس « يجددون لامة الإسلامية دينها » . وقد ثبت هذا طوال تاريخ الامة الإسلامية وهذا هو الذي جعل بقاء الدين مكفولا في هذه الامة .

ونحن نواجه الآن سؤالاً مؤداه هو : لماذا لم تظهر في زماننا الحاضر نتائج محاولات التجديد التي ظهرت في الماضي ؟ لقد حقق المجددون الذين ظهروا في الماضي نجاحا وتوفيقا في محاولاتهم لدرجه ان الإسلام انتشر على وجه البسيطة لمدة تزيد على الالف سنة في مساحه امتدت من حدود الصين الى السواحل الغربية لأفريقيا ممثلة بركة العالم الإسلامي . وظلت الأفكار الإسلامية وانتشر المنهج الإسلامي بين الناس سواء من الناحية الفكرية أو من ناحية أسلوب الحياة أو أسلوب المعاملات : وأصبح الفكر الإسلامي هو معيار الحق والبلد أي أصبح معيار كل الأمور في الحياة ، حتى طبع الإسلام جميع نشاطات الحياة وصيغها بصيغته ، وكانت كلمة المحدث أو اللغوي أهم من أوامر ملك ذلك الزمان .. وفي زماننا الحديث تشاهد العكس تماما ، ظهر العديد من الملحنين ، وقادوا محاولات تجديد على نطاق واسع ، وهم من ناحية الكم زادوا كثيرا على عدد جميع المجددين السابقين في مجموعهم . إلا أن الأمر المثير أنهم لم يفهموا وضع المسلمين المتدهور ، فلا تزال غلبة الثقافة والمضلة الجاهلية على خريطة الحياة تزيد يوما بعد يوم حتى انه حين بدأ التجديد قبل مائتي سنة أي في العصر الحديث كان حال الإسلام أحسن مما هو عليه الآن ، فقد تنهض الإسلام كثيرا اليوم عما كان عليه من قبل .

وكان استيلاء الغرب على العالم الإسلامي أول حادث من نوعه في التاريخ كله . وكانت الحملات السابقة قد خلفت قضايا دفاعية فقط للعالم الإسلامي ، أمكن حلها عن طريق نجاح الوسائل الدفاعية ، وحين تعرض العالم الإسلامي للقضية الحالية تم استخدام جميع إمكانيات القوى الدفاعية فليس على الماضي . بينما كان الهجوم يختلف تماما عن الحملات السابقة ، ولهذا كان من الضروري اكتشاف استعدادات أخرى قبل الإجراءات الدفاعية لمواجهة هذه الحملات . إلا أن هذا الفرق لم يمكن فهمه في حينه ، وكانت النتيجة خسايح جميع إمكانيات القوى الدفاعية التي انطقت في ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الإسلام قد نسبت وسط ضوضاء الحرب الفدائية ، وهي من نلحية الأصول الإسلامية من أولى وأهم الفرائض التي تقع على المسلمين دائما .

في السنة السادسة للهجرة حين أسلم عمر الفاروق رضي الله عنه ذهب إلى المسجد الحرام وأعلن إسلامه وقلم أهل قريش بملاحقته وظلوا يعارضونه لفترة طويلة ، وفي النهاية خاطبهم قائلا :

« افعلوا ما بدا لكم فوائده أو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا » (١) .

وبعد أربع عشرة سنة من البعثة أثبتت غزوة بدر صحة الحديث السابق . كتب عمر رضي الله عنه أثناء خلافته إلى عمرو بن العاص وكان أرسله إلى مصر في ذلك الوقت لفتحتها وتأخر الفتح :

« وأعلم أن حرك لثني عشر ألف رجل ولا يقلب اثنا عشر ألفا من قلة » (٢) .

(١) البداية والنهاية : جلد ٢ ص ٨٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء : جلد ٢ ص ١٢١ .

فواضح من اقوال الفاروق الأعظم رضي الله عنه أن ثلاثمائة رجل
يكونون لإحداث ثورة ، فإذا ما وصل هذا العدد إلى اثني عشر ألف
رجل فلا يمكن أن ينهزم أمام أي فريق آخر مهما وصل عدده . وذلك
نتيجة لقلة في العدد ، إلا أنه في زماننا الحاضر فشاعد في كل جماعة
إسلامية قائدا مسلما ومئات الأنوف من الأخوة والزعماء ، إلا أن
هذه الجماعات لم تضاف للتاريخ الإسلامي سوى الفشل ، وهذا
إن دل على شيء فإنه يدل على أن هناك نقصا أساسيا بالتأكيد في
حركات تلك الجماعات أو الانتماء في هذا النقص جعل النتيجة تأتي
على عكس ما أرادوا رغم وجود الإخلاص وتوفره لديهم ورغم
الاستعداد لبذل جميع التضحيات .

الأساس الأول : *

إن إدراك القضية التي تتعلق بهذا الأمر يجب أن يتم من أوله .
ويمكن أن يبدأ حل هذه القضية بالكفاح والجهاد من أجل إحياء
السدين .

حين أمر الله نبي الإسلام أن يمان على الملا دعوة الحق ، صعد
الصفا ونادى في أهل مكة ، وكانت هذه هي الطريقة المعتادة لتجسيم
أي إعلان قومي خاص في مكة .

تجمع الناس فخطب فيهم :

« إنكم لتقومون كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجلة أبدا
لو نلنا أبدا » (١) .

وكان بداية الكفاح لإقامة الدين الإلهي كانت من هنا أي إطلاع
الناس على حقيقة الحياة : إلا أن أبا لب لم يفهم هذا كله فقال :

١ ر. البداية الأولى : ١

٢ حيدرة خطب العرب : ١

« تبا لك سائر اليوم !! لهذا جمعنا ؟ » (١)

فأبو لهب رأى أنه لا علاقة لهذا الخطاب بالقضايا التي تتعرض لها الأمة الإبراهيمية العربية . ولم يلهم نقطة البداية هذه كمنطلق يمكن أن يكون السبيل لتحقيق الأمل في نهضة الأمة العربية أمام الأمم الأخرى . ونقطة البداية هذه أو الأسس الأول إنما هو بدء التبليغ : تبليغ العقيدة الصحيحة . ومن هنا فالأسس المصدى يعنى أن عملية الإنذار والتبشير « هي نظرية العمل الأول الأساس لإحياء الأمة . وأن مقام أبي لهب هو الاستماع إلى ما سبق وتقول ردا عليه : (أهذا برنامج ؟)

إن السؤال الأساس دائما في طريق الجهاد هو من أين يبدأ الجهاد ؟ وهو السؤال نفسه الذي يتعلق بالبعث الإسلامى ، وللاجابة على السؤال يلزمنا البحث عن الظروف المناسبة التي تجمع بين الظروف المختلفة ، والتي يمكن من طريقها أن نمسك ببقيّة الضيوط تلقائيا ... ولقد حدد لنا القرآن البداية الوحيدة ألا وهي الدعوة : وهذا ثابت وواضح . [يا أيها المدثر قم فأُنذِر] وبناء على هذا كانت حياة النبي ﷺ [إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] (٢) : وما لنا اتبع المسلمون هذا الطريق كان التوفيق خليفهم وحين عرضوه وأنصرفوا عنه تعرضوا للفشل الذريع في النهاية .

والأمثلة التي يشهدها التقدم الإسلامى في التاريخ اللاحق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

عن طريق الدعوة (مصر كمثال على هذا) .

عن طريق السياسة (الهند كمثال على هذا) .

(١) المائدة : باب الطار والمغير .

(٢) المائدة : ٩١ - ٩٢ .

عن طريق الرقى المادى (الأندلس) ❊ .

وبلغت للإسلام الثقلية الدائمة فى المناطق التى دخلها عن طريق الدعوة ، ولم تغير هذه الأمم العادات والتقاليد لحظ التى راجت فيها قبل الإسلام : بل استقبلت لغتهم وحضارتهم واستطبع المجتمع كله بمصبغة إسلامية .

يقول سير آرثر كيث ❊ الذى درس تاريخ مصر :

« كانت نهاية الإمبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العربية فى مصر حين انتصر أهل من خمسة عشر ألف جندي من الجنود العرب . بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين ، فلفتح العربى لمصر لم يكن بالسيف بل كان بالقرآن ، إذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه وابدلوا فى تعلم اللغة الجديدة أى اللغة العربية ، لحد جعل القرآن المصريين يتكلمون اللغة العربية » (١) .

وكتب (لويون) عن الموضوع نفسه :

« حكم الإيرانيون واليونان والرومان وادى النيل ، إلا أنهم لم يتمكنوا من إحلال حضارتهم محل الحضارة الفرعونية ، ولكن العرب جعلوا من مصر بلداً عربياً مسلماً ، كان لدى الأمم الأخرى قوة السيف فقط . ومن هنا لم يتمكنوا من إيجاد أى تأثير يقتدى تأثير القوة العسكرية ، وعلى العكس من هذا كان لدى العرب قوة لقرآن ، وفتحت هذه القوة أذهان المصريين حتى أنها بدلت دينهم وحضارتهم ولغتهم وكل شئ لديهم » .

❊ من أجل استيفاء .

❊❊ (١٩٧١ - ١٩٣٥)

(١) Sir Arther Keith, A new theory of Human Evolution. (١)

London 1950, p. 303.

دخل محمد بن القاسم سنة ٧١٢ م منطقة بلكتان الحالية ، ويرى المؤرخون أن مؤسس الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية هو شهاب الدين محمد الغوري الذي فتح ملتان سنة ١١٧٥ م . وخضعت له جميع منطقة شمال الهند في سنة ١١٩٢ م . وبعد فترة زالت الامبراطورية المغولية التي استمرت لفترة طويلة تحكم في الهند (١٨٥٧ م) وذلك حين حاول المسلمون أن يحققوا النصر في هذا البلد . من طريق السياسة والسيف . وحين قامت الثورة تحطم قهر علمتهم وكانما لم يكن له وجود من قبل .

وتاريخ اسبانيا أكثر إيلاماً من كل هذا ؛ فقد ظل الحكم الإسلامي قائماً بها لسبعمئة سنة (٧١١ - ١٤٩٢ م) وهناك أبداع المسلمون في التوصل إلى المادية المتطورة ابداً لم تشهد الإنسانية كلها في ذلك الزمان ، حتى أن المسيحيين الذين هزموا المسلمين وأخرجوهم من اسبانيا كانوا قد تخلصوا عن المسلمين بفدجات كثيرة في الرقي المادي ، أقام المسلمون في تلك الفترة عدة مراصد لمراقبة الفلك ، يقول دريبر (١٨٠٠ - ١٨٨٢) عن مرصد إشبيلية : بعد خروج المسلمين Moslems من اسبانيا تحول هذا المرصد إلى برج لأجرام الكنيسة ، لأن أهل اسبانيا لم تكن لديهم دراية بطريقة استخدامه ورغم هذا التفوق المادي ظلت اسبانيا من المسلمين حتى انه لم يعد لهم من أثر يذكر سوى بعض الأطلال العزينة .

تكفي هذه التجربة التاريخية لإثبات أن الأصول الإسلامية إنما تقوم على حكمة سلمية فائقة تتمثل في أن نقطة بداية للنجاح الإسلامي كانت دائماً « الدعوة » وقد أعطى الدعوة وللبلوغ مقاماً وكان الدعوة هي اصل الخيط إذا ما أمسكنا به تمكنا من تحقيق النجاح والسيطرة على الحياة كلها ، وهي مفتاح قهر العدو والغلبة

عليه . وهي الطاقة التي لا يمكن أن تنفد لعلها البحر أو الجبال
أو الهندية أو المدفع .

وإذا ما وضعنا الحركات التي ظهرت في زماننا الحديث على
هذا المحك ونظرنا إليها من وجهة النظر هذه . فإن أيا منها لا يرقى
أبدأ إلى هذا المستوى الذي يجب أن تكون عليه حركة الدعوة الحقيقية .
إن كانت هذه الحركات حركات إسلامية سياسية وليست حركات
إسلامية تبايعية تهدف إلى الدعوة للدين الحق : نكل حركة تقريبا
جعلت من القضايا السياسية أساساً لكفاحها وجهادها ، بينما هدف
حركة الدعوة هو جعل التبايع أسساً للكفاح والجهاد . وبعبارة أخرى
فإن أية حركة من هذه الحركات لم تجعل بداية عملها من هذه النقطة
التي كان ينبغي حقيقة أن تبدأ منها . والسفر إن لم يتجه أولاً نحو
الوجهة الصحيحة فلن يمكن لصاحبه الوصول إلى هدفه . والضرر
الثاني لأسلوب هذه الحركة هو أن من تأثروا بالإسلام من خلالها
ظهر لديهم مزاج سياسي يشبه مزاج الحركات الدنيوية العسامة .
بينما الإسلام الصحيح هو أن يظهر لدى الإنسان مزاج حب الآخرة
والنتيجة الواضحة أن الإسلام لم يظهر بطريقة حقيقية واضحة عن
طريق هذه الحركات الحديثة ، لا على المستوى الاجتماعي ولا على
المستوى الفردي .

الشاكلة :

الفنية الثانية هي فنية الشاكلة . فليقنا لأسباب خاصة يعني
كل شخص وتبنى كل أمة الأسلوب الفكري الذي يفكر به الشخص أو
ترتكز عليه الأمة وبناء عليه يؤمن الإنسان بمسحة الأنبياء أو عدم
مسحتها . وينشأ تماماً في معظم الأحوال أن الحقيقة ليست هي تلك
الحقيقة المرسومة في مخيلته والتي اتخذت شكلها الخاص بمجرد

الصدقة . بل الحقيقة هي تلك التي علمها عند الله والتي أوضحها في كتابه الكريم :

« قل كل يصل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا »
(الاسراء - ٨٤)

والثال الذي تقدمه هنا يتعلق باليهود ؛ فاليهود يلاحظون إن الأنبياء يظهرون من نفس إسرائيل فرسخ في أذهانهم أن النبوة هي جزء من أسرة إسرائيل . ونحن بحث نبي آخر الزمان من الفرع الإسماعيلي لسيدنا إبراهيم ، لم يكن هذا أمراً مقبولاً لديهم وذلك بسبب عقائدهم ومخيلتهم وما رسخ في أذهانهم . فأنكروا الاعتراف بـ « بنو الإسماعيل » : ولم يفهموا ذلك السر . وهو أن النبوة ليست حكراً على أسرة ؛ فهذا هو دين الله يعطيه من يشاء .

« أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله فقد أتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (١) .

وهكذا فالذين الذي كان اليهود يعرفونه هو الدين الذي يعنى القربين التي تأكلها النار . ولم يفهموا قربين الذبيحة التي يأكلها الناس ولا تأكلها النار . لم يكن هذا الأمر مقبولاً أشاكتهم الذبيحة ولم يكن مقبولاً لديهم كيف يؤمنون بمن يدعى الرسالة ولا يعلمهم القربين التي تأكلها النار .

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار » (٢) .

(١) التوبة : ٣٤ .

(٢) آل عمران : ١٨٢ .

والمحاولات التي بذلها اليهود لتحطيم هذه الشاكلة توجد بالتفصيل في السور الأولى للقرآن الكريم . ويواجه التاريخ الإسلامي الحديث قضية « المشاكلة » أيضا فكما توجد للأفراد شاكلة أيضا : توجد للأمم شاكلة . فالأمم تنضى على شاكلتها (على بذاتها الفكري) وطبقا لهذه الشاكلة تقرر ترك الأمور أو اتباعها .

في القرن السابع الميلادي حين بعث نبي الإسلام ﷺ . كانت شاكلة العرب قائمة على أساس الشرك . وكانت هذه الشاكلة رابطة في كل مكان لابتداء من بناء الأسرة إلى الخلط السياسي . وفي هذا المناخ الاجتماعي تمكنت عقيدة التوحيد من إيجاد منفذ لها حين حطمت شاكلة الشرك هذه .

لقد جاهد نبي الإسلام ﷺ جهادا عظيما . وحطم هذه الشاكلة . وبطريقة كاملة قامت هذه الشخصية التي تمتعت بكل صفات لمطلب بتوحيد جميع القوى على هذا الأساس . فقدم مثالا عظيما على ضرب الإخلاص والتفحية والجد والجهاد وهو ما كان يلزم للتأثير في الناس : وبعدها بدأت النتائج في الظهور . فقد تغيرت العقول النردية في البداية : ثم تبعت بعض التبايل هذا التأثير بصورة كلية : ثم كان يوم فتح مكة (٨ هـ) حين تحطمت أصنام جميع القيسلج وجميع المعتدات : تلك الأصنام التي وضعت في مركز العرب (الكعبة) . وهكذا تحطمت بصورة نهائية الشاكلة المشركة . وكانوا يعتقدون أن محمدا كان يحقر هذه الآلية التي كانت طبقا لاعتقادهم تسيطر على نظام الأمور ولهذا غالبا أن ينزل عذاب تلك الآلية عليهم وعلى العكس من هذا حين شاهدوا خاتمة أرومعة صلم تحل . ولم تنفجر السماء ولم تتزلزل الأرض . تأكدوا أنه لا حقيقة لها : وهكذا حطم الفتح هذه الشاكلة نهائيا . وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا (١) .

وهكذا بدأ عهد جديد في تاريخ البشرية . فالعلم كله الذي سمى في أساس أكثر قبل ذلك . خضع لتأثير التوحيد . وأخذت احتجاب توحده . بجميع نوعيته ومدارسها الفكرية . وجميع حركاتها . وفي دائرة الدين عصر العديد من التراجعات واليهابات في شأنه وكان عصر هذه دين هؤلاء أربابا . إلا أنهم أصبحوا بعد انتشار عقيدة التوحيد يشرأ ويشترون جميع كبر . وهم عند الله عباده . وهكذا تم القضاء على عبادة البشر وبدأ عصر عبادة الله . وأصبحت مظاهر الكون التي يقسمونها قبلا عبارة عن مخلوقات لله . ومن هنا ظهرت لأول مرة في التاريخ فكرة استغلالها . وكانت البداية في بغداد وقرطبة وصقلية . ثم وصل الأمر بعد ذلك إلى أوروبا فكان أساسا للثورة العلمية الحالية .

وفي مجال السياسة كل أفراد الأسرة الحاكمة أشخاصا مؤلفين ، وبعد انتشار عقيدة التوحيد بدأ الناس يمسونهم كعباد الله . وهكذا ظهر فكر سياسي جديد ، وضع على أساس الشورى ووصل فيما بعد إلى أوروبا لثمة ونشور ونشر في حوزة نهضة عربية وموراث الثقور .

وستمرت تلك الفترة التي بدأت مع الإسلام وامتدت حتى لتنتهي الأوربية احتية لألف سنة كاملة . والمجددون الذين ظهروا في الأمة الإسلامية ابتداء من عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) إلى الشيخ أحمد سرمدى (١٤٦٤ — ١٧٢٥) ظهروا جميعا في تلك الفترة . كن أمهم علم عزته شائكة غير إسلامية . وكل خلال الناس في ذلك الزمن نوعا من العزلة أو الخيال وأم يكن نوعا من العيبان . ومن هنا تعد اشهر محاولات المجددين بالتفكير والنصيحة العامة فقط . ونحن ندوا يدعون الناس إلى الإنسائم كانت شائكة الزمان تساعدهم .

١٠٠٠ من حديث شريف :

« من أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا يزال الناس يشاغلون حتى يقال « خلق الله الخلق فمن خلق الله » فمن وجد على نفسه شيئا من ذلك فليقل : آمنت بالله تعالى » (١) .

كانت هذه هي التنبؤات الحاصلة بالدور التالي حين تتحطم القاعدة المسلمة من « الخالق » وبدلا من أن يتوقف الأمر إلى حد الشرك بالله ينكر أهل الدنيا الإيمان بالله وهيلقد يكون من واجب أهل الايمان ان يجعلوا من عقيدة الخالق حقيقة علمية مسلمة من جديد . وأن يعملوا على دهم الأسس الفكرية للاتحاد بكل ماقديم كما انهم أسس الشرك في القرن الأول .

بعد الثورة العلمية الجديدة بدأت فترة تاريخية تحضنت فيها مشكلة الإنسانية مرة ثانية وحلت مشكلة جديدة محل المسألة القديمة . مشكلة تقوم بأنكها على أساس الاتحاد . ومع ان بداية هذا العصر الجديد ظهرت مع النهضة الأوروبية الثانية إلا أنها كانت ملهوبة بنسب واضح منذ القرن الثامن الهجري . وهكذا مر على دور الاتحاد هذا منذ ستة تقريبا .

وفي الزمان القديم كان هناك أناس لا يؤمنون أيضا بالله ولا يؤمنون بالدين ؛ ولكن كثيرهم كان كفرا مجرديا . بينما الفكر في العصر الحديث اكتسب مقام للعلوم والبحث العلمي . واكتشفت العلوم الطبيعية ان العالم كله قائم على اصول الأسباب والعلل ؛ وأن هذه الأصول محكمة بقدر ؛ وأنه يمكن استخدامها إذا ما تعرفنا عليها . وفي عالم العلوم رسمت في الأذهان فكرة فحواها أنه لا حاجة لإله لتحريك الكائنات وهي بذاتها تمضي طبقا لقوانينها الذاتية . واكتشافات التطور في علم الأحياء أرشدت الإنسان الى أنه لا ضرورة للإيمان بالخالق

(١) صحيح مسلم : كتاب الايمان .

الحكيم من أجل توجيه الكائنات بحسبها ومعنوياتها ، فالأسباب المعروفة تنحى لتوجيه هذه الكائنات . ورغم زيادة قوة مشاهدة الإنسان دائنين المرات عما كانت عليه قبلا وذلك عن طريق الوسائل الآلية . إلا أنه لم يتراء له ، عالم آخر ، خارج العالم الملموس . ويعدها استقرار في الأذهان أنه لا يوجد أى عالم آخر غير عالمنا هذا ، ففى الزمان القديم كان القمر يعد إلهيا وإذن دلت أقدم الإنسان هذا انتمى . . هذه الأحداث وغيرها غيرت الفكر الإنسانى تغييرا كاملا وبدأ شكل جديد من التفكير يحصل مكانه فى الدنيا وهو ما عبرنا عنه بعبارة « شاكلة الإلهاد » . وكان قتل حركات التجديد وإحياء الدين التى ظهرت فى العصر الحديث راجعا إلى أن من قاموا بها رأوا أنه يكفهم الخى على أسلوب نذير . والتسويق التقليدى فقط قياسا على مهدي العصر الملقى . وظلوا على هذا الأمر بينما الزمان راح ومعنى من حيث جاء حين كان الأسلوب الأول هو استخدام القوة لتحطيم شاكلة الزمن . لأنه لو لم تتحطم الشاكلة لأن الإسلام لا يمكن أن يضل مكانه الصحيح فى الوقت الحاضر .

ماذا يجب علينا أن نفعل لتحطيم شاكلة الزمن ؟ هناك مثال على ذلك وهو الاشتراكية : عقبن الاشتراكية الجديدة كانت الدنيا كلها تعترف باحترام الملكية الفردية فى جميع الأحوال ولم يكن لأحد أن يتصور سلب شخص ما ملكيته الخاصة فمن يتخذ هذا من الناس فهو فى نظرهم غاصب وظالم . إلا أن هذه الشاكلة الاقتصادية تحطمت اليوم . وأصبح هناك ما يسمى « بالملحة الاجتماعية » التى احتلت أهمية تفوق الملكية الفردية . وأصبح من المسلم به أنه من حق الحكومة أن تزع ملكية من تشاء كما تشاء باسم الملحة الاجتماعية .

كيف تعطلت هذه الشاكلة ؟ إنها قصة لها تاريخ طويل يمتد إلى
قرن تقريباً . استعمل مصطلح « الاشتراكية » بالمعنى الاقتصادي
الحالي لأول مرة سنة ١٨٢٦ م في جريدة بريطانية تدعى
Operative Magazine؛ وظهر بعدها عدد من المفكرين كتبوا كتباً رائعة
دلّعا عن هذه النظرية . فلوجدوا ما عرف في دنيا الأدب باسم
الأدب الاشتراكي وقد كتب هاركس كتابه بعد قراءات لسترت
خصما وثلاثين سنة . وبعدها ونتيجة لهذا الطوفان الفكري ظهرت هذه
حركات كبرى نمضت عنها حركة الاشتراكية والبلشفية . والاشتراكية
المسيحية والتبوعوية وغيرها . هذا بالإضافة إلى انتشار شبكات
حركات التحرير واتحادات العمال في العالم كله . وفي سنة ١٩١٧ م
ظهرت حكومة اشتراكية في روسيا . وبعدها بدأت عملية نشر الأفكار
الاشتراكية على مستوى حكومة منظمة أضلفت إلى قدرها ونوعيتها
إضافات ضاعفت من حجمها آلاف المرات . وهكذا أمكن نزع الملكية
الخاصة للناس في مساحة ضخمة من الأرض . وأقيم النظام
الاشتراكي واعترف الفكر العالمي بهذا العمل كإجراء اقتصادي مشروع
في العصر الحاضر . وهكذا فإن تعطل شاكلة الإلحاد يستلزم هذا
النوع من الكفاح والجهاد الطويل ؛ وبدون هذا الأمر لا يمكن إحلال
الإسلام محل هذه الشاكلة في دنيا اليوم .

لقد شملت حركة الخلافة أو حركة الوحدة الإسلامية رغم جميع
إمكاناتها ؛ ولم يكن السبب في ذلك حقيقة « مؤامرة » ما ؛ بل أن
الظروف العالمية في ذلك الوقت قضت على تلك الحركة فحين يجذب
طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن ننف
ضدّها لية جزيرة ، إلا أنه عن طريق طوفان مضاد يمكن تغيير الأفكار
العالمية . إن مسؤولية فشل بعض الجماعات الإسلامية في مصر لا تقع على

دعوا « معارضة الإسلام » بل إن سبب هذا القتل هو أن الأسلوب
لجريء لحدائق آيات الإسلام تمثل في محاولة إنشاء منارة سياسية
إسلامية في بلادهم دون تغيير الطريقة الفكرية للجماهير وذلك فيعيا
يعمل على طوحي لاجتماعية . وهكذا أيضا فضل الإسلاميون في
إقامة حكمه إسلاميه وكان السبب في ذلك أيضا هو
أنهم افترضوا — على الرغم من مستلزمات العصر — إمكانية إقامته
مودة إسلامية على أساس نظري غلط .

قضية جديدة :

إن ما نعلق عليه « قضية الإسلام الجديدة » بدأ منذ خصمته
سنة حين اكتشف الملاح البرتغالي ناسكودى جاما (١٤٦٠ — ١٥٢٤)
الطريق البحري بين الشرق والغرب . ومن ناحية أخرى عبر البحر
الاطلسي كريستوفر كولومبوس (١٤٤٦ — ١٥٠٦) الأطلسي غربا
للعالم القديم بجعلهم الجديد برباط بحري . بعد هذه الاكتشافات
ذهبت الملاحة البحرية عمرا جديدا .

وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كان هناك طريقان للتقدم
من أوروبا إلى الهند : الأول طريق برى والثاني بحري وهو المؤدى إلى
الخليج ومصر . وكان انطريقان كلاهما في يد العرب . وكان التجار
العرب في ذلك الوقت يسيطرون على المناطق السلطانية لجنوب الهند .
وعنى غزوهم البحري لنشر الإسلام في تلك المناطق بسرعة .
وأصبح عدد المسلمين في منطقة ما لا يار كثيرا لدرجة أن المسلمين
الهندي في ذلك الوقت عين لهم قاضيا مسلما ليفصل في أمورهم
المتنازع عليها . وكان يطلق عليه « هنومند » أى صاحب العلم
والنفسيلة . وقد قدم التجار العرب إلى الهند من موانئ خليج فارس
ومن أشهرها سيراف والبصرة . ثم عبروا البحر وعملوا على سواحل

مدى والتجارات ووصلوا إلى سواحل مدراس . ومن ههنا وصلوا إلى البنغال الشرقية وأسام وعلما عبروا إلى الصين وانتشروا وهم في خريفهم هذا في جزر مالديف وسيلان وسلفاقورة وجاوا وبومطرة وبقيت الجزر المحيطة بها وأصبحت معايرهم التجارية مراكز لمحاولات نشر الإسلام . إلا أن هذه المحاولات قد انتهت مع نهاية القرن الخامس عشر . على سنة ١٤٩٨ م وصل فاسكو دى جاما عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى السواحل الجنوبية للهند ودخل مدينة (كالي كت) وقلم البوق في سنة ١٥١١ م بالاستيلاء على « ملكا » وأقام قسوا بحرية برتغالية في بحر الهند . ثم خضعت جاوا لسيطرة البرتغاليين : وكانت سيطرة البرتغاليين على بحر الهند في زمان أكبر (١٥٤٣ — ١٦٠٥) قد وصلت إلى حد قتلهم بسلب ونهب امتعه الهجاج المتوجهين إلى مكة من الهند . وكان من بينهم عادة بعض أفراد الأسرة الحاكمة والأمراء . ويقول أحد المؤرخين : « عرفت راية الامبراطور المعالي على الطويق البري بينما كان البرتغاليون يملكون البحر » .

سيطر البرتغاليون على بحر الهند وحرعوا العرب من تجارة جنوب الهند . ولم يمسد من الممكن للعرب الوصول إلى الهند عن الطريق البحري الذي لم يكن أسهل السبل للسفر فقط بل كان أسهل السبل لنقل الأمتعة والبضائع التجارية . بعد انتطاع العلاقة بين جنوب الهند والتجار العرب توقفت عملية الدعوة إلى الإسلام ، وانتشره في تلك المنطقة كلها ، وأصبح هذا الأمر حكاية يذكرها التاريخ .

بعد وفاة فاسكو دى جاما بأربعين سنة ولد الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) وكان زمانه موافقا لتلك الحادثة التي وقعت على سواحل الجنوب والتي منعت تاريخا جديدا لهذا البلد . إلا

ان احدا لم يدرك من هذه الواقعة فقد كان الجميع يتولفون في عالمهم الموهنى حتى يتمكنوا من الوصول إلى اجتهادات في ابحاث معقدة عن وحدة الوجود ولهذا ظلوا لا يدرون شيئا عن هذه الواقعة التي جذبت جددهم . تعددت ثغرات الأهم المغربية قواتها البحرية وسيطرت على سواحل البلاد . ثم وصلت قواتها إلى حد السيطرة على المنطقة الساحلية فوجدت فيها من مفرس إلى بعضى وإلى تلكته وأصبحت « سلمته دحلى » امام هذه القوات بلا حول وبلا قوة . فقد كانت الامبراطورية المغربية مسئولة بفعلة اكبر : تحاول إصلاح ما اسدته هذه الفتنة إلا ان فتنة البرتغاليين لم تلتصق لهم وكانت من حيث نتائجها المتوقعة اكثر خطراً من غلبة أكبر . وكان حيدر على (١٧٢٢ — ١٧٨٢) والد السلطان تيبو هو أول من شعر بأهمية القوة البحرية فحاول إقامة مصنع للسفن البحرية في جزيرة (مالديف) إلا أن الوقت كان قد ولى . فلم يحقق أى نجاح في مشروعه .

والشيء الذى اوجد عنصر القوة والغلبة في العصر الحديث هو الآلة . وقد بدأت ثورة الآلة باكتشاف البخار : أى الاستخدام الصناعى لقوة البخار . فقد كان اكتشاف محرك البخار عاملا لإمكان وجود صناعة حديثة . كان الإنسان قبلها يستخدم قوته العضلية ، أو يستخدم الحيوان أو الماء والهواء في بعض الأحيان ، أما الآن فهو يمتلك هذا المحرك الذى يعمل بقوة ألف حصان . والذى بدأ يعد لصناعة باخوة والمناطة . وأخذ يجرى بالإنسان بسرعة فائقة على البر والبحر . هذه هي ثورة الآلة التي مكنت أهل الغرب من هيمنة العالم المتمدن القديم والسيطرة عليه .

كان أول من اكتشف أول محرك بخارى الإنجليزى توماس سيورى (١٦٥٠ — ١٧١٥) ومن الحير أن توماس سيورى كان معاصرا لأولئكريب (١٦١٨ — ١٧١٧) وقد صمم توماس سيورى أول محرك

بخارى في سنة ١٦٩٨ م وذلك إبان حكم الامبراطور الكبير الهند .
وكان نموذجاً لامبراطور أدى جمع بين الدين والسياسة .

ومن ناحية أخرى كان السلطان احمد الثالث (١٧٣٣ — ١٧٣٦)
يعلى عرش الامبراطورية العثمانية . إلا أن كلا من الامبراطورية
الحوالية والامبراطورية العثمانية كانتا بمعزل عن العالم : فلم تعرفا
بخطر هذه الثورة التي حدثت في مولدين الطائفة . تلك الطائفة التي
استمرت وكانت في النهاية سبباً في القضاء على هاتين الامبراطوريتين

وهناك حادثه اخرى لها اهمية كبيرة من وجهة النظر الإسلامية .
وتتمثل في اختراع المطبعة . ويقال إن اول من نجح في بناء مطبعة من
الخشب كان ألماني يدعى توماس بيرك (١٣٩٨ — ١٤٦٨) وقدم وليام
نيكولون الانجليزى ببناء اول مطبعة من الحديد . ومهم اول مطبعة
تعمل بدالة . كان هذا في سنة ١٧٩٠ في الوقت الذي حقق فيه بعض
المسلمين نجاحاً كبيراً في حركتهم ضد « التبذع » في هذا الوقت
كانت جريدة التايمز اول جريدة طبعت بمطبعة تعمل بمحرك بخارى في
٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ في وقت كانت تعيش فيه شططيات إسلامية
كبيرة . إلا أن العالم الإسلامي كله لم ينتج رجلاً واحداً يشعر بأهمية
الأمر في حينه ويدرك أن هناك طائفة جديدة ظهرت في العالم اسمها
المطبعة وتربوا ستسيطر على عقول الدنيا كلها : وأول من أدخل
المطبعة إلى مصر هو نابليون (١٧٦٩ — ١٨٢١) ومن مصر انتقلت
المطبعة إلى البلاد العربية تدريجياً .

وهناك أمر آخر يحل مكان الصدارة من وجهة النظر الإسلامية.
وهو ما يتعلق عليه « المسلم الحديث » . بدأت الإرساليات الأولى
لتطوير العلم الحديث منذ فترة طويلة غير التاريخ البشري : إلا أننا
نلاحظ دائماً أن عصر العلوم كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى

مستوره ذلك تزيح البشريه . وقد بدأ العصر الحديث من هذا
الحصى من نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) .

وبدأ نساء وبني الله دعوى (١٧٠٣ - ١٧٦٢) حين كان نيوتن حيا .
وقد صدر كتابه المشهور عن التفسيرية (في ١٧٨٧م) . إلا أنه حين
حطمت الأمم المعادية للإسلام عتيل العلم التقليدي . وبدلت في ايحاء
علم جديد فإن بعض المصلحين في ذلك الوقت نزل عتيله التقليدي .
وهم يثمن في تزيين أو التزيح في علم نصية العصر . لقد نرح
بعضهم نرحب وايضا نروحيات التصوف التسلخ . مع ظهرت
في نقد الفسافة الشجرة الفكرية التي أطلق عليها
ر الجمهورية . : فكانت جمهورية الثورة الفرنسية (١٧٨٩) . وانفصل
عن أمريكا عن إنجلترا وأقاموا حكومتهم القومية (١٧٨٣) . ومع
أن ذلك حدث بعد هذا العهد إلا أن العوامل الفكرية لكل هذه الأمور
كانت قد اكتظت في هذا الزمان حتى أن روسو كان معلما تماما لهذا
العهد ونحن الشوقان السياسي كان له تأثير بعيد المدى ، في هذا
العصر . : بعد حدثت الثورات الجمهورية في أوروبا وأمريكا . إلا أنه
سحب على مصلحي هذا العصر أن يقيموا لأممهم خطة مؤثرة تحرك
اجتماعية تتلائم مع ظروف العصر الحديث في ضوء الدين في وقت
كانت فيه أصول الجمهورية أو بعبارة أخرى حكم الأقلية المسلمة
سياسية معترف بها في العالم . ونفى العلماء والمفكرون جيلا بعد
جيل بالروح والمثل في سبيل قيام حكومة ذاتة على أساس القومية
الوطنية ، ولم يكن من السهل أن تتوضع تمكن الأقلية المسلمة من الفوز
والغلبة في بلادنا هذه مسرة ذنبه حيث أغوزتهم الداية بالتغيرات
السياسية الجديدة في الوقت الذي وقعت فيه ثورة ١٩٤٧ ، واتخذت
القرار الأخير . وأجبرت المسلمين على أن يكتسوا ، وهم يشاهدون
بحيرة أمانهم المقتولة : وهكذا يعيشون من هذه الدنيا .

بعد وجد مصلحو الأمة في العصر الحديث قرصاً لنعت لا حصر له : عقد كان (عبد العزيز مذكر) في أندونيسيا (١٩٠٢ - ١٩٧٣) من الأصدقاء المقربين للرئيس سوكنرو . وشتم من البدء في اتخاذ إجراءات وأعمال كثيرة في سبيل رضى الدين واستحكامه في البلاد كان له عظيم الأثر في تشكيل المجتمع في أندونيسيا حتى بعد غيابه وبعد غياب سوكنرو إلا أنه اختلف مع الحكومة في ذلك الوقت على مسأله تشكيل الدستور الإسلامى وكانت النتيجة أن انتقل من هذا العالم وبه نصدر عنه سوى الاحتجاجات والشكوى فقط .

كان هذا هو الحال بالنسبة لجميع البلاد الإسلامية في ذلك زرع : فصدر والشام حصلت على مقالة الزعامة والقيادة الفكرية في علم الإسلامى نظراً لما يتمتعان به من مميزات تاريخية وجغرافية . وقد وهبهما الله العديد من الشخصيات الإسلامية . وحين التقى جمال الدين الأفغانى لأول مرة بالأمر شكيب أرسلان صدرت عنه على الفور هذه العبارة :

« أنا أعنيه أروض الإسلام التي أفتيتك »

ولو نامت هذه الشخصيات العظيمة التي ظهرت في هذه المنطقة في عصر الخاضر بالاستفادة الصحيحة من الامكانيات المعطية . ولم تصدم صدامات غير ضرورية مع أصحاب السلطة لشهد العالم الإسلامى اليوم تاريخاً جديداً . لقد كانت هذه الشخصيات قد وجدت الفرصة للعمل في المنطقة الإسلامية واستمر عملها من حيث المجموع إنتره زادت على قرن من الزمن ، وهم لم ينالوا فقط شهرة واسعة بين عامة الناس بل كان من بينهم من له تأثير كبير لدى الطبقة الحاكمة . مما كان يعطيهم فرصة كبيرة للإصلاح الدينى .

ولكن مدعاه افقرهم هم يكن سوى ضييع هذه الفرصة والجري وراء امرى اخرى لم تكن لتوافر فى ذلك الوقت فقد فهموا العمل على نه مزارع سياسى مع اهل السلطة كان حولهم العديد من القومى اننى شيع بهم اهم الاعمال : اصلاح الاخلاقى لنمسين . اعداد اقبى اسلامى ياتكم عصر الجديد . بناء الامة الإسلامية بدءا مناعية وعلميا : العمل على وحدة العالم العربى . لقاء الضوء على اهمية انقواء الطبيعة انقطعة للبرول والاستفادة منه : تبليغ الإسلام فى قبائل إفريقيا غير المسلمة اننى تتختر نفوسنا منذ شرون : العمل على رفع المستوى التعليمى والاقتصادى للمسلمين فى بلاد إفريقيا المسلمة نتيجة لانخفاض المستوى التعليمى والاقتصادى . سيطرت عليهم الاقلية المسيحية هناك . لكن هذه القيادات العظيمة رغم إخلاصها الكبير ورغم ما صدر منها من تلميحات خالية لم تتمكن من القيام بأى عمل من تلك الاعمال السابقة على سبيل المثال .

وهناك خطأ اجتهدى لدى المسلمين فى العصر الحاضر : فقد اعتقدوا أن من الواجب البدء فى المطالبة بتنفيذ الشريعة الإسلامية فى تلك البلاد التى توجد بها اكرية مسلمة والتى يحكمها المسلمون سياسيا . وكان هذا خطأ ما بعده خطأ ولا توجد له من نتائج عمالية سوى انهم صاروا حزبا معارضا فى بلادهم واستقر أمرهم على هذا . وإذا كانت الظروف الخاصة فى البلاد التى توجد بها اقلية مسلمة تسمح لنفسه على عتق الاكرية المحلية غير المسلمة ، فإن ذات الطبيعة فى البلاد التى توجد فيها اكرية مسلمة تتمثل فى الظروف العالمية . بالإضافة إلى أن من يسيطرون على جميع انواع الحكومة فى البلاد المسلمة إنما هم أولئك الذين درسوا فى إدارات ومؤسسات على الدوائر الغربى لأنهم هم الذين يتكون الكفاءة التى تمكنهم من إدارة لبلاد فى هذا العصر الجديد . ولهذا فإن الطبقة الحاكمة فى البلاد

إسلامي رعيم أنها بالطبع متعاضدة مع الإسلام إذ أنها من حيز المزاج ليست على استعداد تام لإعلان قيام دولة دينية خالصة . ومصر وبغداد واندونيسيا أمثلة على هذا الأمر : فرغم ما حققتته الحركات الإسلامية في تلك البلاد في وسط ظروف انحالي من شهرة ونجاح إلا أنها - للأسف - لم تنجح في تطبيق الشريعة الإسلامية . ولقد توطرت لمصنعي الفرض لأنهم في بلد إسلامي . وتولفت لهم سبيل الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة . إلا أن كل هذا صاع وانتهى نتيجة للخلافات والاحتجاجات السياسية .

مقد اختار وجاء بن حيوة مرافقة الحاكم الاموي سليمان بن عبد الملك فأعده ليصبح للخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ - ٧٢٠) . ولقد قبل القاضي أبو يوسف منصب قاضي القضاة في عهد هرون الرشيد ليوضح للناس كيف يمكن للإسلام أن يقف في الظروف المتغيرة للزمان . والشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ - ١٦٢٥) نظف مع الامبراطور المغولي جهانكير ونجح في محاولة القضاء على بدع لكبير .

هذه الدائقة في المصالحة مع الحكام كانت وسيلة المسلمين المبشرين في العمل من أجل الإصلاحات الجزئية . ولو أن مصلحي وطننا الخاصر قد قاموا بمثل هذا واتخذوا منه وسيلة لحركات إحياء الإسلام غابتهم بذلك سيؤدون عملا عظيما من أجل رفعة الدين وقلبة الإسلام . عمل مازلنا تفكر فيه الآن . تفكر فيه فقط ولا تفعل شيئا من أجل تنفيذه .

بناء الأمة

مع ان الدعوة الإسلامية بدأت في منطقة لم يؤمن فيها بالإسلام سوى نادى لقط فقد ظل التركيز مستمرا على حركة الدعوة الإسلامية بالإنذار والتبشير . ولذا ما وجد من آمن بالإسلام أصبح من واجبه الداعي بضرورة العمل على تجميع هؤلاء الناس وبنائهم داخل أمة . كما نشاهد بالنسبة لموسى عليه السلام : فقد صدر الحكم الإنهى له بالذهاب إلى فرعون وإلى أتباعه مصر ليطلعهم على اليوم الموعد (أقمها إلى فرعون إنه طغى) (١) ومن ناحية أخرى ظل يقوم بعمله الأخرى وهو تخليص مسلمى ذلك الوقت (بنى إسرائيل) من العذاب فرعونى (فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) (٢) وهذا العمل الناتج عبر عنه الكتاب المقدس كما يلي :

(تخليص أمة من نجاسة) [الأعمال ٧ : ٣٥]

ولقد وقع تأثير ما يظن عليه اسم العصر الحديث على المسلمين بصورة واضحة لأن الأمم الغربية — التى سيطرت على العالم بتوابعه الجديدة — كانت تحتل العالم الذى سيطر المسلمون على الجزء الأكبر منه . وكان رد الفعل الطبيعي لظهور حركات تهدف إلى إعادة بناء أمة الإسلام . وفيزيد هذه الحركات على نطاق واسع . وذهب فيها على سنة لأن . ولكن لم يتمكن المسلمون حتى اليوم من استرجاع دولتهم الخائصة . والسبب هو أنهم لم يستلموا فهم أسس فنياتهم . وظلوا يبحثون عن مستقبلهم وسط تدابير سطحية وعاطفية . قدمت الثورة الاشتراكية الروسية (١٩١٧) والفترة التركية

(١٩٢٢) في زمن واحد تقريبا . أضف إلى هذا أن مؤسس الثورة التركية مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ — ١٩٣٨) عاش أربع عشرة سنة فوجد فرصة للعمل أكثر مما وجد مؤسس الثورة الروسية فلاديمير لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) إلا أن الوضع الآن هو أن الروس يرسلون بمراكبهم الفضائية إلى الفضاء . والأتراك لم يتمكنوا بعد من تثبيت اقدامهم على الأرض .

وهذا الوضع ليس مجرد صدفة محضة إن وراءه أسبابا تاريخية عميقة . نحن استولى كمال أتاتورك على السلطة في تركيا رأى بل يعتقد أن سر الرقي والدينية يكمن في تقليد الحضارة الغربية ذلكا : « نهر » الدولة الدينية « القديمة إلى دولة « علمانية » ونفس على مسانوف الشريعة الإسلامية ويطبق في تركيا القانون لدعواتي الشيوعية . والقانون العسكري الإيطالي . والقانون الدولي القصرى لالمانى . ومنع التعاليم الدينى وأصدر قانونا ضد الحجاب : ويطبق لتعليم الماشط وقضى على اللغة التركية المكتوبة بحروف عربية و مستبدل بها الحروف اللاتينية . ومنع الأذان بالأغنية العربية ولم يسمح بالأغاني لأداء فريضة الحج بمكة وغير الزى القومى وأصدر قانونا يلزم لبس القبعة حتى أن مسألة لبس القبعة أصبحت وكأنها حرب منظمة داخل تركيا . وأعدم العديد من الناس لأنهم رفضوا خلق الطربوش وارتداء القبعة . واعتقل آخرون وأعدموا لأنهم استمروا بالقبعة أو رفضوها . وبعد حرب شديدة نجحت مهمة إلباس الشعب التركي القبعة وأعلن كمال أتاتورك انتصاره فأرسل إلى المؤتمر الإسلامى بمكة (١٩٢٧) مندوبا من البرلمان يدعى أديب ثروت بالاشتراك في المؤتمر ممثلا لتركيا . وكان أديب ثروت هو الممثل

ابراهيم في المؤتمر الذي يرتدى القبة وقد استقبله بقيه على اهلاد
الإسلاميه بانقباض شديد^(١) .

ماذا فعل لينين بعد السيرة عن الحكم في روسيا ؟ لقد أنشأ
أجنة للترجمة من اللغات العالمية في سنة ١٩٢٢ وأسماها *Uchenii*
وكن عليها جميع كتب العلوم والتقنية المكتوبة باللغات الأجنبية .
وترجمتها إلى اللغة الروسية . واعتبر لينين هذا العمل ديمًا لدرجة أنه
أشرف عليه شخصيًا رغم اشتغاله بالعديد من الأعمال الأخرى . وكانت
النتيجة جمع العديد من الكتب التي مثلت ذخيرة ضخمة بروسيا
وأستقر هذا العمل حتى أنه اليوم يصدر جرنال روسي بعنوان
Kulturny i Nauchny يحتوي كل عدد منه على ملخص لليون
منان على وثقتي صدرت بسبعين لغة في ١٩٧٧ بلا . وحتى يتم
هذا العمل تم تعيين مائة ألف خبير مترجم في هذا الجرنال . كما يتم
تعيين المترجمين الخاصين لاتحاد معاهد المعلومات والتكنولوجيا
All Union Institute For Scientific and technological
Information

الفن وخمسمائة مترجم بالانجليزية إلى ٢٢ ألف خبير مترجم يعملون
بعض الوقت : وفي روسيا الآن أكثر من خمسة آلاف مؤسسة علمية
تضم تقريبًا مليون عالم من بين أعضائها . كما تم وضع نظام تعليمي
في روسيا ضمن وجود عدد ضخم من يستلعيون الكتابة والترجمة
بلغتين في وقت واحد . وكان من نتيجة هذا العمل المتواصل أن كانت
روسيا أول بلد يرسل أول تمر مداعي إلى الفضاء (١٩٥٧) . وذلك
في دربح الانسانية . ويحتل العلم الروسي والتكنولوجيا اليوم
أهميه كبره لدرجة أن ٢٥٠ جرنالاً علمياً روسيا تطلب في أمريكا

^(١) Ibram Ogra Mangano, Ana tak Michael Joseph Loh.

ونتوَّجهم كلها جميعا حرما حرما إلى اللغة الإنجليزية وبهم نشرها بعد ذلك .

ما هي الأسس التي توضع عليها عملية بناء واستحكام الأمة ؟
أوضح القرآن الكريم ثلاثة أصول خاصة :

— تليم الأمة

— الاقتصاد

— القوة المربية

١ — عبر القرآن عن المال بالقيام (أموالكم التي جعل الله لكم قياما) (١) ويأتي القيام أيضا بمعنى العون والتحميد (Support) . قام على عياله أو هو قيام أهله . ويقتل أيضا حين يكون الشخص عونا لأهله وعياله . وقد جعل الله المال أو الاقتصاد عونا اقتصاديا للإنسان في هذه الدنيا . وعن طريقه يستطيع أن يمد حاجات حياته التي يتمكن بها من الحفاظ على جسده . ومن هنا دور يصبح مالكا لتلك الوسائل التي توجد في هذا انعالم المادي والتي نحتاج بالضرورة إلى قدر من الجهد والكفاح للوصول إلى النجاح . وقد جاء من بين دعاء النبي : اللهم إني أهوئ بك من الفقر . وتعجبت عائشة وسألت الرسول . أثلت هكذا ؟ فقال نعم يا عائشة ، (كاد الفقر أن يكون كفرا) .

وقبل خمسمائة سنة كل المسلمون يسيطرون على اقتصاديات انعمه : ولكنهم اليوم حرموا من « القيام » الاقتصادي : والسبب هو أنهم لم يفهموا اقتصاديات العصر الحديث . ولهذا غسلوا أيضا في أن ينهضوا ويتطوروا باقتصادهم : على العصر القديم كل الاقتصاد مقصورا على الإنتاج الزراعي (الزراعة والفلاحة والبستنة) ولكن في

العصر الحديث تغير معنى الاقتصاد تصامها ، فكبر ومساائل امتلاك الاقتصاد الآن هي الصناعة والتجارة حتى أن الزراعة أيضا أصبحت في العصر الحاضر إحدى الصناعات ، لقد تدخلت التقنية الحديثة الآن في كل شيء ، حتى تحولت الثروة بطريقة طبيعية إلى أيدي أولئك الناس الذين يمتلكون التكنولوجيا ، وتمثل التقنية القومية الأساسية للمسلمين في أنهم لم يتقدموا أبداً عن عصر الزراعة التقليدية والتجارة التقليدية ، والنتيجة هي أنهم أصبحوا أمة من الدرجة الثانية من الناحية الاقتصادية في العالم ، هذا باستثناء الدول التي تلك الثروة نتيجة لخزون المصادر الطبيعية دون أن تبذل أي جهد ، وعلى سبيل المثال دول الخليج العربي وذلك بسبب البترول .

فإذا أراد المسلمون أن يعيشوا في هذا العصر الحديث فليطلبهم أن يفهموا المتغيرات الاقتصادية الجديدة وذلك بصورة أساسية وضرورية وأن يعملوا على معالجة اقتصاديات العصر الحاضر وإلا ظفوا غريسة سهلة لسيطرة الأمم الأخرى ثم يصبحون في النهاية أمة منبوذة اقتصادياً بين دول العالم .

وحركات المسلمين الكبرى التي ظهرت في العصر الحاضر راحت — بدون استثناء تقريباً — ضحية هذا الخطأ ؛ فقد أعطت للثورة السياسية اهتماماً أكثر مما تستحق بينما الاقتصاد وماله من صلاحيات ومكانة في عصرنا الحاضر يخلل المكان الأول ويليه بالفرجة الثانية السياسة فالسياسة هي اليوم في يد أولئك الذين يمتلكون الاقتصاد ومن لا توجد في يده القوة الاقتصادية لا تكون له أية سياسة .

في فترة قريبة مضت ألقينا شططصلت رفعناها إلى الريمالانيا من الناحية السياسية ؛ ورغم هذا لم تحصل على المكافحة التي كان يجب أن تحصل عليها مثل هذه الشططصليات العظيمة ؛ والسبب الوحيد هو م ١٣ — واقفنا ومستقبلنا

أن تخميناتنا هذه لم تتمكن من فهم فرق الزمان فقد ركزوا كل اهتمامهم في الزمن الحالي على السبيلة قياساً على المنفى . لم ينفذوا أى جهد حقيقى في سبيل تطوير وتعزيد اقتصاد المسلمين : ثم إن الاقتصاد في زماننا الحالي يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببقية العلوم الجديدة ، التى تفيد في جميع الأعمال ابتداء من الفلاحة حتى استخدام الآلة ، وهنا أيضاً أثبت المسلمون غفلة محيرة ؛ فلم يفهموا العلاقة الجديدة بين التعليم والاقتصاد وفتحوا وظلوا على قناعاتهم بالمعلوم التقليدية لقرون من الزمان ، وانغمسوا في ذلك لأحر مدى وظفرت نتيجة هذه الغفلة في النهاية . وجاء جيل بعد جيل حتى أصبح العالم فيهم جاهلاً إذ ما قورن علمه بالتطور العلمى في عصره .

٢ — والثىء الثانى اللزوم لبناء والاستحكام الأمة هو الاقتصاد : « ولا تنازعوا في فتاقلوا ونذهب ربحكم » (١) ومن المعروف أن الاختلاف بينت الجبن ويتبنى على المهابة القومية . وعلى العكس من هذا إذا ما تحدثت الأمة فإن شخصاً واحداً يسلوى بمائة ألف شخص ؛ فالاتحاد يولد لدى الناس الهمة والثقة بالنفس ويعلى من سمعة المسلمين بين الأمم وأهمية الاقتصاد في الدين أهمية كبرى حتى أنه لا يستحب أن يوجد في مسجد واحد مجالسان في آن واحد .

رأى ابن مسعود خالتين في مسجد الكوفة ، غلام بينهما لحال : أينكما كانت قبل صاحبها ؟ قالت : إحداهما : نحن . فقال للأخرى : قوموا إليها فجلطهم واحدة » (رواء الطبرانى في الكبير)

وبناء على أهمية الاتحاد قدم الصحابة اعتماد الطائفة على تجهيز وتكثيف النبي ﷺ بعد وفاته : جاء في إحدى الروايات :

« عن عيادة بن الصامت قال : خرج ابنى شيخ ليخبرنا بليلة الضر
فناهى رجلاً من المسلمين فقل : خرجت لأخبركم بليلة الضر
فناهى فلان وفلان فركعت » (١).

ويعد أن نقل ابن كثير هذه الرواية على بقوله : « يفهم من هذا
الحديث أن الإسلام ينطئ النزاع بين المسلمين لدرجة أن البركت تضيع
بسببه ».

والأمة المحمدية تحمل « كناية محفوظاً » ولهذا فلا يمكن لأحد أن
يفضى عليها غوذه الأمة مستظل بإقية طالما بقى القرآن على هذه الأرض ،
ومضى هذا أنه لا يمكن لأية قوة خارجية أن تصيبها بضرر حقيقي ، وإذا
اصيبت بضرر فيكون من جراء غفلتها الداخلية ، ويأتي على رأس هذه
الغفلة النزاعات الداخلية ، قال شيخ في خطبة حجة الوداع :
« ألا لا ترجموا بعدى كثيراً يشرب بمضكم رباب بعض » (٢).

ولقد أثبت التاريخ بطريقة محيرة هذه التنبؤات على القرن الثالث
عشر الميلادي حيث طوفان التتار الذي غطى العالم الإسلامي بالقتل
والدمار وجعل منه مقبرة . هذا بينما مر على العالم الإسلامي عصر
شبه ظهور صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ — ١١٩٣) الذي هزم الأمم
الغربية هزيمة منكرة . وكان لهذه الحادثة أثرها في تثبيت الكفاءة
الحربية للمسلمين لدرجة أن أية قوة سياسية لم تكن لتجرؤ بعدها على
التحرك تجاه السلطنة الإسلامية : إلا أنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي
بأقل من عشرين سنة كان هجوم التتار على العالم الإسلامي ، لقد كان
السبب الرئيسي والوحيد لما حدث من الطغافات الداخلية : فائتاء تلك
الحملة كان السلطان الظاهر لدين الله (١١٥٨ — ١٢٢٥) قائماً على
إخلاقه في بغداد بينما كان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه (١١٢٠ —

(١) مختصر مختصر من تاريخ السلطنة الثالثة ، ص ٦٦٢ .

(٢) مختصر مختصر من تاريخ دولة التتار .

١٢٢٥) حاكمها على منطقة خراسان وما وراء النهر ، ظم بن خوارزمشاه بفتح ذكر اسم الخليفة في الخطبة . ووضح خطة للهجوم على العراق ليضمها إلى سلطنته . وعلم الخليفة الناصر لدين الله بالأمر وحتى يقوم بدعاء عليه أرسل خطابا — سرا — إلى التتار ليهجموا على ابن خوارزمشاه وكان يعتقد أن ابن خوارزمشاه سوف يتسلل بهذا بقضية الدفاع عن نفسه . وأن يفكر في الهجوم على العراق ، واستفاد التتار من هذا الخلاف . فجهموا على ابن خوارزمشاه وقتلوا على هذه السلطنة . ثم بدلوا يهتكون بقيادة جنكيزخان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بقلب هادي ليهجموا على سلطنة الناصر لعين الله . وقاموا بتخريبها وتخليصها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب في القضاء على الحكومة الإسلامية بأسبانيا هو أيضا الاختلافات الداخلية ، ففي الوقت الذي هزم فيه مسلمو أسبانيا على يد الأمم المسيحية كان المسلمون يتفوقون عليهم في العلوم والتقنية تفوقا كبيرا ، ولكن سبب الهزيمة هو أن المسيحيين كانوا متحدين مع بينما كان المسلمون يتصارعون معاً ، وبدأ عمل الإنجليس يعلنون العميان وينفصلون عن مركز الخلافة مستقلين بما في أيديهم ، فأفلموا إمارات صغيرة مستقلة حتى أن أحدهم لم يكن يدخل من الاسماعة بالجيوش المسيحية لقتال المسلمين . لقد تمت هزيمة المسلمين السياسية في أسبانيا في آخر القرن الخامس عشر الميلادي حين استولى المسيحيون على قلعة غرناطة واستولوا إخلاء البلاد من المسلمين قرنا من الزمان ، ورغم هيليات الإيالة الجماعية التي حدثت ثلاث مرات إلا أن آخر حوادل المسلمين خرجت من أسبانيا سنة ١٦٠٥ ، وكان السبب في هذا هو سيطرة المسلمين هناك على الاقتصاد والآداب والفنون ، ولهذا لم رغم القضاء على سلطنتهم السياسية . لم يكن من الممكن إخلاء البلاد منهم على الفور . وهكذا كانت نتيجة الخلافة . فحين عدم الطائف لم تكن هناك من فائدة لأي عمل يقومون به .

دخل محمد بن القاسم إلى منطقة باكستان الحالية من طريق ملتان سنة ٧١٢ م ، ولم يدخل البلاد غلوريا كما فعل محمود الغزنوي أو باهر . بل دخله يدين الرحمة وكما يقول أحد المؤرخين : « كان أهل من اتو سيردان وكان رحيمًا راعيًا قروية » . وهكذا وخلال سنوات قليلة انتشر الإسلام من سواحل بحر العرب إلى كشمير . واعتبره السكان المحليون ملائكة . ويعمد عودته أعلنوا له مائتاً (فيكتي أهل الهند على محمد وسوروه بالكيرج — أيلانوى) : وقد قام سليمان بن عبد الملك (م ٩٩ هـ) بعزل محمد بن القاسم واستدعائه إلى دمشق لسبب غير مفهوم في نفسه . ويعدّها سجنه وثوق محمد بن القاسم على هذا الحال وهو يتشد هذا البيت :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد شعر !

وتوقف زحف الإسلام على شبه القارة الهندية بعد محمد بن القاسم لمدة ثلاثمائة سنة . ثم بدأ الزحف الإسلامي ثانية ، وتم بعزيمة أصحاب الهمم ثم انتهت بعد ذلك عاملة نشر الإسلام لدى الجيل التالي من المسلمين . تلك العاطفة التي كانت تموج بقلب محمد بن القاسم . يكتب جواهر لال نهرو :

« إن الدولة العربية التي بلغت مدى كبيراً من الاتساع والتي بدأ ظاهرياً أن العرب لم يلدوا أية صعوبة في سبيل الانتشار خارجها . لم تتمكن من التقدم إلى أبعد من السند في الهند .. وبعد قرون على فتح السند هجم المسلمون على شمال الهند . ومن الممكن أن يكون سبب هذا التوقف الصعوبات الداخلية التي واجهت العرب ؛ لأن السند (بعد محمد بن القاسم) انفصلت عن القوة المركزية لبيضاو وأصبحت دولة مسلمة مستقلة »^(١) وفي الفترة التاريخية التالية نشاهد هذا النوع من

ومشغ الخلاف والتفزع التي كانت وراء جميع صور العصب التي تعرض لها المسلمون .

يذكر القرآن الكريم من المؤمنين بعضهم أولياء بعض . وهكذا تلك الذين أيضا بعضهم أولياء بعض . وهذا يعني وجود اختلافات فطرية في الطوائع البشرية ؛ فإذا كان هناك شخص موزون الإرادة فإنه سوف يبحث عن عوامل الاشتراك بين أفراد البشر التي تضمهم وتجمع بينهم . فيدون هذه العوامل المشتركة لا يمكن لأي عبد أن يحقق أي نجاح في هذه الدنيا ، فإن الاختلاف للهدف يجبر موزون الإرادة على أن يتناهى عن جوانب الخلاف ليوجد أهل جنسه ؛ وأهل الفكر فيما كان بينهم من فروق والاختلافات بينهم أيضا يتفكرون على بعض أنفسهم . وهذا فرغم الاختلاف الفطري بين جماعة المؤمنين ، ففي حبسهم الاجتماعية يوجد شيء يمكنهم من الاتحاد مع إخوانهم . وأن خذب خلاف بينهم فإنه يحدث حين تخطر قلوبهم من الخير تماما . (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) (١)

٣ — والأمر الثالث اللازم لبناء الأمة يمكن استخلاصه من تلك الآية :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٢) إن أهمية القوة المرحية في ديننا هذه يمكن أن نلهم من مثال واحد :

تشابه كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي بمصر (١١٣٧ — ١١٩٣ م) والسلطان تيمور بالهند بما يملكان من كفاءة عسكرية وشجاعة

(١) الآية ٧٠ .

(٢) الآية ٩٠ .

وسطه إسلاميه . وواجه الاثنان « القوة الغربية » إلا أن الأول أصبح مدته للقدس والثاني واجه فقط العدو وعزم واستشهد . وهذا الفرق بينهما لا يرجع إلى سر « سليمان » فالحقيقة البسيطة أن السلطان تيبو واجه عدوه في القرن الثامن عشر في وقت كان فيه الغرب متقوفا في الصناعة العسكرية . فقد اكتشف أنواعا من الأسلحة التي يستخدمها ضد العدو من مسلات بعيدة ، وقد أغتته هذه عن استخدام الأسلحة التقليدية الرائجة في تلك الفترة . كما تمكن الغرب من السيطرة على القوة بحرية تماما وعلى العكس من هذا واجه صلاح الدين عدوه في القرن الثاني عشر الميلادي حين كان المسلمون يملكون قيادة العذب في الصناعة الحربية ، ففي تلك الفترة امتلأت مصر والشام والعراق بالمصانع التي تنتج أحدث وأحسن الآلات الحربية في العالم ، وكان مسلمين اليد العليا في وقت حملات الروم في العصر العباسي ، وفي صد الأمم الأوروبية زمان الحروب الصليبية ، وقد تطورت الصناعات العسكرية في هذه المنطقة بصفة خاصة في زمان الحروب الصليبية حتى أنه حينذاك وبعد عقد اتفاقيات الهدنة كان أهل أوروبا يتجهون إلى أسوان مصر والشام بصفة خاصة لشراء الأسلحة ، حتى أصدر العلماء المسلمون في ذلك الوقت فتوى تقضى بأن بيع الأسلحة للخصم حرام لأنهم سيستخدمونها ضد بلاد المسلمين^(١) . هذه هي القوة التي ورد ذكرها في القرآن باسم « القوة المرهبة » حيث قال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^(٢) .

والقوة المرهبة قوتان : الأولى تنعني بجميع المسلمين . وعلى كل جماعة مسلمة أن تعمل للحصول عليها على قدر ما تملك : والثانية تتعلق

(١) . ج ٢ . مصطفى السباعي : من روائع خطابه .

(٢) القرآن ٤ : ٩٠ .

منع بالمجتمع الإسلامي الذي يمثل السلطة . ما معنى هذين الخوفين في زماننا الحاضر ، وكيف يمكن الحصول عليهما ؟

حتى يتضح ذلك نقدم اليابان وروسيا كمثالين على هذا الأمر :

حين هزمت اليابان في الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ — ١٩٤١) وتم نزع سلاحها . واستولى الجيش الأمريكي على اليابان . ثم إفتقر أبواب التفكير العسكرية أو السياسية فعلم اليابان وألقى إمبراطور اليابان هيروهيتو (١٩٠١ —) خطايا قتل فيه :

« علينا أن نتحمل كل ما بوسعتنا لبناء الأجيال اليابانية القادمة » .

ومن هنا بدأت اليابان كلها تعمل من أجل تطوير جميع المجالات الأخرى غير السياسية . فاعطوا لأسانذتهم رواتب الوزراء وسلحهم ساطعات المظلمة حتى يمكن أن يرتفعوا بالتعليم إلى أعلى مستوى . وتلورت الصحافة لدرجة أن فكر المصحف طباعة في العدم هي المصحف اليابانية ، وتطورت الصناعة والتقنية في اليابان حتى وصلت أوج كمالها .

ورغم عدم وجود الحديد والمصالب باليابان فهم الآن يقومون بصناعة أعظم الآلات في العالم ، وقد ارتفعوا بمستوى صناعتهم ونوعيتها حتى وصل المعيب فيها إلى درجة المصفر ، وتطور الإحساس القومي والنظام والانضباط لدرجة أنه لا يوجد بين أهم العالم من يضارعا في ذلك .

ورغم أن مجالات التطور هذه ليست مجالات عسكرية أو سياسية في الظاهر ، إلا أنها أثبتت قوتها لدرجة أن أمريكا قامت باستدعاء جيوشها من اليابان بدون أية مواجهة تذكر .

هذا هو مجال البناء والرقي : وهو مجال مفتوح بكافة إمكانياته

أهم كل جماعة مسلمة سواء كانت تمتد إلى أقاليم أو أكثر في البلد الذي يعيش فيه . وسواء كانت السلطة في يدها أو لم تكن .

وعدا التطور له أثره فمن حيزه بدانا نلاحظ في دول أمريكا ، الأقاليم المسلمة وقد عرفت سلطاتها وقائدها في بلدتها . وأصبح المسيحيون يعيشون بصورة عملية على أمور السياسة وجميع شعب الحياة الاجتماعية الأخرى في البلاد . وذلك لا شيء إلا لأنهم تفوقوا على المسلمين في مجال العلوم والتقنية . وفي الصناعات والحرف . وفي النظام والانضباط ، وعلى سبيل المثال يمثل المسلمون في نيجيريا نسبة ٦٥٪ من بين السكان الأصليين بينما يمثل المسيحيون نسبة ٢٥٪ فقط إلا أنه في سنة ١٩٧٤ كان من أعضاء الوزارة خمسة من المسلمين وعشرة من المسيحيين . وسبب هذا الفرق هو تفوق المسيحيين وتأخر المسلمين ، وفي المدارس الحكومية لا يزيد عدد الطلبة المسلمين على ٢٥٪ من المجموع الكلي للطلاب . وتتلفض هذه النسبة في مراحل التعليم العالي . وبينما يمثل الطلبة المسيحيون في البلاد ٢٥٪ فقط إلا أن البعثات العامة تنجح بهم .

ومثال آخر من نوعية أخرى وهو روسيا : بعد الحرب العالمية الثانية قامت أمريكا بمشروع ضد عدوها الاتحاد السوفييتي يقضى ب عقد معاهدة مع البلاد التي تقع على حدودها حتى تنضم فيها قواعد عسكرية لها أو تنسحبها إلى جانبها ، وكانت معاهدات (ناتو) و (سينو) و (سفتو) هي الوسيلة التي تمكن بها أمريكا تعزيز سفنها العسكرية بالحض الأممي المتمثل إلى أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا وهكذا ومن مزين عدد من القواعد العسكرية أصبحت أمريكا في وضع يسمح لها بالتمكن من مراقبة العالم الشيوعي مراقبة شديدة ، وكان معنى هذا هو أن على روسيا أن تطوى مائدة سدس الكرة الأرضية لتصل إلى

أرض العدو بينما القواعد الأمريكية قريبة من حدودها لدرجة أنها يمكن أن تصل إلى أهم الأهداف كلها داخل روسيا في خمس أو عشرة دقائق .

والآن ماذا فعلت روسيا ؟ لقد قامت بتعيين جيش من العلماء لاكتشف سلاح سريع يتمكن به حكام روسيا من الوصول إلى معامل ومصادر أمريكا وهم جالسون في بلدهم . وهكذا في سبتمبر سنة ١٩٥٩ وصل الصاروخ الروسي لبيونك رقم ٢ بنجاح كامل إلى القمر : رغم إعلان ذلك في هدوء كامل أيضا بقولهم إن البحث قد نجح . ومن الجدير بالذكر أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على المسافة بين روسيا وأمريكا خمسين مرة . والآن فالصاروخ الذي حصل صندوق آي بيعل به إلى القمر يمكن أن يسقط القنابل على أبعد البؤاد مسافة ١٠٠٠ ميل . إن التحكم بالرادار والكفاءة التي أظهرها بالنسبة لمخبري في الفضاء كان كافيا لإثبات أن القنبلة الذرية والهيدروجينية يمكن إستعمالها بدقة على أي هدف في الأرض : وأمام هذا الاكتشاف فإن ما قامت به أمريكا انهار كما تنهار عملة بلا فأس فجأة على الأرض .

هذا هو التهديد الروسي على الأرض وهو الذي أوجدت له روسيا حالا في السماء . وأثبتت أنه لا حدود نهائية للأرض في هذا العالم . والحقيقة أن الله تعالى قد خلق إمكانيات لا حدود لها للقوة والطاقة في هذا الكون . وإذا أظهرنا الهمة والمزيمة أمكن ركوب كل صمم لدرجة أن كل ما يقوم به العدو يمكن أن يصبح ممداقا لقوله تعالى : « بطل ما كانوا يفعلون » (١) .

ومع أن أساس مهمة أهل الإيمان في هذه الدنيا هو الدعوة والتبليغ إلا أن الواقع أن هذه الدنيا مادية ، ووجود الجماعة المعارضة لذن هو وجود مستمر . ومن الضروري لأهل الإيمان أن يجتهدوا ويقاضوا بقدر استطاعتهم لامتلاك جميع الوسائل المادية . لقد هجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة في السنة الثالثة للهجرة بلا مناع لكن بعد عشر سنوات حين تحرك لفتح مكة كانت الدعوة قد انتشرت لدرجة أن ركبته كان يقسم عشرة آلاف رجل ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الاستعدادات تجري لإعداد قلمي رجل في القفاء (لا يرى منهم سوى الحدي) الطبراني .

والعمل طبقا لهذه السنة تتأكد أهميته البالغة في ضوء ظروفنا الحاضرة : فاعمية الآلة في حروب اليوم تزيد كثيرا على استخدام المعنويات لدرجة أن التصور القديم للأبطال العسكرية أصبح خرافة أزمان الغابر . وهكذا أصبح للوسائل الاقتصادية تأثير في زماننا حادى حتى أن الحياة الإنسانية كلها أصبحت تابعة لها . وفي الزمان القديم لم تكن لعملية الدعوة والتبليغ أية علاقة بالاقتصاديات . إلا أنك اليوم إن أردت أن تستخدم « القلم » في الدعوة والتبليغ فإنه لن تستطيع أن تستخدمه بتأثير بدون وسائل اقتصادية عظيمة ومؤثرة ثم حين شاهد الأديان الأخرى تنتشر عن طريق الطائرات والإذاعات . فإن الضرورة الاقتصادية تصبح أشد من ذي قبل مئات المرات .

وهكذا فإن أهمية الوسائل الاقتصادية تكون أكثر مئات المرات ، ثم إنها في ضوء الضرورة الشخصية في عالم اليوم تصل إلى مدى

من الأهمية لم يسبق له نظير ، فضرورات الإسلام الفعلية مزايدت
للهم أدرجة أن الحياة بأسلوب بسيطة خراسي على الطراز القديم
أصبحت أمرا غير ممكن .

فإذا كانت مسئولية المسلمين الأساسية هي الدعوة والتبليغ فإن
الأنبياء السابقين تبتلزمون الكفاح والاجتهاد أيضا بكل قوة ليقوم
المسلمون من المسافرة بتصويب مشروع في الاقتصاد الحديث ، وذلك
بصورة قومية وبصورة قومية أيضا .

الدعوة إلى الله

أهمية القيام بالدعوة :

إن أحداثات الزمان مهما تكن ثقلها لا يمكن أن تمنحو وجود الأمة الإسلامية لأن وجود الأمة الإسلامية هو جزء من الوعد الإلهي بالحفاظ على القرآن الكريم (الحجر - ٩) (١) ، فكما يظل كتاب الله محفوظاً حتى يوم القيامة يبقى حاملو كتاب الله أيضاً إلى ذلك الوقت ، وهذا أمر مؤكد فسوف تظلد الأمة الإسلامية طالما لم تطلو مسطحة الأرض والسماء ، وطالما لم تأت ساعة ميزان العدل الإلهي .

إلا أن وعد مالك الكائنات إنما يتعلق بالأمة المهدية في هذه الدنيا لا بإنجاتهم في الآخرة . فالإنقاذ في الآخرة إنما يتوقف على عمل الإنسان ، وفالنون الله فيما يتعلق بهذا الأمر قانون ثابت عادل ، ينطبق على الأمة المهدية فرداً فرداً بل إنه لا يمكن أن يهايى أو يستثنى من شواهد زوجات النبي أو أولاده .

ما هو المقصود « بالعمل » ؟ . المقصود منه هو أن نستكمل مسلمات ومقتنيات ما جئنا بسببه إلى هذه الدنيا . فقد جئنا إلى هذه الدنيا لتعبد الله ، وجئنا لتكون أمة آخر الأنبياء .

ومن الاعتبار الأول يجب على كل المسلمين أن يسيهوا فرداً فرداً وبصفة شخصية « عباداً صالحين » وأن يثبتوا بذاتهم عبوديتهم لله . إلا أننا من حيث كوننا أمة آخر الأنبياء والرسول علينا قريضة

١ . نشر الرأى على : « ما بين أولئك النعم والنعمة الله العظمى » .

أخرى ضرورية . وهي أن تقوم بما كان يقوم به الرسول ﷺ من تبليغ الرسالة لأهل الدنيا :

« فرسخت عليهم الفرائض التي افترضت على الأنبياء والرسل » .
(وهب بن منبه) .

فمحمد ﷺ أرسل إلى الناس أجمعين والمؤمنين به نظرا لاتباعهم له بمبعوثه لهذه الأمم التي تظهر بينهم . فبعثته إلى أهل الدنيا قاطبة تتم — بعد وفاته — بواسطة أئمة . يروي عن مسعود بن مخرمة أن النبي ﷺ قدم على أصحابه فقال :

(إن الله بعثني رحمة للناس كافة فادعوا عني) (١) .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عن رضى الله عنه : « أيها الناس إذا جئكم إلى بلادنا » فأجاب :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله . ومن خيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) .

إن إيلاخ الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية وهي سبيل ذلك تبيان التفصيلة بأى شيء . في السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) عقد ﷺ مع أهل مكة مودة العديدة . وكان ترويحها أن يسمح لأهل مكة بالمرور بالمدينة إلى مصر والشام والعراق بالمعد لتجملوا وهم آمنون على أنفسهم وأقربائهم (٣) . فكان النبي ﷺ يقرر هذا الشرط قد سمح عائلية لأعداء الإسلام بممارسة النشاط التجاري

١ : نهضة سيرة من هشام ، جلد ٢ ، ص ٦٤١ .

٢ : تاريخ الطبراني ، جلد ٢ ، ص ٦٢ .

٣ : دعاء الحارثي وسلم .

داخل حدود المنطقة الإسلامية . هذه المادة وغيرها من المواد الأخرى المتضمنة معها إنما وضعت بغرض منح هؤلاء الناس تسهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصلو بذلك ميدان الدعوة للرسول ويعتمد الطريق إليها .

فإذا لم تبلغ الناس الذين يعيشون حولنا بيوم القيامة ، فإتقنا كلمة سوف تكون كقبي أرسل إلى قوم برسالة من الله ثم لم يبلغهم إيها . فهو ان ترك قومه على شركهم وكفرهم فلن يقبل الله منه حسنة ولا صومه . فكيف إذن يكون علمنا الذاتي وهذه كتابنا لنجاتنا ونحولنا عند رب العالمين ومن حولنا ملايين الناس لم يبلغوا ولم يخبروا بحديثه البهية . وما يجب عليهم أن يفعلوه من أجل فلاحهم الحقيقي .

والنبي إذا لم يؤد رسالته في الدنيا ، فمن المحتمل أن يتعرض لخطر البقاء في قبضة الدهر .

(إذا لاذاقتك ضعف الحياة وضعف المات) (١) .

و السبب هو أن النبي يتحمل مسؤوليتين في وقت واحد : الأولى أن يثرون بنقله مؤمنا ومسلما . (يونس — ٧٢) (٢) ؛ والثانية أن يبلغ أهل الدنيا (العالمين) برسالة الله (المائدة — ٩٧) (٣) ؛ وبعد ختم النبوة أصبح للأمة الإسلامية مقام النبوة . ومن هنا فعلينا أيضا — أمام الله — مسئوليتان : الأولى باختيار الإيمان والثانية باختيار الاجتناء (للحج — ٧٨) (٤) ، ومعنى الاجتناء هو « الاختيار » ، فقد اختار الله الأمة المحمدية لهذا العمل وهو إبلاغ رسالة الله إلى العالمين ؛ ومن مسئولياتها الآن أن تتبع حياة الإيمان سريته كاملة ؛ ومع هذه المسألة

١ : القرآن ٧٨ .

٢ : يشير إلى قوله : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » .

٣ : يشير إلى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا دينكم باليهود والنصارى » .

٤ : سورة الحج ٧٨ .

٥ : يشير إلى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا دينكم باليهود والنصارى » .

عابها مسئولية أخرى وهي أن تكون شهادة الحق بين الناس ، وكما كانت تدعوه إلى الحق مسئولية على النبي يتجج فهي أيضا مسئولية على بابه (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) (١) . وجاء في الحديث (أنتم شهداء الله على الأرض) .

والإنسان — كما هو معروف — لا ينتهي بالموت ، بل يصل إلى حياة أخرى أولول . حيث التعيم الدائم أو اللجيم الدائم . وهذه حالة صعبة ونسافة لأن الإنسان إذا لم يعرف السبيل إلى مرغاه أنه فمذا يعني أنه بعد الموت سيتعرض فجأة لعذاب لا حدود له ، ولا سبيل لنجاة منه ومهما خذل هذا الأمر من أهمية كبرى عند أهل الدنيا عامة . فإن أهم شيء عند الله تعالى هو ألا يغفل عنه الإنسان كعبده له ومن هنا أرسل الله إليه بعد أن خلق سلسلة من الأنبياء حتى يتجه من خطر الضلال : أرسل الله إلى كل « قرية وإلى كل « أمة » عدداً من المرسلين ليبلغوا رسالة الله إلى الناس .

ولما كان هدف إرسال الرسل ألا يكون للناس على الله من حجة (النساء — ١٦٥) (٢) فإنه لا يكتفى أن يقوم الرسل بإطاعة أوامر الله وتطبيق الأحكام الإلهية في حياتهم الشخصية فقط بل يجب عليهم أيضا أن يظلموا عباد الله — بأنفس ما في وسعهم — على رسالة الله — فلم يوصل عليه السلام بإبلاغ رسالة الله إلى ملكة ألفه من سكان نينوا (العراق) ولكنه ترك القوم قبل أن يكمل تبليغ الرسالة إلى آخر مداهها . فغضب الله عليه وابلطمه الحوت ولم ينجه الله إلا حين شعر بأن عليه أن يعرذ إلى القوم مرة ثانية .

١ - يوسف ١٠٥ .

٢ - بشر إلى قومه بني نوح : « رسلا مبشرين وبشارين للآل ويكون مشعرون بهم » - الله صمد

والحقيقة أن إبلاغ الرسالة لا يتم إلا إذا جاء بطريقة كاملة (بلغها أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل لما بلغت رسالتك) (٦) .

وهكذا غامضة الرسول تكون دائما أمته حين تؤدي نفس مسئولية الرسول وتقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية إلى العالمين ، تلك الرسالة التي وصلتها من جانب الله . وليس من شك أن مسئولية النبي هي بذاتها مسئولية أمة هذا النبي أيضا ، والبرق هو أن المسئولية تقع على النبي كمرءة بينما تقع على الأمة كجماعة ؛ فالنبي يسلط بمسئولية الدعوة بصورة ذاتية بينما هذا ليس بالضرورة فرضا على كل فرد في الأمة فإذا قامت من بين الأمة جماعة وأدت غريضة الدعوة إلى الحق فإن المسئولية تسقط عن بقية الأفراد .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فأولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (٧) .

وتد ورد النص صريحا بخصوص الشهادة أمام العالمين ، وذلك فيما يتعلق بالتبعية للنبي :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٨) .

ويوم القيامة حين يقف جميع المخلوق أمام الحكمة الإلهية ، وسوف يشهد عليهم أولئك الناس الذين بلغوهم رسالة الله في الدنيا ؛ ورد في الكتاب المقدس ما يأتي :

« سيجمع الناس كلهم ، وتجمع جميع الأمم ، سيكون هناك من بينهم من سيقول لهم : ألم نطبعكم قبيلا ، وسوف يأتون يشهدونهم

٦- الآية ١٠٨ .

٧- آية ١٦٥ .

٨- البقرة ١٤٣ ، وانظر أيضا سورة الحج ، آية ٧٤ .

ليشهدوا على صدقهم وسيسمع الناس ويقولون : هذا حق ، يقول الله :
 أنتم شهدائي وأنتم عبادي لقد أطعته حتى تعلموا وتؤمنوا بي ويؤمن
 هو . اننى أنا يهوداء (لله) وليس حنك من منتق غيرى وأنتم شهدائي .
 (يشوع ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) (يسعيا ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) .
 أنتمك النبي ﷺ في أداء مسئولية الشهادة حتى أن الله خاطبه
 بقوله : « لعلك بأخضع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (١) .

وعكذا فإذا شعر المسلمون أنهم وضعوا على مقام فرسلته المسيح
 بعد إبلاغها لهم ، ذلك المقام الذي وقف عليه النبي في حياته ، فإن
 الدم سيجر من أعينهم وستحرم الراحة عليهم : لأن هذا يضئ أحد
 شياطين بالنسبة لهم : إما أن يكونوا شهداء الحق أمام العالمين فيبرثوا
 ذمتهم : وإما أن يرتكبوا جرماً من حق الله فلا يبلغوا الناس بما سيفعله
 الله معهم في الحياة الآخرة .

وإذا لم يبلغ المسلمون هذا الحق الذي أرسل إليهم من أجل خير
 وفلاح عباد الله فإنه يخشى أن يصدق عليهم حكم التوكان على أهل
 الكتاب السابقين :

« إن الذين يكتفون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه
 للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا
 وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » (٢) .

فإذا كان هناك شيء آخر ذكر في القرآن الكريم غير مرفضة الله
 فهو بالتأكيد لإعلام المسلمين بأنهم إن لم يبلغوا دين الله إلى غير المسلمين
 فأن يكونوا بمنزلة من عذاب الله سواء على المستوى الفردي أو على

١ - البقرة ٢٠٢

٢ - البقرة ١٧٥ - ١٧٦

مستوى بلدهم وعلى مستوى أهل الأرض جميعاً ؛ وذلك حتى لو حلوا
 في ليل نهار . فإذا اعتقدنا أن الطريق إلى الجنة يمر بمشوار روحاني،
 فيجب أن نلهم جيداً أن أبواب الجنة لا يمكن أن تفتح أمامنا إذا لم
 نحاول أن نخلق أبواب جهنم أمام ملائكة البشر من غير المسلمين ممن
 يعيشون حولنا . وما واجهنا أثناء محاولتنا من مقابح نتعرض لها
 لا نريد مواجهتها أبداً .

« أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم
 مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا
 معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب » (٢) .

وقد جاء على لسان النبي ﷺ في القرآن الكريم : « وأوحى إلى
 هذا القرآن لأذكركم به ومن بلغ » (٣) .

ومن يبلغ الأمم حقيقة يوم القيامة في الحياة الدنيا سيكون
 شهيداً عليها أمام الله يوم القيامة « يوم يقوم الأشهاد » (٤) .

وسؤال الآن . من اليوم سيكون شهيداً على أمم الدنيا أمام
 العرش الإلهي - كتاب النبي ﷺ - يعلن أنه بلغ تلك الأمم حقيقة
 الحياة ؟ هل تأخذ جماعة من جماعات العالم الإسلامي تقوم بهذه
 الشهادة أمام العالم كله ؟ إذا لم يكن الأمر كذلك ؛ وهو لا نستك
 كذلك . فهل نعوذ بالله - انتهى زمان رسالة رسول آخر الزمان ؛ أن
 تأتي القيامة ؟ هل يدل الله تعالى هذه السنة للأمم التالية إذ قرر بأنه

١ - سورة ٢١٤ .

٢ - سورة ١٠٨ .

٣ - سورة ١٠٨ .

سيكون من بينهم شهداء عليهم . وأن مستقبل هذه الأمم يتقرر بناء على شهادتهم ١٦

يعتقد بعض الناس أن التلحق بالأذان من قول مآذن المساجد إنما ينكح لإتمام الحج . وليس هذا سوء فهم فاضح منطقي . بل هو ويرد يدور إلى الأملكتان إلى مثل هذا النوع من الإجابات : فانه يرشدنا إلى أن من يأتي شيداً على أمة ما إنما يأتي شيداً عليها بلسانها « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١) وهو يقدم لها رسالته بوضوح حتى يعان أفراد هذه الأمة : شيد بذلك بلغت « وليقولوا نرسيت » (٢) . ونحن نجس ونفخ أن التلحق بالأذان في النساء . ههنا كنت لفته يجعلنا يربى للذمة أمام الله !

مضمون الدعوة

ما هي الرسالة التي نلقها للناس ؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في كلمة واحدة هي : التوحيد أي الإيمان بالله ، وأن يكون ذلك مستقرا في قلوبنا حتى يصبح هو مركز ومهوى حياتنا ، يذكر في بعض الروايات أنه حين فتحت مكة بدأ الناس يبايعون الرسول ﷺ . وقدم الكبار والصغار . الرجال والنساء . وأخذ منهم الرسول ﷺ البيعة على شيئين اثنين : الإسلام والسيادة . (شهداء الناس الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام والشهادة - البيهقي) .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم أن محمد بن الأسود ابن خلف أخبره أن أباة الأسود روى أنه علمه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يرمي التمسح - قسداً : قسداً الناس على الإسلام . والشهادة . قلت وهذا الإسلام . قسداً : أظنهم

١٦ - تاريخ ١

١٧ - التلحق ١٠٠

محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادته أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

إن عقيدة التوحيد ليست مجرد قضية فلسفية بل هي ورقة امتحان إنساني . ومن هذه الناحية تتيح الآخرة أيضاً جزءاً لازماً لدعوة التوحيد . الداعية حين يبلغ الناس حقيقة التوحيد . فهو يحذرهم أيضاً من الآخرة . فبعد الموت سيقف بين يدي الله ويحاسبنا على أعمالنا : وعليهم أن يطمعوا الناس على القضية القائمة وهي أنه بعد الموت ينتقل الناس إما إلى الجنة وإما إلى جهنم : وأولئك الناس الذين استماتوا في الدنيا يقهر الله . لن يروا الله . ومن تعسك بميثاق الله فإنه هو الذي سيعلن هذا المقام في الآخرة .

وعذا الأمر لا يمكن أن يخضع لمطية القيلس العقلي بل يناله الإنسان عن طريق علم الوحي . العلم النافذ الكامل . ولهذا بالداعية يجب أن يضم إلى دعوته بالضرورة عقيدة الرسالة ويطلع الناس على حقيقة وجوب معرفتهم بالمصراط الحق حتى يحققوا النجاح ويغالوا الفوز في حياتهم . وذلك ليتغنوا من معرفة ربهم ، كما يجب عليهم أيضاً أن يتخفوا من الرسالة هادياً لهم : وإلا ضلوا وضاعوا وسط الظلمات ولن يهتدوا إلى المصراط المستقيم أبداً .

هذا هو أساس دعوة الحق المبين . إلا أن الإنسان ليس شيعاً جامداً منزوياً كقطع الهجارة الصخرة . بل هو كائن نقي واجتماعي ، وبعبارة أخرى إن القناع إنسان بالمر ما ليس كوضع لون طاهر على قطعة من حجر : فأعمال الإنسان كلها تصدر بناء على فكره الداخلي ، وهذا الفكر الداخلي يمتد بوجوده الشخصي على نهج خاص . ثم حين يلتقي هذا النوع من الناس فهم يكونون مجموعة يطلق عليها المجتمع ، فتشكل عقيدتهم الداعية شكل هيكل معين على مستوى المجتمع كله .

وهكذا نقبول الإنسان للعقيدة ما يعبرج كمن يلقى الحجر في الماء ، يرد الحجر يشكل في البدلية دائرة صغيرة تبدأ في الاتساع لتشمل حوض الماء كله . وهكذا فعقيدة التوحيد تتخذ مكانها أولاً في قلب الإنسان . ثم تهتز وتتحرك بعد ذلك داخل تكريته النفسي . وبعد هذا تسلم حياة الإنسان الخارجية بمبغيتها . وينتدور الأمر بعد ذلك فتتضم الأسرة والسوق والبرلمان والعلاقات الدولية أي تجعل جميع نواحي الحياة الاجتماعية وجميع المعاملات الإنسانية تنطوئ بشكلها خصاً . ورسالة الداعية إذا ظلمت أولاً وبصورة فاسدة على التوحيد فهي في نبيعتها التلقائية تنقل إلى حل قضايا الأمم المتعددة . .

وهذه « الكلية » التي يراها البعض في الإسلام تجعلهم يفضلون « ذاتي ظنة » « نظام جامع » على الإسلام . وهذا التعبير رغم أنه في الظاهر تعبير صحيح فإنه يحمل بداخله خطأ ما : إذ أن اعتبار الحقيقة الأساسية فيه ومعتقداتها شيئين متماثلين وربطهما معاً هكذا هو كإصطلاح أجزاء الجسم هذه الدرجة التي تكون للروح في أي شخصيه . قبل فهم الأمر عن طريق هذا المثال إنما هو بيان ككتابة « حب » في كتاب ما . نقرأ فيه لفظة تقول : « إن زيدا يحب بكراً » ثم يكتب : « حين النفا معاً ذات يوم في محطة القطار عانى زيد بكراً » ثم يكتب : « قدم بكراً ذات مرة إلى قرية زيد . فدعاه زيد إلى بيته : « إذا ما رتبنا العبارات الثلاثة السابقة فإن الإنسان يقول إن الحب اسم لهذا العمل الجامع للأمور الثلاثة : العناق والدعوة : والحب بالقلب : ومن الممكن أن نشاهد لمحة جامعة لهذا التعريف المتعلق بحب شخص ما . إلا أن الحقيقة أن خطأ عظيماً حدث في إعطاء حقيقة المحبة ومعتقداتها درجة مساوية والتعبير عنها هكذا . وكأن الأمور الثلاثة حين تجتمع كلها داخل شخص واحد تجعلنا نقرر أن محبته هذه محبة كاملة . بينما يمكن أن نحتسب المحبة الكاملة حين يوجد الجزء الأول (المحبة بالقلب)

ولا يوجد الجزآن الآخران حتى إذا لم تتم محاولة الحصول عليهما
بصفة مستمرة .

وفيما يتعلق بالدعوة الإسلامية فتجب مراعاة حقة تراوحت أجزائها
بعضها مع بعض . وإلا أن نتكهن من أداء حق الدعوة .

والدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة هي في الحالات العامة
تخالف الحكمة ، ولهذا فإن من يريدون العمل في هذا الميدان ، يتعرضون
دهشهم أحيث من هذه النفسية بتواحيها المظنفة ويواجهون مشكلة
أسلوب المخطبة في الدعوة ، ويرى البعض أن الحل هو واسع الإسلام
تمام الناس كنظام « اجتماعي » أو كآحسن نظام اجتماعي ، ويرى
البعض الآخر أن يقدم الإسلام للناس كدين يحصل راية الحقيقة العالمة ،
ملك الحقيقة التي توجد في جميع الأديان . ويحاول بعض الناس إعلاء
رد « فلسفيا . ويقولون إن الدين يعد أساس الشعور الأخلاقي للإنسان
مسروره إنبات الشريعة الإلهية وغير ذلك . ولكن جميع هذه الطرق تحصل
قابسا مشتركا وهو أن واحدة منها لا تبرى ، فحقتنا من العمل الأساسي
وهو شهادة الحق لأن الجانب الأساسي في عملية الشهادة هي إطلاع
الناس على يوم القيامة .

وتسمية أسلوب المخطبة الذي تتعدد فيه الاجتماعات إنما نظهر
لنا لأننا نستقي الإجابة على هذا الاستفسار من التاريخ ، ولا نبحث
من الإجابة من خلال سيرة النبي ﷺ ، فنحن وارثون لتاريخ ما بعد
الإسلام ، وذلك بصورة نفسية وطريقة المخطبة التي جاءت في التاريخ
التالي هي هذه : يا أيها الناس آمنوا ، ومن هنا فحين نذكر كلمة الدعوة
يأتى هذا الأمر في ذهننا فوراً ، ولكن سيرة النبي ﷺ وحياته في الدعوة
كانت قائمة على التدرج في هذا الأمر . والدعوة باسم الإسلام بدأت
في فترة حياته المدنية (بالمدينة) أما الفترة السابقة ، وهي الفترة المكية

مذهب دعوته من هذا النوع : « أيها الناس . قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

وخطب النبي ﷺ في الدور المكي هي كلها بهذا الأسلوب، أما أسلوب « أسلم تسلم » فكان أسلوب الدور المدني .

في الفترة الأولى للدور المكي حين قدم النبي دعوته إلى أبي بكر الصديق كان كذا ما قاله : « إني رسول الله دعوت إلى الله . ولكن بعد فتح مكة قدم النبي ﷺ دعوته إلى والد أبي بكر « أبي قحافة » فقال : « يا أبا قحافة « أسلم تسلم » . ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن الدعوة لخطول الدين بمسورة منظمة بدأت في الدور المدني حين تمت معرفة الحق على نطاق واسع وتحقق النصر للإسلام فعلا على أسس ثابت . وقبل ذلك كان التركيز في دعوة النبي ﷺ على حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى الهداء للتخليص في الدين .

وفيما يتعلق بأسلوب المخاطبة فإنه كان يركز على وضع هذه الحكمة الأساسية وبهذا مدعى جميع المستجابات دون إهتمام المدعو في أية تعقيدات نفسية ؛ فقد جعل أسلوب الدعوة قائما على حكمة الدعوة الأساسية في إطلاع الناس على اليوم الآخر . وهو ما يجبر عنه القرآن بيوم الجمع (التوري - ٧) (^(١) ويوم الثلاث (غافر - ١٥) (^(٢) ويوم الأزيمة (غافر - ١٨) (^(٣) هن يحاسب الإنسان حسابا دقيقا ولا يحقق من نفسه شيئا وحين تبلغ اللزوم الضاغط من شدة الهول (غافر - ١٨) (^(٤) . هذه هي التقنية التي سادت الدور المكية في الترس . أي في الفترة الأولى للدعوة .

١ . يشير إلى قوله تعالى : « وتلك أوصياء التي بركة » بوجه تفسير ثم التمرين و...
هؤلاء وهم يوم الجمع لا يوم الأية .

٢ . يشير إلى قوله تعالى : « ويوم الثلاث » هو الذي يشير التورج . من أجله من
من ينادي من جهاد السير يوم الثلاث .

٣ . و ٤ . يشير إلى قوله تعالى : « وتلك أوصياء التي بركة » بوجه تفسير ثم التمرين و...
تلك الأوصياء .

وتحن هنا نتكل بمعنى الأمثلة التي يتضح منها هدف الدعوة إلى
حقيقه الدين بدلا من الدعوة إلى دخول الدين المنظم .

١ - ورد في « ورد التنازل الكلية قوله تعالى :

« فهاكم التنازل حتى زرع المتأخر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا
سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها
عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وقد تكرر أحد الألفان أول ما قارء بهذه السورة ؛ ويدعى محمد
أبو ، فاسلم .

٢ - حين صدر الحكم للنبي ﷺ بإعلان الدعوة العلنية ذهب إلى
هذبة نصف طبقا للثقافة العربية وحسب في الناس بعد أن تجمعوا ،
وخطبا لرواية ابن عباس قال النبي ﷺ :

« والله لتؤمنن ثم تنصن ثم ليخطفن الحصن الجنة والمسجد»
التار وأنا أقول لكم بحق وإنكم لأول من أنزلتم » (ابن عباس عن
معاوية) .

٣ - قال عمر الفاروق رضي الله عنه مرة :

ويل لديان من في الأرض من ديان من في السماء يوم يلقونه
إلا من أمر بالعدل ونفى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة
ولا على رغب ولا على رهب وجعل كتاب الله مראה بين عينيه .

ومن حسن الحظ أنه في عصرنا الحديث نالت هذه المسألة أهمية
جديدة ؛ فقد تم تأسيس قسم مستقل خالص أُنشئ عليه اسم « علم
الموت » Theology يهتم أمر الموت من وجهة نظر علمية ،
وإن يمر وقت طويل حتى تبدأ معظم الأبحاث المتعلقة بالموت في التركيز

على موضوعات الكتب الدينية بحسنة خاصة . والموت المفاجيء هو أهم الموضوعات التي تلقى رواجا وقبولا لدى العلم الحديث . حتى إنه أصبح تخصصيا علميا . وتتلخر جامعة مينسوتا الأمريكية بأنها أقامت مركزاً لدراسة الموت ، وقد أنشأ *Dr. A. A. MacLean* معبلاً له هدف دراسة ظروف إصابة الحياة بالانقراض .

ولك المجالس الاجتماعية بدأ موضوع الموت يدرس مثله مثل موضوعات الجنس والسياسة . وذكرت جريدة (*أتلانتيك*) الأمريكية في تحليل لها أن بعض الكتب الجديدة بدلت في التطور . ويمكن أن نطلق عليها اسم « كتب علم الموت » : ولا يمكن للدعوة الدينية أن تجد أطيب من هذه الظروف التي تنبه الإنسان إلى جرائف الموت والحياة .

واعتبار التذكير بالآخرة هو المحور الأساسي للدعوة . جاء نتيجة لأن هذه أعظم قضية تواجه الإنسان . وهي أسلمة القضية التي تقرر نهاية الإنسان الأبدية طبقاً لأعماله بعد الموت .

لقد اعتبر الموت . واعتبرت الحياة بعد الموت من أهم القضايا التي يجب أن يواجه الإنسان اليها قدراً كبيراً من اهتماماته . كتب الدكتور (*بيلي جراهام*) (١٩١٨ -) « أن شخفاً دعاني إلى بيته وكان واحداً من أغنياء هذا العالم . وبعثت من دعوته لي ضرورة وصولي إليه في أقرب فرصة . وفور الانتهاء من تناول الطعام أخذني إلى غرفة منفردة وقال :

« بينما أنا الآن في صحة جيدة فإن عمري يطيرني بانني لن أعيش طويلاً ، أنا لم أفكر كثيراً في الموت من قبل . ولكنني الآن أجد

عالي مشغولا تماما بهذا الأمر . وهذه الفكرة تخيفني ، أنا أحتاج إلى مساعدة » (١) .

هذه قضية تعد ذاتية لكل إنسان ، لأن كل إنسان سيواجه الموت حتما . ونجربة آلاف المسلمين أثبتت أنه لا استثناء في هذا . ثم إن الموت هو أكبر تضليلا للإنسان العاجلة : لأنه لا يوجد موعد لحلوله ، وهذه هي الحقيقة الواقعة غاي شخص مهما حقق من نجاح في الدنيا حين تداعيه فكرة الموت يرتعد ويرتعش لأنه يعلم أنه لا يمكن أن يؤجل الموت ولا يمكن أن يسرى غلظه ونجاحه في الحياة القادمة . وهذا الجانب من الظلمة الإنسانية يحتل مقاماً عاليا حين يبدأ في زرع دموع احب في قلب إنسان ما : وهذا هو الباب الذي لا يوجد عليه أي حارس أو رقيب ، فعين تفرع باب قلب إنسان ما ستجده مفتوحا أمامك لأنه الباب الوحيد الذي لا يخلق أبداً في وجه أحد .

من ضرورات الدعوة : مركز إسلامي عالمي

من أكبر المسؤوليات الملقاة على عاتق مسلمي العالم اليوم أن يكونوا شهداء حق على أعمم العالم ، ولا يمكن أن يخلصهم من هذه المسؤولية أي عيب آخر . وهذا هو العمل الذي اشترى به الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم (التوبة - ١١١) (٢) .

كيف يبدأ هذا العمل ؟ الإجابة على هذا السؤال موجودة في القرآن الكريم . يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى يريد أن يكون للمسلمين مركز ينظم عملية الدعوة والتربية : ينظم فيه كلام الله أمام

١ : مجلة . روبرت هيند ، ١٠ ديسمبر ١٩٧٢ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « في الله الخزي من المؤمنين أنفسهم وأموالهم »

غير المسلمين (التوبة - ٦) (١) . ومن ناحية أخرى يعد تنظيم المسلمين حيث يفدون من بلادهم إلى هذا المركز ليشعروا به فترة تربية في سبيل الدعوة والتبليغ . ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم ، متبعين منهم وأهلهم على ما تعلموه (التوبة - ١٢٢) (٢) .

وبناءً على هذا المركز إنما هو من أكبر مسئوليات المسلمين اليوم ، ويجب أن يكون هذا المركز على المستوى الذي يتناسب مع عالمنا اليوم . لقد أنشأ البشرون النمري مراكز لتبليغ دينهم باسم كل مركز منها مساحة عدة أميال ، يمتلكون محطة للإذاعة ، ومجموعة من الطائرات ، يمتلكون الجامعات . وماذا لا تؤسس مركزاً على هذا المستوى ، وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجسد عظما نقدمه أمام الله عن تقصيرنا في تقديم وتبليغ دعوة الحق . يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة ، تجهز بأعظم الوسائل والسيارات لنشر والطبع . تمتلك جهتها الطلبة بما . ومكتبتها الكاملة . ولها مكتبة كاملة تختص بالبحث والتأليف . وتتملك داراً لنشر بكل اللغات ، ويجب أن تتوفر لها محطة للإذاعة وعدد من الطائرات . أي يمكن أن تستفيد من جميع ما هو في أرض الله . وما يمكن الاستفادة منه في سبيل نشر الدين .

هذا مجرد حلم . إلا أن الكنز الذي فتحه الله على المسلمين جعل من السهل عليهم إنشاء مثل هذا المركز . إذ أن قليلاً من الوسائل المتوفرة حالياً يكفي تماماً لإقامة هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى .

(١) يشير إلى قوله تعالى : ٦ وإن أحد من المسلمين استطاع أن يهدي إلى سبيل الله فإنه لم يدر أجرة ما كسبه .

(٢) ما ذكره في قوله تعالى : ١٢٢ وما كان المؤمنون ليفعلوا تلكه ، بل ولا ندر من كان مؤمناً ، وهم طائفة لا يفتخروا من الذين ولا يفتخروا يومئذ .

أن الله تعالى يريد أن قبّاح رسالته إلى مجاده بطريقة كاملة تامة ،
وكانت هذه هي الحكمة التي من أجلها وهب الله تعالى المسلمين قوة
السيف في عصر السيف وفتح على يدهم جميع البلاد المعروفة في
عندهم ، وانتشر صوت الإسلام في كل مكان +

أما اليوم - ولما زال استخدام الآلة - فقد وهبهم الله قوة
البترول بطريقة مدعّية + جاء في تقرير البنك العالمي رقم ٤٧٧
(سنة ١٩٧٤) أن الدول المنتجة للبترول OPEC تمتلك بين يديها ٨٥٪
من حصة التجارة العالمية ومن هنا نرى تمتد اليوم مفتاح القوة
الاقتصادية في العالم الحديث + وهذه القوس لم تعد لهم بلا هدف
أو بلا غرض بل أصبحت لهم حتى تنفق على العمل الأساسي ألا وهو
هدف جميع المسلمين المحدد +

بدأ استخراج البترول من باطن الأرض في التاريخ الحديث
سنة ١٨٥٩ حين نجح إدوين أبل دريك (أمريكا) في استنباطه من
عمق سبعين قدما في بنسلفانيا : واكتشف البترول في الشرق الأوسط
لأول مرة سنة ١٩٠٨ م في « مسجد سليمان » وفي ذلك الوقت كان
الأتراك يحكمون للعرب . وقد قدمت الشركات الغربية تسهيلات
للاعتمادية العثمانية لاستخراج البترول من هذه المنطقة .

إن سر القوة الصناعية في العالم وسر تطورها ورفقها يكمن في
البترول . وهو يمثل الآن الماء بالنسبة للزراعة : والدماغ بالنسبة
لجسم الإنسان ومن الخير أن جزأ كثيراً من هذه الثروة الطبيعية
مدفون تحت الأرض في المنطقة التي يطلق عليها « الشرق الأوسط »
أو « الخليج العربي » . وقد ظلت هذه الثروة منذ بداية القرن الحالي
وحتى الآن في قبضة الأمم الغربية الصناعية وبخاصة أمريكا . ويمكن

ير تنعم هذه الأمم في ذلك الوفود الرخيصة الذي تحصل عليه هذه الأمم بسهولة كبيرة من بلدان الشرق الأوسط . والمسلمون في العالم هم الذين يمثلون قوة البترول ورغم ذلك فهم الآن شعفاء العالم في عصر قامت فيه حركات عديدة ، وظهر فيه العديد من القادة . إلا أن احداً منهم لم يعرف هذا السر : ولم تحاول أية أمة أن تلعب في هذا الانحاء . واستخدام البترول في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن بطريقه شعورية بل كان في معظم الأمر كمسا رجل كسبح يتوكأ عليها . وكانت هذه هي التجربة الأولى التي عرف الناس من خلالها أن البترول قوة ومثالة كبيرة . إذا ما استخدمت حتى بطريقة جزئية أمكن أن تهر الصناعة الدولية كلها .

وبعد وصلت قيمة البترول المستخرج من منطقة الشرق الأوسط في منتصف سنة ١٩٧٤ ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار في اليوم . وقد أحدث هذا الفضل من الثروة انقلاباً مفاجئاً في دول الخليج العربي حتى أن أهل البلاد أصبحوا عاجزين عن إيجاد مجالات لإنفاق هذه الثروة : وطبقاً لتقديرات البنك العالمي سيكون لدى دول البترول حتى سنة ١٩٨٥ ثلثي مائتي قادر بطيئون مليون دولار وذلك بعد خصم النفقات المديدة بكل أنواعها وبعد الإسراف الشديد جداً ، وهنا يجب أن نتذكر أن النبي ﷺ تنبأ بظهور هذه الثروة في الوقت الذي كانت فيه الرمال تتصير على الجزيرة العربية ولم يكن يرى فيها غير الجبال : وهذه النبوة جاءت في الأحاديث بالفاظ مطلقة وطبقاً لما ورد في رواية البخاري ومسلم :

« يوشك أن يحسر الفرائث عن كنز من ذهب فمن حضر فلا يأخذ منه شيئاً » متفق عليه .

وما قاله ﷺ حين أشار إلى هذا الكنز (فلا يأخذ منه شيئاً)

حدير بالاهتمام ؛ فمعناه أن الثروة الطبيعية أى الذهب السائل Demand to be لا يجب أن يكون من أجل التمتع الذاتي ، بل إن الثروة التى وهبها الله : يجب أن تكون فى سبيل الله : فالبتروك الذى ظهر فى هذه الأدب إنما هو لها فتنّة كبيرة : والشكل الوحيد للنجاة من هذه الفتنه هو أن ترمد هذه الثروة من أجل الكفاح والجهاد لإحياء الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام بالإضافة إلى النفقات الضرورية الأخرى . فإذا لم تفعل هذه الدول ذلك فإن هذا الكثر سيكون يوم القيامة وبالاً عليها . وقد نيه القرآن الكريم إلى هذا فى سورة التوبة (٣٤) (١) . والواجب أن ترمد الدول المنتجة للبترول ميزانية خاصة فيما يتعلق تشرك فيه كل دولة بهيئت خاصة تكون فى النهاية ميزانية يتم بها إنشاء مركز إسلامي عظيم على مستوى حديث : غاية مؤسسة علمية لا يمكنها أن تؤدي واجب شهادة الحق فى دنيا اليوم : فمعصرنا هذا هو عصر المستوى Standardization وفى دنيا اليوم لا يمكن انشئ أن يؤثر إذا لم يكن على المستوى الذى من أجله جعل هذا الشيء .

ومعرفة سنة الله تعالى من خلال سلسلة الرسل نطمحنا أن إعلان الدعوة يتم على مستوى الإعجاز الإلهي على الدوام . وإعطاء الأنبياء المعجزات هو لأمر الذى يحمل أهمية فى الأذهان البشرية العامة فى أى زمان . وذلك حتى يمكن للإنسان نفسه أن يشاهد سمو الله فى ضوء العبد المعروفة لدى الإنسان ذاته . ونبي آخر الزمان محمد بن عبد الله لم يعمد هذا النوع من المعجزات السابقة . وحيث طالبه

١ - نشر فى مجلة مدائن ١٠ والثمن مائة واربعة وخمسة و٧٠ صفحة فى مجلد

٢ - نشر فى مجلدات الفكر ٥

معرضو الإسلام بهذا ، قبل أن هذا القرآن الذي أنزل عليه هو معجزته
مبين (المعجيات — ٥١) (١) .

كانت تلك هي الطامية التي ميزت الزمان التالي . وبعد أيام
آخر الزمان دخل العصر الإنساني دور العصر العلمي والعقلاني ، إذ لم
يكن هذا العصر عصر « معجزات » بالمعنى السابق له ، بل هو عصر
يحمل أهمية الإثبات العقلي والاستدلال المنطقي . ولهذا اعتبر أنه
تعالى في ذلك العصر . القلم وسيلة لا عجز (العلي — ٤) (٢) .
وانزل كتباً هو القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله إنس ولا جان
(الإسراء — ٨٨) (٣) .

وفي العصر الحاضر تمثل الخطأ الأكبر في عدم وصول المستوى
الفكري العالي للمستوى الفكري المثلث في القرآن الكريم . وجميع
الأخطاء التي تقع فيها في عصرنا هذا إنما تكمن جذورها في نقص
معين ولهذا غاؤل عن يفسد به المركز الإسلامي المقترح هو أن
يستعمل أعظم سبل البحث لإثبات التعاليم الإسلامية على مستوى
علمي ودني . ويجب أن يكون هذا الهدف هو أول ما يقوم به وأن يكون
الهدف الرئيسي لجميع أقسامه .

وللعمل العلمي جنبين معينان يمكن استخلاصهما من الآية
التوجيه التالية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدِيعُ قَوْلِي لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

- ١ . قل إن قولي يعني : أودعهم في كتاب الله لكي يتقوا .
- ٢ . قل إن قولي يعني : أودعهم في كتاب الله لكي يتقوا .
- ٣ . قل إن قولي يعني : أودعهم في كتاب الله لكي يتقوا .
- ٤ . قل إن قولي يعني : أودعهم في كتاب الله لكي يتقوا .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات فنتوئي بكتف من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (١) .

يلهم من الآية الكريمة أن للاستدلال أسلوبين رئيسيين : الكتاب ، اسماوى المتعد : والعلم المسلم به لدى علماء الزمان . هذان هما الأسلوبان اللذان يدعمان دعوة الحق ، فمن ناحية التعليمات القرآنية يجب إضاح الشيء كما هو ، ومن الناحية الأخرى يجب التدايل على الإسلام حيث للمستوى العلمى الشائع ، وعنوان الشيء الأول هو ، إثبات الدين وعنوان الشيء الثانى هو : علم الكلام ، وتوجد كتابات كثيرة لا تعد ولا تحصى لإثبات التعليمات الدينية إلا أنها كلها تتم بأسلوب تقليدى . ولا تزال هناك ضرورة لإعادة صياغتها طبقا للمقتضيات والمستلزمات الفكرية الحديثة .

والاهتمام الأول هنا يجب أن يوجه إلى القرآن الكريم ، فطبيعة أن القرآن هو أكثر الأمور المؤثرة في مجمل الدعوة الإسلامية ، وأى كلام أو خطاب لا يمكن أن يبدل أو يغير هذا الكلام الربانى ، إلا أن القرآن الكريم يكون مؤثرا بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يعرفون لغة القرآن . وكان داعية الإسلام الأول يعرف هذا السر جيدا . ومن هنا فحين تخطى الإسلام نطاق الجزيرة العربية حلول أن يبذل كل جهد حتى تتعلم الأمم الأخرى اللغة العربية ، وكانت الأمم التي تسكن خارج الجزيرة العربية تتكلم آنذاك لغات مختلفة : كانت اللغة الأرابيه نروج في العراق والشام ، واللغة القبطية في مصر واللغة البهريرية في بلاد الغرب (إفريقية) ، وبجهود العرب انتهت هذه اللغات خلال قرن من الزمان وأصبحت المنطقة كلها تتكلم اللغة العربية وفى الفترة التالية.

(١) المائدة : ١٧

وحيث ملأ الجمهور على الأمم المسلمة مات الهدف الأعلى . ولا نست
أن أبحاث جادة عقيمة عن مثل هذه القضايا بدأت تقوض نفسها وعلى
سبيل المثال . هل يجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى أم لا ؟
هل يجوز الصلاة بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ هل يمكن إلقاء خطبة
الجمعة . بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ وغيرها من أبحاث عقيمة .
ومن حسن الحظ أن نال اللغة العربية حظاً من الاهتمام في زماننا
الحالي لعدة أسباب . كما أن السياسة النفطية أصبحت ذات تأثير قوي
لدرجة جعلت اللغة العربية هي اللغة الخامسة المعترف بها في الأمم
المتحدة . كما أن الاتجاه للنهم التاريخ القديم أصوله وفكره . ودراسة
الاديان كلها من البداية . جعل الناس يتجهون للغة العربية : وقد تم
الاعتراف بأهمية اللغة العربية التي يتكلم بها أكثر من مائة مليون والتي
تعد للغة الرسمية لأكثر من عشرين بلداً ، ووصل الاهتمام بها إلى
مجال السياسة الخارجية لبلدان للعالم فقد أثبتت الثروة العربية لدى
جميع الأمم جاذبية جديدة للغة العربية .

وعليها أن نستفيد من هذه الفرص الجديدة بكل قوة وذلك من
أجل إثراء اللغة العربية . والأساليب الحديثة سوف تكون أكثر عوناً
لنا : فقد ظهرت أساليب جديدة لتعليم اللغات تمكن الإنسان من معرفة
أية لغة بسرعة بالقدر الذي يحتاجه في عدة أسابيع فقط ، وعليها أن
تأخذ بهذه الأساليب لتعثر اللغة العربية : وعليها أن تترك سلعها الحرق
الديناموسية القديمة .

وهناك ضرورة أخرى تتعلق في إعداد كتب بمختلف اللغات من
التعليم القرآنية وسيرة الرسول ﷺ والحوال الصحابة والتفريخ
الإسلامي ويكتب بطريقة مبسطة لا تتضمن سرداً إنشائياً أو حشو
إنشائياً . بالإضافة إلى تجنب الأسلوب الأدبي المصطنع . واللغة التي

تظهر التعصب المزدوج . ويمكن فقط أن يقوم بهذه المهمة أولئك الناس الذين درسوا أسلوب البحث المعاصر ولهم قدرة وتمكن بأسلوب الكتابة الجديد .

والأمر الثاني الواجب القيام به هو إظهار الإسلام بطريقة علمية ، وليس معنى هذا تأليف الكتب ونشرها ، إن الإظهار العلمي للإسلام يدل حقيقة أن عصرنا هذا محل المعجزة النبوية ولهذا فهو أمر جديد حين يتم على مستوى « الإعجاز » ، والعمل الذي يتم بدرجة أقل من هذا المستوى لا يمكن أن يسد ضرورة نشر وتطبيق دين الحق ، لا بطريقة علمية ولا بأية طريقة أخرى .

يفهم من القرآن الكريم أن كل من أرسلهم الله من أنبياء ورسول أرسلوا بلسان تلك الأمم التي وجَّهوا إليها (إبراهيم - ٤) (١) وليس المقصود بلسان التوهم اللغة فقط بل الأسلوب أيضاً .

ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية حين قدمت إلى تلك الأمة ، قدمت بمستوى الوقت الذي ظهرت فيه فجاءت على مستوى الأمة من الناحية القوية والبيانية ، وكانت تتطابق مع ذوقهم العلمي ، ومع طريقتهم الاستدلالية . وطريقتهم في التعبير ومعارفهم الفكرية ، وعلى سبيل المثال لغزمتنا هذا هو زمان الاستدلال التحليلي فإذا ما قام شخص بإلقاء خطبة حماسية ، وقدم استدلالاته بالتسر وبأسلوب تمثيلي فإن هذا يمثل مغالطة غير مقبولة بمفهوم العصر *Anachronism* ولا يمكن أن يقوم الاستدلال هكذا على المستوى البياني للقرآن .

والأمور الضرورية الأخرى تستمد من سنة الله تبارك وتعالى التي وضعها في سلسلة « المعجزات » ، فالهدف الأساسي للمعجزة سلب

١) يشير إلى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان توحيه ليقين لهم » .

ما يرتكز عليه الباطل من ركائز يعتمد عليها في ذلك الزمان . ومثل ذلك حين ألقى السحرة بهيالهم وعصيمهم في مصر . في يوم الزينة فأخذت تتلوي كالنملين . كان هذا في الحقيقة إعلانا لكبرياء الجماعة المعارضة لموسى عليه السلام ، وفامت عصا موسى عليه السلام بالقضاء على « إناكهم » حين مرت فوق هبالهم بعد أن أصبحت حين تسمى فقتت على حركتها وشكلها الشعائى :

« فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » (١) .

وعكسا في زماننا الحاضر رنعت دعوى ضد الدين على أساس علمي وعلى أساس تحقيقى وعلى علماء الدين ورافعى رأيتهم أنفسهم بدعم وتعصيد دين الحق عن طريق ردود علمية تقوم على أساس البحث والتحقيق . وعليهم أن يبرهنوا على ضعف استدالات الفريق لئسنى حتى يهدموا خالطهم العلمى وحتى يثبتوا محقق دين الحق .

وأهم هدف للمركز الإسلامى هو إعداد أئسخلص على أساسى مقتضيات ومستلزمات العصر الحديث ولا يمكن أن يتحقق هذا من دون مستكرات التربية المعروفة حاليا ، بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث أسلوب وطراز ، وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التى تتعارض مع الإسلام ، ومن هنا يمكن تخريج رجال يواجهون هذه الأفكار ، وتتم تربيتهم في تلك أعظم الأبحاث أيضا .

ويذكر القرآن الكريم فيما يتعلق بموسى عليه السلام أنه مر بمراحل مختلفة وبتجارب عديدة ابتداء من حياته داخل قصر فرعون وحتى وصوله للحياة المهاوية . وحين وصل إلى مرحلة التفسج

وإلى الدرجة المقررة حيثئذ أسندت إليه مسئولية النبوة طبقاً للسنة الإلهية المستطاع أن يؤديها على خير وجه «ثم جئت على قدر يا موسى»^(١) هذه هي الطريقة التي اختارها الله لجميع أنبيائه .

ويلزم لدعاة والمبلغين في الفترة التالية أيضاً أن يعدوا أنفسهم جيداً لهذه الأصوب ، فعليهم أن يتعلموا لغة تلك البلاد التي يقومون بدعوة أهلها .

كان زيد بن ثابت الأنصاري يعرف ست لغات : العربية والفارسية والرومية والقيبطية والحبشية والسريانية ، وكان من واجبه دراسة الأديان دراسة مقارنة حتى إنه كان حين يعرض الإسلام أمام أهل أديانات الأخرى - كان يعرف كيف يوضحه لهم بأسلوب رائع وبسجة دامغة .

ومعنى الداعية أيضاً أن يكون على معرفة بالعلوم التي تتعلق بالدين سواء بطريقة إيجابية أو سلبية حتى يمكن أن ينتبه إلى الخلفية الذهنية للمتخاطب أثناء خطابه معه .

هذه هي الأمور اللازمة التي تصل بالداعية إلى المهام الذي يحمله كفراً لعمله حين يدعو الناس إلى دين الحق .

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المتاحة من أجل تربية دعايتها . وعلى سبيل المثال إنطلاقهم بطريقة كاملة على أحوال المسيحيين في الاتحاد السوفيتي ، فقد أتت هذه الإرساليات من أمريكا في منطقة غائبة مدنية ، كانت نموذجاً كاملاً لمدينة روسية . وإلى المدينة المصطنعة كانت اللغة الروسية هي لغة التخاطب ، كما كان

الإنعام والشراب والحياة وكل شيء على الطريقة الروسية . وهكذا تم تقريب وغريبه عدد من الفلاسفة تربيته عطية حتى أصبحوا من ناحية الشكل والصورة . ومن ناحية اللغة والعادات والتقاليد ومن كل ناحية - يبدون وكأنهم من أهل روسيا نفسها - تم تم تدريبهم على قيادة الطائرات والسقوط بالمظلات . وبعد أن تخرجوا على كل هذا وذبحوا فيه ، تم إسقاطهم في سمات داخل من الطائرات في المنطقة الروسية حيث عاشوا هناك لفترة محددة في المدينة الروسية ودخل هذا « السدر الخديدي » درسوا حالة المسيحيين . وللتقيام يمثل هذا العمل «ادائي تم أيضا تدريبهم على جغرافية الاتحاد السوفيتي - وبعد استكمال هؤلاء الفلاسفة لبرنامجهم ، تم إنزال الطائرات مرة ثانية في منطقة روسية بعيدة ، وحسب الاتفاق وكبوا الطائرة وعلموا إلى مرتزحهم مرة ثانية .

وفي داخل غابات يميلو الفسيحة توجد عدة قبائل لا تزال تعيش حالة من البربرية ، تقوم بقتل أي إنسان متحضر إذا ما اقترب منهم . وضع التملري برنامجا لتبليغهم رسالة المسيح : فاعلموا لهذا عمله وبدأوا في تربية الناس : ووصل هؤلاء الناس إلى هذه المعضلة . وتم إسقاطهم بالمظلات ، وفي البداية قامت هذه القبائل بقتل العديد من المبشرين المسيحيين ، إلا أنهم استمعوا في محاولاتهم ، تعلموا لغتهم ، ووعظوا لها قواعد وترجموا إليها الإنجيل وأعلموا في هذه اللغات مطارا وإذاعة ومستشفى وكلية ومطبعة: أقاموا عالما جديدا وفي النهاية تحولت هذه القبائل إلى قبائل متحضرة ودخلت المسيحية .

ذلك هو مستوى التربية الذي وصل إليه دعاة الأديان الأخرى ، فطالما لا نقيم نظاما لتربية أفرادنا على مستوى طيب كهذا المستوى أو أطيب منه فلن يمكن للحركة الإسلامية أن تنجح في الوقت الحالي . ولا يمكن لمحاولة أقل من ذلك أن تبنى « ذهنا أمام الله » .

ومع الاستعدادات السابقة فإن تعاون عامة المسلمين في إطار المركز الإسلامي هو ضرورة واجبة من عدة جوانب تستلزمها في ضوء القرآن والسنة .

١ - العمل الأول هو إحياء الإحساس داخل عامة المسلمين وهو الإحساس بين المسلم ليس كأي إنسان عادي بل هو إنسان ينتمي إلى الأمة المحمدية . وهذا الانتماء يفرغ عليه مسئوليتين في وقت واحد : الأولى أن يتبع في حياته الخاصة سبيل الإيمان والإسلام ، والثانية أن يقضي حياته في ظل هذا الإحساس أي يكون شاهد حق في هذه الدنيا :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالنسب أشداء لله » (١) .

فالشخص الذي يعتقد الإسلام عليه مسئولية الحق على طريق « القصد » في جميع معاملاته . وهو القصد الذي قرره الله للناس . ولكن حين يصادفه رجل لم يتبع الإسلام بعد فإن هذه المسئولية تتخذ شكلاً أكثر دقة ، فلعله يقبل الإسلام ، ويزيد المسئولية أكثر فأكثر إذ يجب أن يتعامل في ظل الإحساس بأنه نائب وممثل لله في هذه الدنيا . وذلك لأن الناس سوف يظلمون من خلال عمله ومن خلال كلامه على ما يرضى الله وعلى السلوك الذي يسلكه الإنسان ليرضى ربه تماماً مثلاً يجب أن تكون الإشارات المعلقة على الطريق Sign Post صهيحة تمام لأنها تدل على الجهات التي يعضى إليها المسافر ، فإن لم نعمل كذلك فإن عيئه الطريق لا تكون لها قيمة . ومن هنا فيجب على مسلمي العالم أن يكونوا ممثلين للحق في هذه الدنيا ، ففي الحالات العامة يمكن أن نكون بعضنا المسلمين شوقاً بقيل الغفران . ولكن حين يكون الأمر متعلق بمواجهة غير المسلم فيجب على المسلمين بله من الضروري أن يراعوا جميع الجوانب بمنتهى الحيلة والدقة حتى لا يعطوا صورة خاطئة لدين

الله أمام غير المسلم ، ففي الحياة العامة يمكن أن يظهر ذلك بلمسهم « الذين يجتنبون كيمائر الإثم والفواحش إلا اللثم » (١) . ولكن حين يتعلق الأمر بغير المسلم فإن الانحراف عن الحق إنما هو تلمعا كتشبهه الزور (انظرهنا - ٧٢) (٢) ونسجادة الزور هي في نظر الله من أعظم الآثام .

٢ - اعتاد العرب أن يقيموا كل سنة وفي أماكن متفرقة مهرجانات واحتفالات قومية تجتمع فيها القبائل من كل ناحية . فتمتد برامج للتسلية وللتجارة ، كما هو الحال في بعض المهرجانات اليوم . وفي كتب السيرة يرد ذكر مهرجانات (سواق) عكلا وذى المجاز ومعنى وغيرها . وكان من بين الطرق التي اتبعها نبي الإسلام في دعوته الذهاب إلى هذه المهرجانات ودعوة الناس إلى الدين الحق . ويقول أحد الصحابة في للفترة الأولى . رأيت النبي ﷺ في سوق ذي المجاز وكان يهر في السوق مرتدبا عباء حمراء ويقول : « أيها الناس قولوا لا إله إلا الله فلتحرأ » .

ويمكن اتباع هذه الطريقة في زماننا الحالي : وذلك بوضع مقاصد في أماكن الاجتماعات والمعارض والمهرجانات المختلفة . توضع عليها مختلف الكتب الإسلامية بمختلف اللغات : توزع مجانا ، ويمكن إسماع الناس الرسائل البسيطة بأسلوب شيق عن طريق مكبرات الصوت . كما يمكن إنشاء زوايا مكتبية : ويمكن استحداث أساليب جديدة في أماكن تجمع الناس لتحقيق هذا الهدف الذي كان يحققه النبي من خلال أسواق العرب ومهرجاناتهم القديمة .

(١) التيم ٢٤ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كبراً »

٣ - يذكر في التاريخ ان النبي ﷺ أرسل خالد بن ميلة بنى حارث - وهم فنن على الإسلام - حتى يبلغها رسالة الإسلام - ووصل خالد ورفاقه إلى نجران ومن قبيلة بنى حارث - وقدموا رغبة - عاضدوا يقولون بارجاء نجران جميعها ويتولون بمسوت من : « ايها الناس اسلموا تسلموا » (١) - وكان يطلق على كل هذا وفد مصطلح « سرية » - وبعد الهجرة أرسلت مثل هذه السرايا إلى السكان غير المسلمين ، وكانوا يذهبون في شكل جماعات يدعون الناس إلى الإسلام بأسلوب بسيط - ويمكن اتباع هذه الطريقة بما يتوافق مع الظروف الحالية وتستعمل في تعريف الناس بالإسلام -

وعلى سبيل المثال يمكن اختيار مدينة أو حي غير مسلم - ويمكن دراسة الظروف هناك وطبقا لهذه الظروف سم نريبه جنداه مسه - بعين له امير - يكون عليه مهمة التلام ويقي بفيه الناس مسلمين يدعون له - تصل هذه القافلة إلى المدينة المقررة فتتصل في كل شيء ركعتين ويدعو الجميع أن يعينهم الله على تحقيق مهمتهم ، وتخرج القافلة - بعد ذلك - تحت إعلنا طيباً عن اجتماع في مكان معين في وقت محدد - ويدعى إلى الاجتماع الرجال والنساء جميعا - وتكتب على البطاقات التي توزع على المجتمعين عبارة بسيطة مناسبة مثل :

« والله يدعوا إلى دار السلام » (٢)

(and God calls to the home of peace)

يقدم أمير الجماعة البطلة إلى رب الأسرة ويتحدث معه حديثاً مختصراً ، ثم يدعو للاستراك في الاجتماع في المكان والزمان المحدد - وتصل الدعوة إلى كل بيت في المنطقة ويجتمع ممثلوا الوفد يؤدون

(١) البداية والنهاية - صفح ٩٨ -

(٢) جونس ٢٥ -

الملاة هناك : ويذكرون الله ويدعونه . يتلون القرآن . ولا يكون الأمر كما يجري عادة حين يجتمع الناس ويتشغل كل منهم في حديث خاص مع الآخر بل معهم الذكر والمعبدة والدعاء والتلاوة المكنان : فيفيض على كل من رجلي وجو من تسخير الباطن . وتتصاح من كلام المتحدثين خصوصية الصدق حتى يكون كلامهم معاداة لقوله تعالى : « وقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » (١) . ثم يقوم الخطيب بذلك خطبته في النهاية بهذه المناسبة ويكون فيه نموذجاً لكل داعية مسلم .

٢ - وكما يوجد في زماننا الحاضر حالات أو حدائق للاجتماعات . كن هناك أليسا لدى العرب القديمى جبل الصفا : وهو في الحقيقة هضبة يقف عليها الإنسان . ويقادى فيجتمع الناس فيلقى فيهم خطبته . أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أنزل الله (وانذر عشيرتكم الأقربين) أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباهاه « فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيىء إليه وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله ﷺ يا بنى عبد المطلب : يا بنى فهر : يا بنى كعب : أرايتم لو أخبرتكم أن جبلاً يسبح هذا الجبل ثريد أن تغفر عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال فأتى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

وهكذا يمكن أن نستفهم الأماكن العالية كما كان يستخدم الصفا « لإبلاغ دعوة الحق . ويمكن أن تعلق مثل هذه الاجتماعات التي تملأ فيها الفرصة لأهل جميع الديانات الأخرى حتى يقدموا مبريقاً بأدياتهم ويوضحوا أصولهم ، ثم يقف ممثل الإسلام في النهاية ليعبر عن رأيه بطريقة علمية سليمة : يشرح ما هو الإسلام : وهذا

موجب أن يفعل المسلم . وهذا الأسلوب له فائدة خاصة . لأن الخطاب فيه خطاب غير شخصي . وهكذا يمكن للإنسان أن يقدم الدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة . ولكن في الحديث الشخصي يشعر الداعي بمسوره معه بقدر من التكلف في دعوته للإسلام مباشرة . وفي البلاد التي يسيطر فيها المسلمون على الوسائل الاجتماعية يمكن الاستفادة على نطاق واسع منها سواء باستخدام الإذاعة الإسلامية مثلما أنشأت الإرساليات المسيحية إذاعة باسم « صوت الإنجيل » في إفريقيا تؤدي وظيفة التبشير بالمسيحية .

٥ - وفي المركز الإسلامي يقيم متحف إسلامي تجمع فيه الآثار التاريخية الإسلامية وذلك في صورة وقائع وأحداث تاريخية : ومن المعروف أن المسيح عليه السلام ومن سببه من الأنبياء لا يوجد لهم أي تسجيل تاريخي معاصر . ولهذا اعتبر هؤلاء الأنبياء شخصيات أسطورية . وليست شخصيات تاريخية . أما خاتم الأنبياء ﷺ فجميع الوثائق التاريخية والأحداث زمانه وحياته لا تزال باقية وثابتة حتى الآن . وتجمع في هذا المتحف كتب المؤرخين المعاصرين له . تلك التي كتبت باللغة الآرامية واللغات الأخرى والتي تذكر صراحة . النبي الإسماعيلي . وكذلك ما أرسله النبي من رسائل إلى ملوك زمانه . ويمكن الحصول على صور لهذه الرسائل : كما أن أول نسخة من نسخ القرآن محفوظة في مكتبة طشقند وهي النسخة التي رتب تحت إسرائيل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويمكن الحصول على صورتها . وهناك أشياء أخرى من آثار النبي لا تزال موجودة . حتى شعوره وعلاجه والأشياء التي كان يستعملها ، وهكذا توجد آثار تاريخية بحالتها الأصلية أو بصورتها ، فإذا أنشئ هذا المتحف على مستوى لائق فسوف يكون مركزاً يقدم شهادة تاريخية : يند عليه الناس من جميع بقاع الأرض ، فالوثائق المتعلقة بالتاريخ الديني تحمل قيمة أهم

وأعظم من النواذر الاثرية التي جمعت في روما والتي يقدر رؤيتها
- من جميع أنحاء العالم -

٦ - إذا ما افترضنا مثل هذا المركز وتضمن جميع الأقسام السابقة
الذكر حيث تقام فيه الصلاة ويقام فيه ذكر الله والابتغال إليه ، وينضم
مكتبه ومكتباً إسلامياً ، وجميع النشاطات الإسلامية الأخرى من كل
نوع ، فإنه يمكن أن تتحقق من خلالها أهم الفوائد : وعلى سبيل المثال
يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله
ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (١)

يفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى يريد أن يكون « للإسلام
مأمن » في مقابل « ملأ الشرك » حيث يأتي الناس ليشاهدوا الإسلام
ومظاهره ويستمعوا إلى رسالة الله ، وسيقوم المركز الإسلامي بجميع
شعبه بأداء هذه الخدمة ، حتى إنه إذا وجدت الوسائل والسبل جعل
الناس إليه حبالاً وبعد أن يشتركوا في برنامجهم يعدون إلى « مأمنهم » .

٧ - في القرن الأول كانت فطرة العرب بمثابة أرض خصبة
للاسلام . وهذه الفطرة استبدل بها المجتمع العلمي في العصر الحضري
وحديثة ، ووترجيت « المشهورة في أمريكا (١٩٧٣) : وبعد ما محاسبه
رئيس أكبر دولة « ريتشارد نيكسون » وهو على كرسي الحكم بأشد
سورة . ثم استقالته في النهاية في أغسطس سنة ١٩٧٤ . مثل هذه
الحادثة إما أن نجدها في المجتمع الإسلامي أو في المجتمع العلمي ؛
محمدة أن المجتمع العلمي يصل إلى هذه الدرجة من الكفاءة التي
نطلق عليها من غير قصد « الفطرة » ومثل هذا المجتمع يتكون وينمو

في تلك البلاد نتيجة للتعليم والتربية العلمية . في تلك البلاد إذ
ما قدمت الدعوة إلى دين الحق مع مراعاة مزاج أهل البلاد . فإنه من
المؤكد أن يجد هذا الدين عندى من ثواب التجيئة العظمى منهم .
خالدة مع الواقعية تمثل درجة عامة في العلوم . ولهذا يكون تأثيره
على العاملين في مجال العلوم أكثر واعمق ليعمل إلى داخلهم . إذ يظهر
لديهم تلقائيا مزاج الفكر الدقيق . وكان يطلق على الفلسفة قديما
« ملكة العلوم » إلا أنه في العصر الحديث لم تعد الفلسفة تتمتع بهذه
الأهمية لأن عصرنا هذا هو عصر الدقة الفنية . وأسلوب الفلسفة
لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى مستوى الدقة الفنية . وكان
من نتيجة تلعب أسلوب التفكير العلمي انتهاء الاستمراري الفهمي لدى
خليل قديم . إن هذا المزاج من الفكر الواقعي يتناسب تماما مع تقليد
دين الحق .

و المجتمع العلمي وفهمه أرفق خصيه تقتل مع الدعوة إلى الإسلام .
ولا ننسى أنه في هذا المجتمع أيضاً تواجدها مشكلة : فالعلماء العلمى يقدم
عاده عن طريق التجارب الخارجية . ومن هنا خلا يتكفى للتأثير في المجتمع
تقديم الاستدلال الفكرى والنظري . فاهل هذا المجتمع يحتاجون — مع
سماعهم للدرس الروحي — إلى تجربة روحانية يمكن أن يقنعوا من
خلالها بصورة عملية ما هي الروحانية . وكيف يمكن تنميتها . ويرى
بعض الناس أن حل هذا الأمر يكون بالتمسك بالأدكار ، إلا أن هذه
قضايا طرق غير مشروعة ولا يمكن إحياء السفة عن طريق البدعة .

وقد ورد إلى خاطري هذا السؤال وأنا أعد هذا الكتاب بين يومي
١٣ و ١٤ يولية سنة ١٩٧٤ وقد رأيت حينئذ . وكنت في « دلهي » رأيت
أسمى مع بعض الناس من غير المسلمين . وأتفق أشرح لهم عن الإسلام .
وكانوا متفتحين بفاعله عالية . ولهذا كانوا يحتاجون إلى التمكن من سره

صدق الإسلام بالتجربة . فأجبتهم بكل ثقة أن هذا أمر ممكن . وله شكل واحد ، وهو أن يجربوا الصلاة . وهي أهم ركن من أركان الإسلام العملية . وكان الحديث باللغة الإنجليزية ونهضت من تومي وتكررت هذه الفقرة :

Without being a muslim you can experience Namaz

« يمكن أن تجرب الصلاة بدون أن تكون مسلماً » . وبعدها طلبت من ردمي انوسو . وقلت لهم إني سأقوم بالصلاة على أن يفتوا ويردوا مني ما أقول .

بعد هذا الحلم فكرت كثيراً فعرفت أن الصلاة لم تكن لها فائدة نظرية فقط بل كانت لها فائدتها العلمية أيضاً عبر التاريخ وخلال مرات كثيرة . فيروي أن إسلام « هند جوكخور » كان سببه الأول الصلاة . ويكتب أحد علماء التاريخ الأفريقى : « لقد انتشر الإسلام في وسط أفريقيا عن طريق السياح والتجار العرب . وكانت الصلاة هي أكبر معجزة تسببت في نشر الإسلام في أفريقيا حيث يقف الناس جميعاً خلف إمام واحد يبدو على وجوههم الخوف من الله والرهبة منه فكان الناس يتحجبون ويتدبسون على عبادتهم للأسماء . ومن ناحية أخرى فالعبادة الإسلامية كانت تجذب إليها الناس . وكانت النتيجة أن الصلاة فقط كانت سبباً في جذب معظم سكان أفريقيا للوسطى إلى كنف الإسلام » (١) .

ويكتب محمد حسنين هيكل (رئيس تحرير جريدة الأهرام سابقاً) أن جمال عبد الناصر ذهب لأول مرة إلى روسيا وفى لقاءاته بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٥٨ أظهر رئيس وزراء روسيا خروشيوف شوقاً واعتقاداً بالصلاة :

« كان لدى خروتشوف شغف كبير بمشاهدة منظر صلاة المسلمين . وبعد تناول طعام الغداء في بيت خروتشوف شرع ناصر في الذهاب إلى مسجد موسكو للصلاة ، فأخذ خروتشوف يسأله العديد من الأسئلة ، وكان ناصر عثقولا بالوضوء بينما كان خروتشوف يقف وهو يمسك له المنشفة ، لقد أظهر احتراماً وتقديراً كبيراً (١) » .



لقد اشترى بلد عربي جزيرة بجوار الساحل الأمريكي وجعلها ممراً لسيور ، ولبيت هناك بلدا إسلاميا اعتم بالامر فحصل على منفعه جزيه من الارض في العالم الغربي فلقام عليها مركزاً إسلاميا على مستوى رفيع يضم مسجداً بالإضافة إلى بقية الأقسام الأخرى التي سبق ذكرها . وتعطى الفرصة لغير المسلمين أيضاً ليقوموا بأداء الصلاة مع المسلمين بدون عطفة أو تعاطف يحملون عدة ركعات على سهيل التجربة ، وهناك أمل كبير أن تثبت هذه التجربة فائدتها ويدخل التسامح في دين الله الفواجباً : وهذا القول ربما لا يجانبه الحواب وهو أن فتح العالم الغربي — الذي يبحث عنه قلوبنا منذ قرن — إنما يكمن في « الصلاة » كأعظم وسيلة للتأثير فيه .

المسكانيات البخارية

قال هوبز (١٦٤٦ - ١٦٣٤) إن العالم في حاجة إلى دين جديد. نحن في حاجة إلى عقيدة تحدد المصالح الإنسانية كلها . وتقيمه على أسس شرعية وتسايب ضروري . وتقدم للإنسان شعوراً واحساساً . بأن أن يعتمد عليه بكل ثقة « (١) » .

ولم يكن الفيلسوف الإنجليزي يعلن عن حاجة العالم إلى الدين الجديد في الربع الأول من القرن الحادي حتى أعلن العالم الفرنسي « لافونتين » (١٨٠٢ - ١٨٤٧) بدء عقل من نوعه من الإنحداد . وعودته إلى الدين . ونشر كتابه الشهير Humanism فكان ذلك علامة على عودة الإنسان إلى حظيرة الدين . والآن وفي نهاية القرن العشرين ظهر هذا الأمر أكثر وضوحاً ، وزاد هذا الإحساس بعد التجارب المادية . إن فشل محاولات الإصلاح الاجتماعي من خلال القوانين الوضعية والتدابير العنقودية قد أجبر العقول التي ظلت تتراجع دين أن تدين أكثر . حتى إننا اليوم نشهد حركة رد فعل مضادة تهدف إلى العودة إلى الدين . وقد ظهرت هذه الحركة في العالم كله .

وهذا جيل أمريكا الجديد . الذي آمن آياؤه وآمن أجداده بنظريات داروين ولغرويد-يبحت الآن عن راحته وهدوئه في حركة « ثورة المسيح John Revolution » وحركة « مصفرة كرشنا » Krishna Consciousness . وانسحاب الياباني وسبل إلى قمة الرقي . ويشعر بالفراغ نظراً لعدم وجود قيم روحية . ويقولون إن ثقافتهم ثقافة تجارية لا تقدم لهم سوى التيم التجارية Material values فقط .

ومد وصل الامر إلى أن الجيل الجديد في روسيا ، وهو الذي نشأ وروى في أحضان المجتمع المتمدن ، بدأ الاتجاه ناحية الدين . وفي اجتماع عقد لاحتفاء هيئة معارضة الأديان في موسكو بالاتحاد السوفيتي قال أحد النشطاء وهو يذكر ببطء الإجراءات التي تتخذ ضد الدين : « إن عملنا في مواجهة الدين يتحرك ببطء المحرك البخاري » .

وسمعه ضابط آخر فقال :

« محرك بخاري ! إنه الآن لم يكشف حتى العجلة » .

إن جميع النظريات التي ظهرت في القرن التاسع عشر في مواجهة الدين والنيل منه قد أثبتت الحقائق المكتشفة عدم صحتها بطريقة تدعو إلى الدهشة ؛ فنظرية الارتقاء التي لعبت على أنها بديل عن الخلق هي اليوم بلا دليل ، وعلى سبيل المثال اكتشفت أساليب وطرق يمكن من طريقها معرفة عمر الأرض بدقة « إلا أن العمر الذي ذكرته هذه النظريات ضئيل جداً ، ولا يمكن قياسه بالنسبة لعملية الارتقاء للتماذج الموجودة في الحياة الآن كما تقترح نظرية الارتقاء » .

وقد قام عالمان ممتازان من علماء البيولوجيا بتقديم نظرية جديدة. وهما فرانسيس كريك Francis Crick وزميله لوري أوجل Leslie Orgel اللذان فازا بجائزة نوبل عن أبحاثهما المشتركة التي أثبتتا فيها أنه لا يمكن تحديد أو تقرير أن مادة الأرض قد خضعت للنظرية الارتقاء ؛ فمن بين الأشياء المكونة للأرض مادة الموليبيدينم Molybdenum وبها دور في النظام البيولوجي . والنظام الإنزيمي يعتمد في عمله على هذا المعدن ، وهذا المعدن - رغم أهميته الكبيرة لغير العبادية - يوجد بنسبة « اثنين في الألف » من كل المعدن ، ومن ناحية أخرى فلا نسل المعادن الأخرى من مثل الكروميوم والنيكل ، وهي تشبه في

١٦ - واتمنا ويستقبلنا

«الوليديتي» وتصل نسبتها بين هاتين الأرض إلى اثنين في المئة .

لا تتصف هذه المعادن إلى أهمية المعدن المذكور وذلك بالنسبة للنظام البيولوجي ، ويقول كريك وأورجبل إن التركيب الكيميائي للأرض كان يجب أن ينعكس على تكوين الحيوانات التي تكونت على الأرض . ولما كان هذا الأمر لم يعنى على إطلاقه . فمن هنا يفترض المعدان أن هناك على انقضاء الأعلى للحياة أماكن معينة أرسلت إلى الأرض من لادن حفصارة أخرى راقية . وكانت هذه الفراءات هي الأساس العلمي لدى نينى عليه الكيميائي السويدي أريديس نظرية Par-terris (1) .

مثل هذه الأشياء التي لا حصر لها : وجدت في زماننا الحالي .
وقربت تعالما بين العلم أو بين الفكر الجديد وبين الدين . وقد سم
اكتشاف أمور أخرى عديدة في جميع أفرع العلم في العصر الحديث
ثبتت صحة المعتقدات الإسلامية بطريقة حيث العقول . وهزت الأذه
الإنساني .

نقد آذي العرب القدماء المعارضون لكلمة التوحيد • أدوا لدمجهم هذه الكلمة إيذاء جعلهم لا يتمكنون حتى من الجلوس ، وأجبروهم على ترديد كلمات « اللات والعزى إلهان من دون الله » . ولقد أثبت تطور العلم اليوم أن هذه الأمور — أي الشرك بالله — لا أساس لها من الصحة ؛ ففي العالم الحديث أصبح الإيمان بربوبية أي كائن من الكائنات أمراً لا معنى له . فلا وجود للشرك في دنيا العلوم . فإذا وجد عقل شجاع قادر على الاختيار وإذا وجد منه ضمير عبق حديث ،

١٠- تسمى هذه الظاهرة في الحياة بـ: **مخارج الفطرة الأرضية** .

بين إثبات الدين اليوم إنما يتم على مستوى عالٍ ويكتسح جميع النظم
الفكرية الحديثة .

١ - من أهم الاكتشافات العلمية الحديثة من وجهة النظر
الإسلامية هي : الأسلوب المنهجي الحديث ؛ فحتى بداية القرن
العشرين كان من الضروري لإثبات صحة أي استدلال أن تكون هناك
علاقة قرابة أو علاقة مشتركة بين الدعوى والشئ الذي يدعى في
حقه . تعلمنا كالعلاقة بين مفتاح الكهرباء وبين المصباح الكهربائي المتصل
به . وبعبارة أخرى يلزم لإثبات واقعية نظرية ما أن تكون قابلة للعرض
والإعادة . لكن هذا التصور انتهى الآن ؛ فالموقف العلمي اليوم هو
أنه إذا وجدت الحقائق أمكن من تربطها أن يستنبط العالم نظريته ؛
ويمكن الاعتراف بهذه النظرية المستنبطة بطريقة علمية كواقعية ، وحقاً
لهذا المعيار الاستدلالي الحديث تمت دعوى نظرية الارتقاء لأنه مهما
كانت غير مشاهدة إلا أن علماء الأحياء اكتشفوا حقائق تثبت الارتقاء
كاستنباط علمي .

واتضح من هذا المعيار الاستدلالي فإن الاكتشافات العلمية
الجديدة تصل بالإنسان إلى أمر هام جداً من وجهة النظر الإسلامية .
فحتى قبل خمسين سنة أم يكن من الممكن لما أن ثبت المعتقدات الدينية
على مستوى (الاستدلال العلمي) لأن العلم في ذلك الوقت كان يعترف
فقط بالحدائق المشاهدة . ولم يكن هناك أي مكان لدخول المجال العلمي
للحتمية المستنبطة . ولكن الاستدلالات التي يقدمها القرآن الكريم
للتعبير عن حقائق العالم اللامحدودة ، عن طريق واقعات العالم
المحدودة هي على الأقل استدلالات علمية خالصة وقائمة على أصول
نسبة . ولم يكن من الممكن - قبل نصف قرن - أن يقوم أحد بالاعتراض
بهذا الأمر كاستدلال علمي ، وهذا مجال واسع واستقلاله يمكن أن
يكون بمثابة قوة كبيرة تعضد الإسلام في ساحات النقاش وعلم الكلام .

٢ - والمسائل العقلية التي راجت في زمان ابن رشد (١١٣٠ - ١١٩٨) كلن إطارها قائما على المنطق الفيثاسى لأرسطو ، وقد شاهد ابن رشد الكتائبات من خلال إطار هذه المسائل العقلية القياسية ، فلم يتقبلها مثله . فكيف ينكر قدم المادة ؟ لقد آمن بأن المادة قديمة وعلى أساس هذا الإيمان وضع أسس فلسفته الإلهية ، ولكن الحقيقة أنه بعد الإيمان بقدم المادة لا يمكن أن يبقى هناك أساس حقيقى للدلائل . فنظرية قدم المادة تنكر تماما خالق الخلق ومبدعه . ويعددها . لن يبقى هناك مجال لله من حيث كونه « المحرك الأول » . والخفايا المكتشفة في زماننا الحالي وعلى سجل المثال « القانون الثانى الحرارة الديناميكية ، Second law of Thermodynamics . قد أنهى تماما وإلى الأبد حكاية قدم المادة . وهكذا فهناك حقائق عديدة تعطينا الفرصة لتتمكن من وضع الأدلة الدائمة للعقائد الإسلامية على أسس بالغة الإحكام .

٣ - هناك قضية كبيرة أوجعت دماغ الإنسان آلاف السنين دون أن تجد حلا ، وهى أن العلماء والحكماء الذين راحوا يحاولون حل لغز الكتائبات عن طريق العقل ، وصلوا إلى أقصى حدود السمو بمعنى ثم فشلوا في حل هذا اللغز ، وهذا هو السبب فى أن الفلسفة حتى الآن ظلت تعمل على التشكيك فقط . ولم تتمكن من الوصول بالإنسان إلى العقيدة الثابتة . وقد أوضح القرآن الكريم أن الإنسان أعطى علما قليلا (الإسراء - ٨٥) (١) . والإنسان عن طريق بحثه العقلى يمكن أن يصل إلى حد معين من الحقيقة ، ولا يمكن أن يصل إلى نهاية الحقيقة ، ومحاولة الوصول إلى نهاية الحقيقة لن تنقضى إلا بالفشل ؛ ولهذا فالآمر الواقع هو أن يعتمد الإنسان بعد الوصول إلى هذا الحد

(١) يشار إلى قوله تعالى : « وما خلقكم غير الروح فله الروح من أمر ربي وما أدرى به »

المعين على أسلوب الإلهام . وكانت هاتين الوجهتان موضوع الأبحاث
التييسيه في إحدى . وفي الوقت الحاضر أعطى العلم قراره إلى جانب
القرآن بطريقة مذهبة .

لقد اكتشف العلم أن الإنسان يمكن أن يصل بالأسلوب العتلى إلى
العلم الجزئي فقط ، حتى أن نظرية « الجحور السوداء » Black Holes
تدل على أن المادة لا يشاهد الإنسان منها إلا ثلاثة بالمئة فقط و ٩٧٪
من المادة لا يمكن أن يساعد الإنسان : وهذا الاكتشاف العلمي الجديد
أعطى القرية لتتمكن من إثبات موقف القرآن بأحدث الطرق العلمية
و - يدل على معنوية الحقائق الإلهامية على مستوى علمي جديد .

وما يشك العلم الجديد من أمور يتطلب دائرة معارف : ونحن
قد سنتبر إلى بعضها على سبيل المثال :

✽ إن النتائج التي توصلت إليها العلوم أثناء البحث في عالم
المنظرة أثبتت بطريقة محيرة أن هناك عقلا ما وراء هذه الكائنات :
هذا العقل هو الذي نلم يخلقها وهو مدبرها : والكائنات التي اكتشفها
العلم كانت لا تعمل في فراغ كما أنها منظمة تماماً وبدقة مذهلة . حتى
أن الأمر يكون هراء إذا لم نسلم ونعترف بأن وراءها خالفاً ومالك .

✽ أهم نقاط الخلاف بين الإسلام والاديان الأخرى تتمس في
نفسية الشرك . التوحيد ، فيصعب على الناس تفكير أن هذه
الدين التي تضم مختلف الأسكال والأنواع يمكن أن تكون لإله واحد
لا شريك له . إلا أن الاكتشافات العلمية قد أكدت تماماً قرارات العلم
الأخيرة المتعلقة بهذه القضية جنباً إلى جنب مع نظرية التوحيد
الإسلامية . وهذه القرارات تعنى أن الكائنات ليست فقط واحده
من ناحية خلوصها كلها للقانون كلى واحد ، بل إن تحليل مادتها إلى

النهائية يثبت أنها من هذه الناحية واحدة أيضا أي القوة أو الموجبة
الكاربرالية غير المرئية .

✽ وصل العلم إلى آخر مراحله فالتبت بما لا يدع مجالا للشك
أن وسائلنا العلمية قد قدمت لنا فقط علما جزئيا من عالم الواقع فهو
لا يمكن أن يحيط بكل شيء ، وهذا الأمر ليس صحيحا من ناحية وسائل
المساعدة الحالية فقط بل إن نوعية الحقائق هي من النوع الذي لا يمكن
مشاهدته أبدا بما لدينا من كفاءات طبيعية محدودة . ويلهم من هذا
أن الإنسان يحتاج إلى وسيلة أخرى لفهم عالم الحقائق بالإضافة
إلى ما يمتلك من علوم حسية .

✽ اكتشف العلم أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة
ويمكن أن تستنبط مظاهرها فقط ، ولا يمكن أن نراها بطريقة مباشرة
وهذا يؤكد تماما موقف الإسلام الذي يوضح أن الإنسان لا يمكن أن
يشاهد الله أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا . ولا شك أن البحث في مظاهر
الكون يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف الحقيقة الإلهية .

✽ لقد أثبت العلم أن القانون الإلهي يفوق القانون الوضعي
فيما يخص العلاقات الإنسانية وعلى سبيل المثال جعل الإسلام
الرجل قوامين على النساء (النساء - ٣٤) (١) بينما أكد القانون
الوضعي عكس هذا الأمر : المساواة بين الرجل والمرأة . إلا أنه ثبت
بطريقة علمية خلاصة أن المرأة أضعف من حيث الطرفة وأن الرجل
هو الجنس الأخرى بالنسبة للمرأة .

كان أهم أسس وضع عليه فلاسفة العصر القديم معارستهم
للدين هو « مسألة التقدم » أي أن الكائنات موجودة منذ الأزل . فإذا

١- يشير إلى قوله تعالى : « الرجل قوامين على النساء » كما نقل عنه مسير
على معنى وما افلحوا من التواليد .

دلت موجوده منذ الأزل فما هي ضرورة الإيمان بالخالق ؟ ! إلا أن
اسم الحديث قد أثبت أن عمر العالم محدود : وهكذا تم القضاء على
هذه نظريته قاطعة ، وبهذا بدأ الإنسان يعتمد على نظرية الارتقاء .
إلا أنه ثبت هنا أيضا أن العمر المحدود للأرض لا يمكن أن يكون كافيا
لنطاق الإنسان الحالي طبقا لنظرية الارتقاء في الخلق .

وقد اثبت العلم أن انحنائى الموجودة في الكائنات لا يمكن أن
نقيم على أى منها الاستدلال المباشر أيضا ، وما يمكن أن فعله هو أن
نصل إلى فرائى استنباطية عن طريق بعض المساعدات الظاهرية ، ومن
هنا نصل إلى وجود الحقيقة : وهكذا فقد أثبت العلم صحة الاستدلال
عيب من طريق الوسطة ، وهذا هو الأساس الذى قام عليه الاستدلال
على الدين .

قدم الإسلام نظرية خالقة الشورى في السياسة . وقد سيطرت
قديمًا فكرة الملكية الوراثية على العقول ، وكانت هذه النظرية غير
مقبولة . إلا أن الثورة الجمهورية الجديدة قد جعلت نظام خلافة
الشورى الإسلامية من الأمور المفهومة لدى إنسان اليوم .

أعلن الإسلام أن للضعفاء حقاً في كسب الإنسان القوي ، ولهذا
صدر قانون الزكاة : إلا أن هذا النوع من التنظيم الاقتصادي لم يكن
مطبوعاً لدى الإنسان قديمًا . وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت مسألة
الردة .

وعنى زمامنا الحالي جعلت الثورة الاشتراكية هذا الأمر مقبولا ،
أى وجوب وجود حق الآخرين في كسب شخص ما ، مع أن الاشتراكية
لها أخطأت في فكرة أن يكون للآخرين حق في ملكية الشخص مع أن
لمسحح هو أن يكون للآخرين حق في « الدخل » فقط .

وهناك أمر لم يفهم جيداً حتى الآن ، وهو أن عصر العلم هو حقيقة عصر الإسلام وما حدث صدفة وعلى سبيل الخطأ هو وجود صراع بين العلم والمسيحية حتى وصل إلى قضية الإلحاد . ما هو العلم ؟ هو ملاحظة الفطرة . والفطرة ودين الفطرة هما وجهان لحقيقة واحدة . وهذا هو السبب في أن القرآن أوضح أن عصر العلم ليس أبداً خطراً على الإسلام بأي حال من الأحوال بل العلم وسنة لتبيين الحق :

« منبرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (١) .

وعصر العلم لم يبدأ في أوروبا بل بدأ في الأندلس وصقلية في القرن التاسع والعشر والحادي عشر الميلادي ، وتؤكد حقائق التاريخ أنه لم يوجد صدام من أي نوع في ذلك الوقت بين العلم والدين . والعلم كان يتطور في ذلك الزمان ليخدم الدين ، ولكن حين قام الأتراك بإخراج العلماء البيزنطيين من الأستانة ومن القسطنطينية في القرن الخامس عشر . فهاجروا بعد ذلك ووصلوا إلى إيطاليا - حينئذ انتقلت أبحاث علوم الطبيعة من العالم الإسلامي إلى أوروبا وهنا اتخذ تاريخ العلم وجهاً جديداً تماماً .

وواجه العلم دنيا تسيطر عليها المسيحية فالواقع أن التعاليم الحقيقية لموسى وعيسى عليهما السلام هي نفسها تعاليم محمد ﷺ . إلا أن الناس الذي نقول به المسيحية هو شيء يعبر عن مذهب مثل . نضم أموراً إنسانية خلطت مع التعليمات الإلهية ، وهي بشكلها الحالي لا تمثل الدين تعميلاً صحيحاً ، وهذا هو السبب الذي لم يجعل العلم بمسلم بأي شكل مع الدين في بغداد وقرطبة ، بينما اعتبروا العلم في

كم من إيطاليا وفرنسا عدواً للدين . وقد توصل علماء ذلك المسلمون إلى مقاييس يجعل من الإمكان أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وذلك على عكس التعرض الذي افترضه أرسطو . وعندئذ لم يعتبر أي مسلم هذا الأمر معارفاً للدين ، وبعدها حين قال نيكلسون كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) بهذا الأمر اعتبرته المحكمة المسيحية مجزماً لأنه يحقر من شأن ابن الله فيجعل حياته تابعة للأجرام السماوية الأخرى ، وقد أكد أين مسكويه (- ١٥٣٠) أفكار الفلاسفة اليونانيين ودافع عن نظرية الارتقاء في الأحياء . فلم يتعرض الدين لأي خطر ، ولكن حين قدم تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) هذه النظرية شاع الهرج والمرج في الدوائر المسيحية الأوروبية .

يشير القرآن والمكتاب المقدس إلى أن الأرض خلقت في ستة أيام ، وإدراك العلم لهذا الأمر لم يعتبر متبادلاً أبداً مع القرآن . وقد قل العالم إن خلق الأرض مر بأدوار أكثر من هذا البعد الزمني لأنه ورد في القرآن صراحة أن المراد به « ستة أيام » ، ليس ستة أيام مما يعبدها الإنسان ، بل هي ستة أيام من أيام الله ، وعلى للعكس من هذا فإن « جاء في الكتاب المقدس نتيجة لإضافة الكلام البشري وخلقه جعل المقصود بالأيام . أيامنا نحن التي تعنى الليل والنهار وما يعبده الإنسان طبعاً لإدراكه لتتابع الليل والنهار . ولهذا اعتبر كثيراً كل من يؤمن بالاكشافات الطوعية في نظر المسيحية ، وتوجد أحداث كثيرة من هذا النوع ثبتت أن الصراع الذي حدث بين الدين والعلم إنما هو في الحقيقة صراع بين العلم والمسيحية ولو أن تطور العلم - كما كان في بداية ظهوره - قد تم في العالم الإسلامي لتغير وجه التاريخ الآن عما هو عليه .

فالقرآن والكائنات كلاهما وجهان للحقيقة واحدة ، فالقرآن مظهر

تصريف الكائنات . والكائنات تعنى بتدوير الأمر « تدوير الأمر » الله ، هذا الأديان « (١) » ، والعلم ليس سوى مساعدة « تدوير أمر » الله ، هذا بالإضافة إلى أن علاقته هذا التدوير يتوافق الفطرة موجودة لأن كليهما يعملان دائما في حالة متشابهة متعائلة . ولهذا فيلزم لمعرفة والاستخدامها أن يوجد هناك انطباقا فكريا لنوع حسابي على مستوى الدقة . وهذا هو السبب في أن البلاغة المتناهية على مستوى الأدب والخطابة يتلها صحة تفكر ودقته في مجال العلم . ومن هنا فالعلم يخدم الإسلام من ناحيتين : الأولى أنه يساعد الإنسان على أن يشاهد (الآء ربه) . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله في هذا العالم ؛ والثانية أن الفكر الذي يقوم على الأسلوب العلمي هو - بالتحديد - ما يريد القرآن من الإنسان .

والحقيقة أن حدوث صدام بين الدين والعلم كان مجرد حادثة عابرة . فلم تغطي فترة بسيطة - أقل من قرن - حتى مرى النفس الأساس للعلم وبهذا العلم يعود لحالته الأصلية .

بعد الحروب الصليبية (١٠٩٩ - ١٢٧٠) تحول العلم - من وجهة نظر الإسلامية - إلى صورة استثنائي . ظهر الاستشراق في أوروبا وقد تم تصميم جميع الآداب الغربية بأفكار مضادة للإسلام ، وكان هذا في الحقيقة استخدوما جديدا للطريقة القديمة للأمم المسيحية ، طريقة الخديعة المقدسة Pious Fraud . فقد كان الهدف عن فشل الحروب الصليبية قيامهم بمحاربة أهل الإسلام . فاستخدموا أسلوبهم هذا في العمل ضد الدين . وكانت أوروبا كلها تحت سيطرتهم ؛ ونجحوا في هذا الأمر لدرجة أنهم ملأوا - ليس فقط كتب التاريخ والكتب

انديته بدلائلكار المضادة للإسلام - بل أيضا كتب المعجم والادب . ولم تنجح من هذا الأمر أيضا مسرحيات نكسبح أو أنسمر ملتن . وله كانت هذه الكتب التي ضمنت في أوروبا هي الوسيلة الوحيدة لمقاربة الموضوعات العلمية في العصر الجديد . فإن الاستشراق الغربي ترك تأثيره الشديد ليس فقط على العقيدة الأوروبية بل على المعالم المتفككة .

ووصل للقرن التاسع عشر إلى نهايته وظهر تقصير قوله تعالى : « وانه غالب على أمره » (١) . وظهر طوفان من الأفكار الموضوعية يسير على العلم . وسيطر على الدنيا كلها ؛ وكان تأثيره على الاستشراق واضحا في كتاب « الأبطال والبطولات » لتوماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١) ويعدها استار هذا العمل وفي النهاية وحل الأمر إلى أنه كما قام فيضان الجمهورية يجعل الملكية الوراثية بلا معنى من وجهة نظر علم السياسة . لم يعد لهذه العقيدة أي ظل علمي في الدنيا . وهي عقيدة التشكيك والتشوية في تعليم وتاريخ دين ما للإساءة إلى هذا الدين . وهكذا تعرض الاستشراق القديم للموت المأساوي .

ومثال آخر على هذا التحول . ألا وهو الحركة العقلية الجديدة التي أطلق عليها خطأ Ambreter (حركة مضادة للعلم) بينما هي أصلا مضادة للمادة Anti material . لا مضادة للعلم . وعلى العكس من الأمثلة المذكورة سابقا فإن هذه الحركة لم تتخذ لنفسها حتى الآن اتجاها واضحا وهي في معظم الأمر حركة رد فعل . وليست حركة مستقلة ؛ فقد كان من نتيجة الحرارة الصناعية وحرية المرأة . لتتكون الأسرة . وخلق علاقة الرجل بزوجه من القدسية الدينية ؛ وأصبحت مجرد علاقة جنسية . ونتاج عن هذا الأمر زيادة حالات الطلاق وحرمان

الإنسان من تربيته أو التدين وإضافة عدد آخر إلى عدد النجوم من الخزيدي حيث تشهد البيوت يومياً حالات الطلاق المفكرة ، وبينما يخرج لزواج والزوجة كل إلى عمله ، يوضع الطفل في دار حضانة أو مركز للرعاية ، وهكذا يهرم من حضن الأميرة ، ويسلم إلى حضن الآلة ، وجاء في تقرير أمريكي أن هذا الأمر أدى إلى نتيجة غريبة وخطيرة فقد ظهر مرض للنسر بين الأطفال أطلق عليه (لوزم) وفيه يكون الطفل سليماً صحيحاً جسمانياً وخالياً من كل الأمراض في الظاهر بينما هو ذو عقل معتد مليء بظلمة عجيبة . وهناك العديد من المشاكل من هذا النوع مما جعل الناس يملكون الحضارة الصناعية ، ويهيرون منها ، ويرغمون شعارات العودة إلى الطبيعة ، وقد قسم فريق من علماء علم الاجتماع البريشتلين بإجراء تحليل وأبحاث أثبتوا أن خائلاً أن مجتمع الإباحية Primitive Society قد وصل إلى نهايته في بريطانيا ، وبدأت العودة إلى العهد الفيكتوري الذي كان يعتقد أنه انتهى تماماً وإلى الأبد في القرن التاسع عشر - وقد نشر كتاب لأحد المؤلفين الفرنسيين في أمريكا ويدعى (جين فرانكوافس ديويك) عام ١٩٦١ م واسمه Without Marx or Jesus ؛ ويتضمن الكتاب ٢٧٥ صفحة يشرح فيها المؤلف وجود ثورة في هذا العالم ، إلا أنها ثورة لا تقوم على الإلحاد أو الدين بل تقوم على قيم جديدة في الحياة سيكون من أكبر مظاهرها قيام حكومة عالمية وهذا هو الهدف الممكن والوحيد لأية ثورة . (ص ٨٣) .

وتوجد أمور أخرى مشابهة لا نعرض لها نتحدث في العالم الغربي اليوم . وهي ليست دليلاً على فكر مستقل بل هي دليل على أن الإنسان مصاب بالاضطراب نتيجة للحضارة المادية . ومن هنا راح يبحث عن حضارة أفضل . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية أعلن الإنسان أنه لا مشكلة لديهم طالما ظل دخان المصانع يتساقط من المداخن . ثم ظهرت

اليوم قضية شائكة تمثلت في تلوث البيئة بدخان المصانع ، وهذه قضية تعطل مكانة ثابتة بعد الحرب الذرية المتوقعة ، وقد حذر د . اينس دوهوز أحد أساتذة جامعة روكفلر (بنيويورك) العالم من أن التلوث الصناعي سوف يسلب الإنسان العديد من خصائصه ، حتى أن هناك خطورة تتمثل في تحول الإنسان إلى درجة دنيا من الإنسانية (١) . وهذا النوع من نتائج الحضارة المادية قد سلب الإنسان الحديث هذوه ورائحته . رغم ما وصل إليه من تطور ورقي . ففى العالم الغربي اليوم كتبت المؤلفات الكثيرة التى أسست فى الاعتراف بهذه الحقيقة . وعلى سبيل المثال كتاب *Wallace Kerr* المسمى *Decline of pleasure* (1962) — يقول المؤلف الأمريكى فى كتابه الذى يتضمن ٣٣٥ صفحة ، أن أهل أمريكا ليسوا سعداء اليوم ، فعلى الرغم من أن الجيل الأمريكى يمر اليوم بفرح عديدة سواء من ناحية سبل الراحة أو ما يملك من امتنيات . أو عمر طويل — فلهذه كل ما كان يحلم به الأجداد — إلا أنه جيل يشعر بالنعاسة رغم كل هذا .

كتبت جريدة التايم (١٨ يناير ١٩٧١) فى مقال لها بعنوان :

Journey to utopia

فى سنة ١٨٤٠ م كان كل أمريكى يحمل فى جيبه خبطة جميلة للمستقبل . تماماً كما يحمل منقبه فى جيبه ، لكننا نجد اليوم جيوب الأمريكيين وقد خلت من هذا النوع من الرغبة . فقد يئس الناس من الظروف الاجتماعية تماماً وانتهت تمسورات بناء المجتمع الرافى السامى ، وبدلاً من فكرة بناء جنة على الأرض أصبح الجميع يميلون إلى البحث عن الجنة فى داخل ذاتهم . إن دمار اليوم قد جعل عدداً كبيراً من مفكرى العالم يسعون آمالهم وعقائدهم على آرواحهم كآخر ملجأ للمثالية . وبدأوا يحضنون على الاتجاه للروحانيات بدلاً من الماديات

حتى أن بعض الناس يقول إن عملية التسمو هذه إنما تمثل بالخطورة إلى أعلى مراحل الشعور وتعمل بالإنسان في النهاية إلى التسمو وإلى حقيقة أي إلى الله . *

واعتقد الأمريكيون بعد العصر الصناعي أنهم سيبدون نجاحهم في التكنولوجيا . وقام المؤلفون برسم خطط ونماذج عظيمة ورائعة ، إلا أن التكنولوجيا قد أثبتت فشلها في توصيل الإنسان إلى سعادته ؛ نسجل التكنولوجيا ووسائلها بدأت تستخدم بسهولة كبيرة في تدمير الإنسان بدلاً من تطويره ؛ والإنسان حين يصل إلى آخر مراحل الجنة الآلوية فإنه يتعرض لتفاسيا حادة مذهلة ؛ وهذا ليس مجرد مصادفة ؛ بل هو أمر يمتد على سنة الله ؛ فهو يطلق ظروفنا داخل حياة الناس الفاضلين تضع أمامهم دائماً علامة استفهام . *

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (١) . *

لقد أرشد الله الناس إلى خيرهم ، وعلى وريثة نبي آخر الزمان الآن أن يعملوا على الاستفادة من هذه الأرض . قهواولوا بإفساح دين الحق حتى يقبله الإنسان الجديد . لكننا - للأسف - لم نشاهد مصلحين يقومون بهذا العمل ؛ وعلى العكس من هذا انضموا معاً في قتال وصراع سياسي مع الأمم التي يدعونها إلى الدين وهو صراع لا نتيجة له . ونتائج عن جهل كبير بأسلوب الدعوة إلى الدين . *

وفي العصر الحديث حين استولت الأمم الغربية على البلاد الإسلامية ظهر سؤال ألام جميع البلاد الإسلامية وهو : ما العمل لمواجهة هذه الأمم ؟ . كان أساس العمل في ذلك الوقت هو وضع

حطة مستقلة في ضوء التعليمات الدينية ، وفي ضوء سنة رسول الله ﷺ .
ثم الاجتهاد من أجل تطبيق هذه التعليمات وتنفيذها . وعلى المكس
من هذا مضت قافلة مجاهدين على طرق ردود فعل سلبية •

وقد كان لردود الفعل هذه اتجاهان اثنان . أولهما ظهر نتيجة
للدفاع النفسى . فقد حاول هؤلاء الناس أن ينفثوا روح الدين في
المسلمين طبقا للأساليب التقليدية الراجعة . وعلى سبيل المثال إنشاء
مدارس للتعليم الدينى . عقد اجتماعات دينية للتعليم عامة الناس
المعتقد الإسلامية وتعليمهم العبادات والاجتهاد . والعمل من أجل
الحفاظ على مصالح المسلمين الخاصة وغير ذلك •

والاتجاه الثانى كان اتجاها في معظم الأمر تتبرعه طبقة ثورية
تقدم مقترحات جريئة •

وقد أشعلت كتابات هؤلاء المفكرين الثوريين وخطبهم النار في
العالم الإسلامى كله •

وكن هدف جميع هذه الحركات الاستقلال بدولة إسلامية . ونال
كل منهم شهرة غير عادية . إلا أنها جميعا فشلت في تحقيق هدفها :
والسبب الوحيد هو أن هذه الحركات جميعها جعلت من السياسة
(وهدفا) ميداناً لعملها . وهذا أدى بنا إلى الخروج عن الطريق المستقيم
للإسلام بصورة نظرية فلم تتمكن من استحقاق النصر الإلهى •

كان الجانب العظمى والنظري يتنقض أن يجعل هؤلاء من الدعوة
الإسلامية الشاملة مهالا لتعلمهم . فهذا هو المجال الذى يتكلمون فيه
على معارضيتهم بطريقة واضحة وعريضة . إلا أنهم لم يستطيعوا أن
يرتفعوا إلى مستوى الظروف • وظهروا من ناحية حركات تهدف إلى
تجريح الإسلام من جانب الاستعمار الغربى : ومن ناحية أخرى قدمت

حركات تدعو إلى الجمهورية الاشتراكية وحولت مزاج العالم كله إلى التفكير في أسلوب سياسي معين . هذه العوامل جعلت الحركة الإسلامية تأخذ في تفكيرهم نوعا من الحركة السياسية فأخذوا يدفعونها للسير وفقا لمخططات وقتية بدلا من أن يدفعوها إلى الصراط المستقيم الأزلي المطالذ .

وقد وصل السيد جمال الدين الأفغانى إلى هذه الحقيقة قبل قرن من الآن . وهى أنه في مجال الدعوة توجد فرس عظيمة لنجاح الإسلام : فقال في هذا الصدد :

« إن أهل أوروبا مستعدون للقبول الإسلام إذا أخصت الدعوة إليه : فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا اليون ضارعا من حيث يسر العقائد وقرب تناولها : وأغرب من أهل أوروبا إلى الإسام أهل أمريكا لأنه لا توجد بينهم وبين الأمم الإسلاميه عدوات موروثة فلا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوروبيين » (١) .

كتب المفتى محمد عبده التلميز لجمال الدين الأفغانى :

« حين كنت في باريس (١٨٨٤) عرضت عليه أن تترك السياسة وأن نبتعد عن أنظار الحكومة ونعمل بالتبليغ . وهكذا يمكن أن تؤدي عملا له نتيجة رائعة خلال عشر سنوات . إذ أننا في مجال السياسة لا تسوى موتنا مهما ملكنا من قوة أى شيء . فأجاب الأفغانى قائلا :

« إنما أنت مبطل » (صفحة ٥٠) .

في القرن التاسع عشر ظهرت ثورتان كانتا على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة النظر الإسلامية : الأولى تمثلت في تمسحيع

الاستشراق الذي استمر سبعمئة سنة ، وكأنه كان اعترافاً عملياً من أهل الغرب بمدى الإسلام . والثانية ظهور فن النقد الأعلى Higher criticism . وكان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب المال الأخرى ككتاب ثابت تاريخياً ، وهكذا وضع القرن التاسع عشر أرضية علمية على مستوى رائع للدعوة الإسلامية بطريقة مدعشة حقاً ، هذا بالإضافة إلى أن هذا كان هو الوقت الذي استمدت فيه حركة التحرير الفكرية في أوروبا بكل نقلها وبكل حدتها وقضت على التعصب الديني لندميه ، وكان من نتيجة هذا الأمر أن بدا ممكناً لأول مرة في التاريخ قيام حركة الدعوة لدين الحق في جو من الأمن والطمأنينة .

ووسط هذه الظروف أصبح من الممكن ممارسة الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة إلا أن هذا هو القرن الذي قلم فيه معظم مصطلحينا بإثارة معارك سياسية مع الأمم الغربية حتى أن شعار القومية (مثلاً نظرية القوميين - أو مصر للعصريين) أصبح بمثابة جدار بين المسلمين وبين الأمم الأخرى . فإذا ما دار ب خاطر البعض أن يتهنؤوا للدعوة إلى الإسلام تسعوا فقط بتكوين جبهة مناصرة ضد الأمم الأخرى لا يمكن أن ينفج عنها سوى غرس الكراهية في القلوب وإبعاد الناس عن الإسلام أكثر مما هم بعيدون عنه . وفي هذا العصر ظهرت عدة علامات وظواهر توضح بصورة عملية وجود إمكانيات جديدة لحركة الدعوة الإسلامية . ففي بلاد الغرب أشهر كبار المفكرين إسلامهم (مثلاً محمد عبد وعبد الكريم جرمانيوس) . أو اعترف البعض منهم علانية وصراحة بتفوق الإسلام (مثلاً جورج برناردشو ١٨٥٦ - ١٩٥٠) .

ولم يجر أناس طلبوا أيضاً علانية من المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الدين . وأصبح من الإمكان أكثر من أي فترة سبقت أن تتمتع
١٧م - وانظروا ومستقبلاً

الدنيا كلها بالإسلام (مثلا لورد لوثين ١٨٨٢ — ١٩٤٠) • إلا أن هذه الوقائع والنقائض لم تجد عينا بصيرة من المسلمين : فقد اعتبروا أن كمال الإسلام هو تقديم التضحيات والإنصاحات للصراع السياسي •

ورغم جهلنا المستعمر فلا تزال إمكانيات نشر دين الحق باقية حتى اليوم أينما وبصورة كاملة : فقد أعلن كل من بانجو رئيس الجابون سنة ١٩٧٣ ، والرئيس بوكاسا رئيس أفريقيا الوسطى سنة ١٩٧٩ : وراجة واتوك أمير سرلوك سنة ١٩٧٧ إسلامهم • وهناك أمثلة أخرى عديدة تعد شواهد جديدة على الإمكانيات المتوفرة للدعوة الإسلامية في العصر الحديث وهذه الأهدات توضح من أين يجب أن نبدأ كفاحنا من أجل أن نكسب من جديد معركتنا الضائعة •

• إن الإمامة الفكرية يغلبها من هو على استعداد لدفع قيمتها المادية • هذه مسلمة تاريخية • وهذا هو السبب في أن الإمامة الفكرية تمضى دائما في ظل الإمامة المادية ، ولقد احتفظ المسلمون بالإمامة الفكرية للعالم من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر • لأنهم استطاعوا أن يؤمروا قيمتها نتيجة لقوتهم التجارية وتفوقهم السياسي •

في تلك الفترة كان العلم اسما لعلم المسلمين ولقد شكك زعيم نصارى قرطبة Alvaro المستعربين النصارى في إسبانيا Saverius لأنهم نسوا لغتهم المسيحية (اللاتينية) في ذلك الوقت ، ومعظم الشعب المسيحي أصحاب الكنائس المائبة ما كانوا يهتموا إلا باللغة العربية والأدب العربي ، وبعد ذلك وحين اكتشفت أوروبا قوة الآلة ونتاج عن ذلك بالتسالي تحقيق التفوق الصناعي والرفى للصناع — حينئذ اقلت زعمام الإمامة الفكرية من المسلمين وتناولته أيدي الأمم الغربية •

ومنذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ظلت هذه الإمامة هي يد الدول الغربية وبخاصة هي يد بريطانيا . وفي ذلك الوقت كانت هذه الأمم هي منبع العلوم لجميع طلاب الدنيا . وقد سببت الحرب العالمية الثانية الإمامة المسادية من أوروبا وسلمتها إلى أمريكا : ومنذ ذلك الوقت ظلت أمريكا هي الإمام الفكري للعالم ، وكل من يساعد كذب البحث العلمي اليوم يلاحظ أن معظم المؤلفين الأمريكيين .

لقد أثبتت الأحداث أن سر إمامة الدول الغربية كان يكن غالباً في سبئتين اثنتين . أولهما : الاستعمار وثانيهما : وفود البترول الرخيص . ومن المدهش أن دول الشرق كانت هي مصدر حصول الدول الغربية على هذين الشيئين .

بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت ظروف قضت على الاستعمار تماماً . والظروف التي ظهرت في الربع الثالث من القرن الحالي قد عززت أيضاً أسس الإمامة الأمريكية . وفي سنة ١٩٧٣ وقعت حادثتان مهمتان : الانسحاب الأمريكي من حرب فيتنام التي استمرت عشر سنوات . ثم تخفيض قيمة الدولار . وكان ذلك علامة على أن السيطرة العسكرية والاقتصادية لم تعد الآن قاصرة على أمريكا . ولقد أثبت الحمر الجزئي لتصدير البترول من جانب الدول العربية ثم ارتفاع أسعار البترول أن البترول امبراطور عالم الصناعة . ومن المثير والمدهش أيضاً أن جزءاً كبيراً من مخزون البترول العالمي يكن داخل المنطقة التي يطلق عليها اسم « الخليج العربي » . هذا بالإضافة إلى أن أمريكا أصبحت بحضارة : لاكثر مشاكل العمر الحاضر لأن إنسان اليوم قد فقد ثقته بالحضارة الصناعية : وهذه الحضارة لم تستطع أن توفر للإنسان العماد الحقيقي للحياة : ومن ناحية أخرى ظهرت

عدة مسائل وغلباها معقدة لم تجد حولا : فبالإضافة إلى الحروب وإلى التضخم الاقتصادي والتلوث البيئي والجرائم . والعري والصحى والفساد والتشتت الأسرى وبقية المشاكل التي أفرزتها الحضارة المصنامية . والتي لا يمكن أن يوجد لها أي حل داخل إطار الحضارة الحالية وجدت ظروف أخرى أصابت الإنسان وأبنته بالشت . ويقال إن الإنسان في حاجة إلى نظام جديد يطلعه على هدفه في الحياة : ويكون عوناً له بسد حاجاته الحقيقية . ومع أن هذا الأمر لا يخص أمريكا بمحضه أنسانية فإن أمريكا — وهي عمدة الحضارة الصناعية اليوم — تعتبر أعظم وأرث لتنتائج تلك الظروف السيئة . ويتضح هذا الأمر من الحكيمة التالية :

سانو • سوامي ديويكافور : (١٨٦٣ — ١٩٠٢) إلى أمريكا في آخر القرن التاسع عشر فلم يجد مجالا للعمل هناك : إلا أن الدعاء الهنداكة الآن يقوون بتربية مئات الآلاف من تلاميذهم في أمريكا . لقد تأذى الإنسان العربي الجديد ونار من حضارته ويهدوه الآن سوق جارف للبحث عن أي جديد . ونحن لا نجد « دين الحق » فهو يمتنى خلف أي شيء يترأى له لاسمأ من بعيد .

يذكر الفكر الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠٦ — ١٩٧٦) أن التطور الأوروبي بدأ يصل أوجه سنة ١٤٥٠ وظل هذا العصر لمدة خمسمائة سنة . وفي سنة ١٩٤٩ تولى زعيم السب • مار • فكان هذا إعلانا لنهاية هذا العصر . والحضارة الغربية كما بدت بعد نهاية الحضارة الرومانية . فهي هكذا اليوم تفسح المجال لأية حضارة أخرى خادمة (التأييم ١٨ أبريل ١٩٧٤) .

وانهدام أمريكا في المستقبل القريب امر مؤكد . وبمعدا سيتعرض العالم كله للفراغ فكري لا توجد حياذلك أمة تملؤه . ولا شك أن الصين

وروسيا قوتس جديدين في العصر الجديد إلا أنهما لا يمكنهما هذه الفراغ . والسبب الرئيسي لهذا هو وجود حراع داخلي فيهما . فالبلاد التي أنسحت المجال لاديكتاتورية الاشتراكية وسعت سبلها ووسلها في مجالات معينة وأصبحت أمدا خوية . وكان هذا هو المانع الذي حصل دون ظهور أي فكر متطور بدلها . فيمكن للعلوم التقنية أن تتطور إلا أن تطور العلوم الفكرية يحتاج بالضرورة الى جو ومناخ لا يمكن أن يوجد في ظل التنظيم الاشتراكي . وهذا هو السبب في أن التطور العلمي في الصين وروسيا إنما هو تطور مقصور على التطور في العلوم التقنية ، إلا أن الدولتين لم يخرجا لنا حتى الآن أي عمل علمي فكري رائع .

ثم تأتي اليابان . ولا شك أن اليابان حققت معجزة في مجال التطور الصناعي ، إلا أنها بالمقام الأول مجتمعت تقني ، ولا أمل — في المستقبل البعيد — في أن تتمكن من الحصول على أية مكانة فكرية . وهذا هو الحال تقريبا بالنسبة لألمانيا الحالية .

إن انهدام الأمم العربية واليأس من الحضارة الصناعية ، والفراغ الفكري بصفة عامة . كل هذا وحده يتامل في الدين الحق إلى مقام يجمعهم قادين — إذا استيقظوا وتلبهوا — على أن يصلوا بالإسلام إلى مكانته الحقيقية الواجبة لينالوا بذلك زمام إمامة الجنس البشري مرة أخرى .

إن المانع الوحيد الذي يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهدف السامي هو فائدهم من فاحية امتلاك الوسائل والسبل في هذا العصر الصناعي . وقد أمدتهم الله ووضع تحت أقدامهم فطائر من البترول يمكن أن تعمل تخلفهم هذا بطريقة مذهلة . وقد وسعت الأهمية العالمية للبترول بعد الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل (أكتوبر

(١٩٧٣) ، وليس هناك من شك في أن الثروة الطبيعية للبترول يمكنه ان تعوض التخلّف الصناعى للأمم المسلمة ، وليس هذا لقطر بل يمكن ان تملأ بهم وسط الظروف المحلية إلى مكانة اذا ما تعلموا معها العمل بتضاد ونظام أمكنهم التحكم في اقتصاديات العالم كله .

والحقيقة أن الوقت الآن هو انسب الأوقات التى يمكن أن تبدأ فيها مسيرة سفرنا نحو هذا المستقبل الذى ينتظرنا وينتظرنا فقط .

من اللازم لنا أن نطّلك الأسباب المادية لإحياء الإسلام . ولكن يجب أن نعرف بأن هناك حقيقة واضحة ومرة تقف حجر عثرة في طريقنا ، فمنذ ثلاثمائة سنة مضت حين كانت الدول الغربية منهكة في الكفاح من أجل الرقى المادى ظلت البلاد الإسلامية غارقة عن التغيرات التى تدور ، وبقيت في غلة مستمرة ، وكانت النتيجة أنها تطلعت كثيراً عن الأمم الأخرى على ركب التطور المادى .

وفي السنوات الحالية بدأت تظهر علامات الكفاح على العالم الإسلامى . إلا أن الهوة بيننا وبين معارضينا قد زادت . وزدنا تخلفا على تخلفنا ، ونحن نصل بعد آلاف المراحل من الكفاح إلى تطور الغرب الصناعى ذاته سيكون قد وصل كما يقول أيلون تاملر إلى عصر ما بعد الصناعية Super Industrial age . والحقيقة التى يسميها علماء الجغرافيا بالمصدفة الجغرافية ، ربما هى تدبير من لدن الله لسد هذا للفجوة . فهذه ثروة لا يمكن فقط أن تعوض التخلّف الصناعى في الدول الإسلامية بل يمكن أيضا أن تؤدى الثمن الذى نحتاجه من أجل الكفاح المؤثر لإحياء الإسلام في العصر الحديث .

والفختم هذا الفختم ببساطة لمونتجيمى والت : « إن الدنيا تتحرك بسرعة كبيرة لتصبح دنيا واحدة ، ويزداد هذا الاتجاه ، حتى

يرجى فيها اتحاد وتماثل ، ونتيجة لهذا الالتقاء سيأتى يوم يكون فيه
للأصول الأخلاقية لنظم لا يصبح فقط جوارزا عالميا بل ستعترف به
الإنيا كلها وسيصبح أمرا مقرا .

ويدعى المسلمون أن محمدا ﷺ هو نموذج على وأخلاقى للجنس
البشرى . يقولون هذا ويدعون الناس ليتمكنوا من أن يقيموا على هذا
الرأى حياتهم . وحتى الآن لمكن لبعض العالم أن يهتم بهذا الأمر .
ولكن نتيجة لقوة الإسلام سيحقق هذا الأمر أهمية كبيرة . والسؤال
الآن هو هل هناك أصول لى حياة محمد ﷺ وفى تعاليمه تستحق أن
يتعلمها الناس . ويمكن أن يقدم للعالم المستقبل نظاما أخلاقيا فريدا ؟

لم يلق عالم اليوم إجابة نهائية على هذا السؤال . إن ما قاله
المسلمون حتى الآن لتدعيم رأيهم فيما يتعلق بمحمد ﷺ هو مجرد
بين أولى . اطمأن إليه عدد قليل جدا من غير المسلمين . والموضوع
لا يزال مطروحا : ما هو رد فعل العالم فيما يتعلق بمحمد ﷺ ؟ إن
هذا يتوقف إلى حد ما على ما يفعله مسلمو العصر الحاضر من أجله ،
والفرصة أمامهم اليوم متاحة ليعرضوا على بقية بلاد العالم نفسيتهم
بطريقة الفصل وأسلوب أكمل . قبل يمكن أن يوضح المسلمون للعالم
حياة محمد ﷺ كنموذج إنسانى كامل من أجل إيجاد مثل أخلاقية
للعالم المتحد . لو استطاع المسلمون أن يعرضوا نفسيتهم بطريقة
الفصل فلا شك أنهم سيحددون من بين التصاري من يحفى ويستمتع
إيهم (١) .

خاتمة

خلق الله الإنسان حراً . إلا أن هذه الحرية ليست حرية مطلقة
أو بلا حدود ؛ فحرية الفرد تنتهي بموته . ومن حيث المجموع فإن
حرية الجنس البشرى بأكمله سوف تنتهي بيوم القيامة . وبعد نهاية
هذه الحياة الدنيا تبدأ حياة أخرى ، وهناك يقسم الناس إلى مجموعتين :
مجموعة أقامت حرية حياتها الدنيوية على أسس من مبادئ الله .
وهؤلاء سيدخلون الجنة ؛ والمجموعة الثانية تضم أولئك الناس الذين
تضوا أوقات حياتهم بدون خوف من الله ؛ وهؤلاء سيحشرون في جهنم .
وهذا تقسيم دائم . لسوف ينال أهل جهنم ينظرون بنارها . وسيظل
أهل الجنة يرتعون في نعيمها وروضاتها .

ونتيجة لذلك هذه المسألة فقد وضع الله نظاماً ؛ وذلك أنه حين
خلق الإنسان أرسل إليه الأنبياء والمرسلين ؛ فأخرج من كل بلدة ومن
كل نسل أنبياءهم . أنزل عليهم الرُوحى . وأنزل عليهم الكتاب ؛ حتى
يقوموا بإرشاد الناس إلى حقيقة الحياة بوضوح وصرامة . وهذه
السلسلة ظلت تمتد من آدم حتى المسيح حتى قرر رب العباد أن
يرسل آخر رسله فأنزل عليه آخر الكتب السماوية وحفظه إلى الأبد .
وهكذا بدأ عهد جديد من تاريخ البشرية مع القرن السابع الميلادى
لقد وجد كتاب الله (القرآن الكريم) بحالته الأمانة المصونة لأنه لن
يأتى نبي آخر يبلغ الناس دين الحق .

ولكن ماذا أعد الله للإنسان الذى يولد بعد ختم النبوة ثم يموت
بعد أن يولد ، لماذا فعل الله حتى يطمئه على الدين الحق ؟

الجواب هو « الأمة المصطفية » ؛ فآخر رسل الله قد أشهد أمته
على الدين ، ومن هنا أصبح من مسئولية الأمة المصطفية دائماً أن تكون

شاهدة أمام جميع الخلق الذين يولدون حتى يوم القيامة حين يعرض الناس أمام الميزان وتقف هذه الأمة حينذاك وتقول : لقد بلغنا رسالة الحق إلى هؤلاء الناس ، ورغم هذا غاؤلكم الذين لم يتبعوا رسالة الحق يتعملون ويزرعون وتبعة عملهم .

ذلك هو العمل الذي عبر عنه القرآن بالدعوة إلى الله . ومسئولية الأمة المعبدية النهيوس بهذا العمل . ولا يمكن أن تتخلص من تبعه هذه الميعة بأي حال من الأحوال . ولا يمكن أن ينقذها من التدمير في هذه المسئولية أمام الله أي عذر أو سبب . فإذا لم تخلص الأمة المعبدية بأداء هذه الميعة ، وإذا لم تحفر أعم العالم من اليوم القادم : فسوف ينالها العذاب في الآخرة شأنها في ذلك شأن الأمم الأخرى . وإذا كن ذنب الأمم الأخرى هو أنها لم تتبع الحياة القرآنية فإن ذنب الأمة المعبدية سيكون في إهمالها عن إرشاد أعم العالم إلى اتباع مرشاة الله . والذنب الثاني لا يقل عن الأول بأي حال من الأحوال .

والذنب الذي تحمل وزره اليهود كان لأنهم حملوا الأمانة الإلهية ثم أخفوها ولم يعلموا الناس عليها . فالخطأ الذي ارتكبه حملة التوراة إذا ارتكبه حملة القرآن فإن يعاملهم الله إلا بنفس المعاملة التي عامل بها حملة التوراة . وسوف يتعرضون لنفس العقوبة التي قررها القانون الإلهي على من سبّوهم ، فليست هناك علاقة خاصة أو محاباة لأمة من الأمم عند الله : ولا يجب أن تعتقد جماعة ما أن لها مع الله علاقة خاصة أو علاقة محاباة .

وعلى المسلمين اليوم أن يؤدوا الفريضة الدعوة أمام أهل الدنيا . تلك الفريضة التي أداها الرسل في زمانهم : أمام أولئك الناس الذين عاشوا في عصورهم : وهذه الفريضة هي إيلاغ رسالة القرآن إلى الناس : وكما أن المال بدون دفع زكاته يصبح هراماً للمسلم وهكذا

لا يجوز لنا أن يكون لنا من حياتنا أى شعيب بدون أداء هذه الفريضة
ولن ندل السرور ولن يكون نعيمنا نعيماً ولن تكون عاقبتنا عاقبة عادتنا
لا نقوم بالشهادة أمام العالمين أو على الأقل تشكل أنفسنا بما يلي :

✽ أن نقوم بترجمة القرآن الكريم على أعلى مستوى إلى جميع
لغات العالم .

✽ أن نعد كتباً بأسلوب حوشت عن حياة الرسول والمصطفى
وأن نشعها أمام جميع أهل الدنيا .

✽ أن نعد ترجمات لأحاديث الرسول ﷺ ، إلى لغات العالم .

✽ إعداد مؤلفات عن تاريخ الإسلام (لا عن تاريخ فنوحات
الإسلام) ونشرها على مستوى واسع .

✽ تأييد وتعظيم الإسلام بلغة جديدة وبأسلوب عصري .

✽ اتباع جميع الأساليب العملية وإنشاء هيئات مساوية تكون
لازمة لإبلاغ الناس رسالة الحق بطريقة مؤثرة .

وهذا العمل ببساطة ليس مجرد كتابة وخطابة ، بل هو عمل له
مغزاه وهو يعنى بعبارة أخرى « التناية الإلهية » ومن هنا يجب إعطاء
القدر الكافى من الاهتمام . ويجب أن يكون على قدر من الاتزان
يتساوى مع قدر مبلغى أعظم رسالة ، على أن يتلصق الأمر الرغبة فى
الخير وسمة الصدر وما يستلزمها من أمور أخرى متوقعة من حاملى
هذه المسئولية الجسيمة ، ويلزم أيضاً أن نطلق ونرتعد من جهنم التى
نخيف بها الآخرين ولأن نحرص على اللجنة التى ندعو إليها الآخرين
ولا نجعل من الدعوة والتبليغ مسخرة . إذ يقوم بها من هو غير مؤهل
لقيامها .

وهناك قضية مهمة في تاريخنا الحديث ، خلال القرنين الماضيين تقريبا ظهرت حركات كبرى كثيرة في العالم الإسلامي . خالت فرصا عديدة تمكثها من العمل . إلا أن نتائج محاولاتها وصلت حقيقة إلى درجة الصفر إن لم تكن أدنى من ذلك . وهذا الفشل حدث رغم أنها وضعت لتتبنى برنامجها احسن الوسائل : لقد توفر لها العلم ، والقدسية والإخلاص ، والشجعية والتضحية والمدة والعتاد ورأس المال ، وجميع السبل بقدر وفير ، إلا أن ملاحظة نتائج محاولاتها — التي كانت كالنولان — يدللنا على أن هذه الحركات هادت قافلة الأمة الإسلامية إلى الورا .

ولذلك الناس الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يؤمنون به حيا فعلا لا يمكنهم أن يهركوا بانفسهم ويوجدوا أفكارهم هذه ، إلا أن الإيمان بأنه يستلزم أن نفهم هذه الحقيقة على أساس سنة الله وأن نتعامل معها معاملة إلهية مباشرة .

وحيث تفكر من هذا المنطلق ، وحيث نجعل القرآن هدينا في هذا الأمر يثبت لنا بدون شك أن فشل حركتنا سببه الوحيد هو أن هؤلاء الذين ترعفوا هذه الحركات لم يقوموا بالواجب الأساسي الذي وعد الله على أساسه أمته المسلمة بالنصر الاجتماعي : فقد اشترط الله علينا لننصرنا أن لنصره ، أي أن مهمتنا لا يجب أن تقوم على أساس من المطالب والاحتجاجات من أجل تحقيق حقوق دنيوية بل هي مهمة قائمة على « طريق التعريف بالآخرة » وحركتنا هذه إنما هي حركة دعوة إلى الحق لا حركة سياسية ولا حركة اقتصادية .

لذلك هي أساس المشكلة التي جعلت من جميع محاولتنا مصادقا لنزله تسالي « خبطت أعمالهم » ، لقد قمنا بحركات تهدف إلى

تدقيق سياسة دنيوية ومن هنا لم يتمكن من الفوز بالتصمر السماوى .
فإذا أردنا اليوم أن ننجو من التدمير الذى أصابنا فإن أنفريق الأوجده
ليذا هو أن نصبح بحق دعاة الحق أملم أمم العالم الأخرى ، وأن
تترك الصراع السياسى والاقتصادى . وأن نجعل من قضية الجنة
والنار قضيتنا الأساسية وأن نطلع عليها الناس . فهذا هو السبيل
المؤدية للفوز بتصمر الله . وطالما لم نحصل على نصر الله فلن نتمكن من
الحصول على أى نجاح من أى نوع لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

إن عقلمة أهل الإسلام وفوزهم إنما هى كما ورد صراحة فى
القرآن الكريم « إنعام إلهى » . وهذا أمر معروف ، فالإنعام أو الجائزة
إنما تكون مقابل عمل خاص . إذن ما هو العمل الذى أداء أهل الإسلام
ليستحقوا به هذا الإنعام أو هذه الجائزة ؟

إن هذا العمل الذى يجب أن يؤديه أهل الإسلام هو فى الواقع
هدف بعثة الأئمة المهدية . أى السيادة أمام العالمين وذلك بواسطة
التبليغ ورسم الطريق أملم الناس إلى مرضاة الله حتى لا تكون هناك
هجة فى الآخرة . هذا هو العمل الذى يستحق به المسلمون إنعام
الله . فإن لم يؤد هذا العمل المطلوب ، فلا يمكن أن تأمل فى استحقاقنا
بهذا الإنعام الإلهى نظير قيامنا بأية حركة أو ثورة ، غاية حركة أو
ثورة لا يكون هذا هدفها إنما تستحق العقاب لا الثواب .

تم بحمد الله وتوفيقه

من

مطبوعات دار المسحوة

- ١ - عصر الإصلاح
تأليف محمد تنى الأمين
- ٢ - ثقافة المسلم
د/ عبد الحليم عويس
- ٣ - الوقت فى حياة المسلم
د/ يوسف القرطامى
- ٤ - الرسول والعلم
د/ يوسف القرطامى
- ٥ - صلاح الأمة على هدى السنة
د/ محمد محمد الشريف
- ٦ - مؤشرات حول الحضارة الإسلامية
دكتور / عماد الدين خليل
- ٧ - الدولة والسلطة فى الإسلام
دكتور / محمد معروف الدلبى

- ٨ - قضية البعث الإسلامي « المنهج والشروط »
تأليف / وحيد الدين خان
- ٩ - أزمة المقتفين تجاه الإسلام
دكتور / مهن عبد الحميد
- ١٠ - المختار في الرد على النصارى الجاحظ
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
مع دراسة تحليلية تفويجية
تحقيق ودراسة دكتور / محمد عبدالله الشرفاوي
- ١١ - من معالم الحق
في كتابنا الإسلامي الحديث / محمد الغزالي
- ١٢ - الإسلام كما ينبغي أن نؤمن به
د/ عبد الحليم عويس
- ١٣ - ضوء الساري إلى معرفة رؤية البارى عز وجل
شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن
الشافعى المعروف بابن شامة رحمه الله
تحقيق دكتور / أحمد عبد الرحمن الشريف
- ١٤ - ولقنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام
تأليف / وحيد الدين خان
مراجعة : د/ عبد الحليم عويس

- ١٥ - الوجيز في الاقتصاد الإسلامي
مكتور / محمد شوقي الفنجري
- ١٦ - رسائل الأعلام
إخراج وتقديم :
محمد الرابع الحسني الندوي
- ١٧ - أمهات المؤلفين
أحمد حسين شرف الدين
- ١٨ - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين
أبو الحسن الندوي
- ١٩ - نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان
أبو الحسن الندوي
- ٢٠ - العالم الإسلامي اليوم
محمود شاكر
- ٢١ - الأدب الإسلامي وملكته بالحياة
مع نماذج من صدر الإسلام
محمد الرابع الحسني الندوي
- ٢٢ - شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية
أبو الأعلى المودودي
- ٢٣ - سر تأخر العرب والمسلمين
محمد الغزالي

رقم الإصدار ١٩٨٤/٥٩٢٠
التقديم الدولي ٧ - ١ - ١٤٢٠ - ٩٧٧

دار الصحوة ... وهذا الكتاب

لم نطمح دار الصحوة لتكون مجرد دار نشر تجارية ، بل قامت لتخلق مدناً إسلامياً بالدرجة الأولى ... وهذا الهدف - بالتحديد - هو الأخذ بيد المسلمين لفهم الإسلام فهماً حقيقياً تابعاً من مصادره الأصلية ... وفهم التحديات التي تواجه المسلمين ...

وفهم الأسلوب الأمثل والأقوم في مواجهة التحديات .

وأخيراً ... لقد قامت دار الصحوة لترفع من مستوى الإنسان المسلم روحياً وثقافياً ... حتى يكون منسوب المسلم الفكري والأخلاقي أعلى من منسوب الحضارة الحديثة ... وبالتالي يكون المسلم أهلاً لقيادة الحضارة وفق سنة الله الكونية التي لا تتغير قيادة سقيمة الخلق إلا للراشدين الثابتين المخلصين ... ولن ننسها أبداً لغوهم ...

وهذا الكتاب ... خطوة من خطوات دار الصحوة ... في هذا الطريق .

دار الصحوة

جداق حطان بجوار عمارات الهندسين
شارع جمال عبد الناصر
القاهرة